

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، وبعد:

فمن الحقائق المؤكدة أن الشاعر أبعد نظراً، وأرعى سمعان وأسرع التقاطاً، وأقوى تعبيراً، وأبلغ تصويراً لما يجري على الساحة من أحداث.

ومحمد الخضر حسين من هؤلاء الشعراء الذين يتمتعون بعين راصدة، وكبد حرى واقدة، تجاوزت مع الأحداث وعبرت عنها بصدق، ولم لا وقد شب على الطوق فوجد الاستعمار الفرنسي جاثماً على صدر بلاده، ينعم بخيراتها ولا يرضيه إلا أن يكون سيداً على أبناء الوطن، وما إن تحرك شاعرنا وانتفض هو وغيره من الغيورين الذين عاشوا الحرية، وذاقوا حلاوة الديمقراطية، إلا ويد الغدر قد كبلتهم وفي السجون أودعتهم، وما إن فرج الله همهم وخرجوا من تحت أسرهم إلا وقد عزم بعضهم على الرحيل حيث الحرية وتنفس هواء العدالة الاجتماعية، فهاجر شاعرنا وأسرته إلى المشرق وكانت بلاد الشام وجهته، ومصر مستقره ودار إقامته إلى أن وافته منيته رحمه الله.

وقد انتظم البحث في مقدمة وتمهيد وفصلين وخاتمة ثم قفي بفهرس للمصادر والمراجع وآخر للموضوعات:

التمهيد: تناولت فيه لمحات من حياة الشيخ " محمد الخضر حسين".

الفصل الأول: الدراسة الموضوعية للتجربة الشعرية لدى الخضر، تناولت فيه الحديث عن:

- ماهية التجربة وموضوعاتها، والتي قد تعددت وتتنوع تياراتها عنده فكان منها
- التيار الديني والذي كان بارزاً عند الإمام الخضر، فوجد شاعرنا في المناسبات الدينية متسعاً لبث لواعج النفس، والتنفيس عن صدره المكلوم وفكره الشريد فشكى واشتكى، وعبر عن حبه لشريعة الإسلام، ووضح جمالها وكمالها. واتخذ من رحلة الحج وزيارة المسجد النبوي معراجاً للتعبير عن حبه لصاحب الشريعة الغراء محمد ﷺ وخواطره تجاه بعض الأماكن المقدسة.
- التيار الوطني: وتراه في هذا الاتجاه، يعيش الذكرى وإن نأت به الديار، ويتسم عبير الوطن على غير أرضه ويستدعي طيفه على غير مهاد.
- شعر الطبيعة: فكان يغالبه حب الجمال - كثيراً - فتأسره الطبيعة بسحرها ويلقي لها عنانه حيناً، فيجني منها صوراً رائقة ومشاهد حية صادقة، ويأسره التقدم بمظاهره العجيبة فينسج صوراً جميلة لبعض مظاهره، صوراً قد حيكّت بخيوط قوية ونفس أبية، طافحة بعشق الحرية.
- التيار الاجتماعي: سبر الخضر أغوار المجتمع ووقف على العديد من أدوائه وأمراضه فشرح الداء ووصف الدواء.
- الصداقة والمراسلات والمطارحات - وتمثل الصداقة للخضر ركناً مكيناً، وزادا طيباً لرحلته الطويلة بين الحياة والموت، فعبر خلال تجربته عن معانٍ صادقة في حب أصدقائه

وودهم ، وأبان عن دلائل الصداقة الحقة، ودارت بينه وبين أصدقائه ومعارفه العديد من المراسلات والمطارات.

- المرض والفقد:

مرض الخضر سنوات قبل موته - رحمه الله - فكان المرض مفجراً لمعان كثيرة، كما كان مرفداً لنمو تجربته وثنائها.

وكانت تجربة الفقد وموت أقارب الشاعر وأصدقائه مرفداً ومنبعاً ثرياً -أيضا - استقى منه الخضر العديد من المعاني والأفكار التي أسهمت بدورها في ثراء التجربة ونموها.

الفصل الثاني الدراسة الفنية: عناصر التجربة.

- الوجدان.

- البنية التعبيرية: (الألفاظ والأساليب، المعاني ،الأفكار ، الخيال ، الموسيقى.

- الوحدة في الصورة..

- الخاتمة

وضحت فيها ما توصل إليه البحث من نتائج .

وقد شجعتني على تناول هذا الموضوع والسير فيه، عاملان أحدهما : قلة الدراسات حول شعر الخضر، إذ أن جل من تعرضوا للخضر عنوا بتسليط الضوء على سيرته ومؤلفاته منهم د محمد موعدة، في كتابه / محمد الخضر حسين حياته وآثاره، دار التونسية للنشر والتوزيع . تونس ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م ، و د/ محمد إبراهيم الحمد في كتابه ، محمد الخضر حسين، سيرته ومؤلفاته، دار ابن خزيمة - السعودية - الرياض الأولى ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤م. اللهم غير دراسة للأستاذ عبد الله لالي: " قراءة في

(ديوان خواطر الحياة) للشيخ العلامة محمد الخضر حسين " جاءت عبر مدونة أحمد طوسون الإلكترونية " أدب وثقافة" وهي قراءة جد مفيدة بيد أنها موجزة وينقصها الكثير من تحليل المواقف والنصوص وتفقد المنهجية في المعالجة ، وقد أفدت منها واقتبست من بعض نصوصها،

وثانيهما، وجود تجربة شعرية حية هادفة للشاعر تستحق البحث والدراسة .

فالهدف من البحث في المقام الأول، الوقوف على ملامح التجربة وعلى موضوعاتها عنده من ناحية

، واختلافها باختلاف العوامل التي شكلتها من ناحية أخرى.

فالحَضر - وإن عرف بتوجهه الكتابي في الدين والأدب والسياسة - له تجربة شعرية جيدة ،عبر خلالها عن نفس تتوق الحرية على أرضها، وتعشق العيش في جنبات وطنها ،وتؤثر الحرية وإن كانت في فيافي أرضها وقفارها.

عاش شاعرنا الاغتراب في غير حبس، وتجرّع الغصص في غير أصفاد، تجربة نفس تعيش أملاً طالما

راودها حلمه ، وظل يراودها حتى لفظت أنفاسها الأخيرة. فيالها من نفس أبيّة يستعصي طريفها على تليدها.

التمهيد

الشيخ محمد الخضر (لمحات من حياته وأدبه)

محمد الخضر حسين ، هو اسم الشهرة لهذا العالم والإمام الجليل ، وهو الإسم المعروف في الأوساط العلمية والثقافية، أما اسمه الحقيقي فهو محمد الأخضر بن الحسن ينتهي نسبه إلى الحسن السبط بن فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ^(١).

ومحمد الخضر جزائري الأصل، تونسي المولد والنشأة، الشام مهاجرة، ومصر مستقر نواه^(٢).

ولد محمد الخضر حسين في مدينة (نفطة) من مقاطعة الجريد بتونس ١٢٩٣هـ على أصح الأقوال. كان أبوه الحسين بن علي من مريدي الشيخ "مصطفى بن عزوز" صاحب الطريقة الرحمانية. وأما أمه فهي السيدة "حليمة السعدية" بنت الشيخ "مصطفى بن عزوز" وهي من الشهيرات بالتقي والعلم والصلاح^(٣).

وكانت "نفطة" بلدة الشيخ ذات واحات من النخيل الجميلة، ومياه عذبة صافية، كما كانت مقراً للعلم وقبلة العلماء وكانت تلقب بالكوفة الصغرى^(٤)، وكان لهذه النشأة ولهذه الطبيعة أثر واضح في تجربته فقد أسرته الطبيعة بسحرها وخلابتها وظهر أثر الثقافة العربية القديمة في صياغته لتجربته.

ومما أثر عن الشيخ في حديثه عن بلدته ونشأته قوله: "نشأت في بلدة الجريد بالقطر التونسي، يقال لها (نفطة) وكان للأدب المنظوم في هذه البلدة نغمات تهب في مجالس علمائها، وكان من حولي من أقاربي وغيرهم من يقول الشعر فتذوقت طعم الأدب من أول نشأتي، وحاولت في سن الثانية عشرة نظم الشعر"^(٥).

وهذه الإلماحة عن نشأة الخضر ندرك دور النشأة في حياته، فأسرته أسرة محافظة تهتم بالعلم وتقدر له قدره، وبيئته العلمية أسهمت في تشجيع النشء على تحصيل العلوم ومدارستها وسهلت لهم طرقه وكان للأدب فيها - كما قال الشاعر - شأن أي شأن.

وفوق كل ذلك ما جبل عليه الشاعر من علو الهمة والتي كثيرا ما تغنى بها في ديوانه . يقول مصورا شغفه بتحصيل العلم وصبره عليه في صباه، وجدته في ذلك، ولوم نفسه إذا انتابها شيء من الفتور: ^(٦)

ورَدَّتْ مناهل العرفان طفلاً وواصَّلت العشيَّة بالغداة
فأفنيَّت السنين تُجيل فِكراً وتكشِف عن وجوه المُعضلات

(١) ينظر: محمد الخضر حسين حياته وآثاره، أ / محمد مواعدة، ص ١٣، الدار التونسية للنشر، تونس ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م

(٢) الشيخ محمد الخضر حسين ، سيرته ومؤلفاته، د / محمد إبراهيم الحمد، دار ابن خزيمة - السعودية - الرياض الأولى ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.

(٣) محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٣، ١٤.

(٤) ينظر: ملتي الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر، اعتنى به على الرضا الحسيني، ص ٣٣، دار الأنوار، بيروت،

لبنان، الأولى، ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.

(٥) ديوان خواطر الحياة ص ٧.

(٦) الديوان، ص ٤٨

علام أراك تحذو حذو عُمر
تكد تغوص في جرع إذا ما
فتزهـد في التجلُّد والأناة
عراك ضننى وتلهج بالشكَاة

وقد تفجرت موهبته مبكرا، فقد حاول نظم الشعر في سن الثانية عشر، وكان لأساتذته بجامع الزيتونة بتونس دور كبير في صقل موهبته إذ كان منهم من كان له ولع بالأدب كما كانوا يتنافسون في صناعة القريض إلى شأو غير قريب. (١)

ولا ننسى دور البلدان التي رحل إليها الشاعر في المشرق العربي وما كان لها من إسهامات في سعة ثقافته، واتساع مداركه يقول في ذلك: "نزلت دمشق وللشعر فيها سوق غير كاسدة ولكني آثرت أن أصرف القريح في البحث العلمي، أو في القضية الإسلامية، بقدر ما أستطيع، وربما نزعت نفسي إلى أن أقول شعرا فأرخي لها العنان.... ثم هبطت مصر، وكانت صناعة القريض قد ارتقت فيها إلى ما يطمح إليه الشاعر العبقرى فازدبت زهدا في النظم، وقلت يومئذ: أجوده ليس في متناول قريحتي، وغير الأجود تتسامى عنه همتي، وربما خطرت لي صور من المعاني في أوقات أبتغي فيها راحة فألبسها ثوبا من الكلام الموزون" (٢)

مراحل في حياة الخضر

مرت حياة الخضر بمراحل ثلاث:

الأولى: ويطلق عليها المرحلة التونسية وتمتد منذ ١٨٧٣: ١٩١٢م وهي السنة التي غادر فيها تونس إلى بلاد المشرق وكان عمره آنذاك قرابة الأربعين.

الثانية: وتمثل حياته بسورية وأهم ما يميز هذه المرحلة كثرة أسفاره، فقد سافر خلالها إلى بلدان عربية وأوربية أثناء الحرب العالمية الأولى، كما تنقل أثناءها ما بين سورية والأستانة وبرلين، وتقدر هذه المرحلة بثمان سنوات تقريبا. وتمتد ما بين ١٩١٢ إلى ١٩٢٠م (٣).

وعن سبب هجرة الشيخ إلى بلاد الشرق يحدثنا ابن أخيه / علي الرضا الحسيني قائلا: " كان سبب الهجرة - حسب ما توصلت إليه ، أولا: رغبة الإمام في الانتقال إلى الشرق، بعد أن ضاق عليه الخناق في تونس وملاحقة السلطات الاستعمارية له، وحيث مجال عمله الإسلامي أوسع نطاقا وأفسح ميدانا وسبب آخر هو : نظرة المغاربة إلى بلاد الشام ، ويدعونها ، الشام السعيد " (٤).

اعتقل الإمام ستة أشهر من أغسطس ١٩١٦م إلى يناير ١٩١٧م، وجرت محاكمته أمام المجلس العرفي العسكري في (خان مردم بك) بدمشق، في عهد جمال باشا بتهمة أنه حضر مجلسا خاض فيه أحد المحامين في

(١) ينظر مقدمة ديوان "خواطر الحياة" للشاعر ص ٦.

(٢) المرجع نفسه ص ٧.

(٣) ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ٣٥

(٤) المرجع نفسه ص ٣٥

سياسة الدولة، وسعى إلى تأسيس جمعية تدعو إلى الانفصال عن الدولة العثمانية والخروج عنها^(١). كما أصدرت السلطات الفرنسية حكما عليه بالإعدام غيابيا لتحريض المغاربة على الثورة ضد المستعمر، كما صدر أمرا بحجز أملاكه بقصد بيعها في يونيو ١٩١٧م^(٢).

المرحلة الأخيرة: وتمثل حياته بمصر، فقد اتخذ الخضر مصرا دار مستقره وإقامته، كما تمثل مرحلة الخصوبة الفكرية وذروة النشاط العلمي، حيث ألف خلالها معظم نتاجه العلمي "ويمكن أن نطلق عليها مرحلة المجد الثقافي والعلمي؛ لأنها الفترة التي برزت فيها مكانته، وتقلد أثناءها مناصب عالية تؤكد غزارة علمه وعمق ثقافته^(٣). ومن أهمها منصب "شيخ الجامع الأزهر" وتمتد هذه المرحلة من ١٩٢٠: ١٩٥٨م، وقد انتقل لمصر إثر احتلال فرنسا سورية سنة ١٩٢٠م إذ أصبحت إقامة الشيخ معرضة للخطر. والناظر في هذه الفترة التي عاشها الشيخ يجد أنها كانت مليئة بالحوادث الجسام من حرب عالمية، واستعمار بعض الدول الأوروبية الكثير من البلدان العربية، وجو كهذا لا بد أن يؤثر على شخصية الأديب، ومن ثم على نتاجه وتجربته.

ويتحدث ابن أخيه عن رحلته من دمشق إلى القاهرة قائلا "وهناك سطع نجمه وبرز علمه وفي كل المدن التي زارها في رحلاته المتعددة كان يلقي الدروس الدينية في مساجدها والمحاضرات في نواديها في مختلف الفنون"^(٤) وهجرة الشاعر إلي الشرق وإن كانت لها جانب إيجابي، من عيش الشاعر في أمن بعيدا عن أعين المستعمر وتسلطه، فقد كان لها جانب سلبي حال دون الجرأة في النقد وتصوير العيوب والظواهر السلبية، وتسليط المجهر على القضايا الشائكة في القطر الذي هاجر إليه، إذ وجدناه كثيرا ما يكتفي بتصوير المشهد أو الحدث الذي لا يروقه أو ذكر سلوك مصاد لهذا السلوك دون النقد الجريء الذي يتطلبه الموقف، فلم أعتز على قصيدة واحدة ينادي فيها الشعب المصري أو السوري مبرزا ما لا يروقه وهذا يعد من أكبر أسباب الاغتراب عنده.

عاش الخضر فترة ضعف الخلافة العثمانية، إذ بدأت تفقد سيطرتها على كثير من البلدان الإسلامية والعربية التي تتصوي تحت لوائها، فالجزائر وتونس سقطتا في يد فرنسا، وطرابلس المغرب سقطت في يد إيطاليا. أما عن بقية الدول العربية فقد استطاعت أن تخرج من حوزة الدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى. يقول د/إبراهيم عوضين عن سياسة فرنسا في المغرب:^(٥) "وفي المغرب فوجئت البلاد بقوانين (الظهير البربري) التي أصدرتها فرنسا، بقصد فرنسة البربر، ومقاومة العروبة والإسلام، فقامت الحركات الوطنية سنة

(١) ملتقى الإمام في الجزائر ص ٣٧.

(٢) المرجع نفسه ص ٣٩.

(٣) السابق ص ٥.

(٤) نفسه، ص ٣٧.

(٥) الإسلام في الأدب العربي المعاصر، د/إبراهيم عوضين ص ٣٥٣. طبعة ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، مطبعة السعادة، ميدان أحمد ماهر، القاهرة.

١٩٣٠م بالتصدي لذلك، وتم تشكيل (كتلة العمل الوطني) لتتوير الرأي العام في الخارج بشأن كفاح المغرب، وإعداد الشعب للمقاومة، وانتشرت الدعوة لمقاطعة فرنسا تجارياً، وازدادت قوة الحركة الوطنية بتولي السلطان محمد بن يوسف العرش لإيمانه بحق بلاده في الاستقلال، لكن فرنسا أمرت بجل " كتلة العمل الوطني".

وقد تضافرت القوى اليهودية والصليبية، للقضاء على الخلافة الإسلامية العثمانية باعتبارها التجسيد الحي للأمة الإسلامية وقت ذاك. " ولم يكتف الغرب بذلك، بل شجع الحركات الانفصالية داخل الدولة بين الترك والعرب وحرك الثورة العربية بواسطة عملائه، وأثاروا فتنة القوميات والعصبيات الإقليمية بغرض التفرقة والتفتيت"^(١).

أما عن حالة تونس في الحقبة التي عاشها الشاعر فقد كانت حالة مضطربة، حيث الاحتلال الفرنسي لها سنة ١٨٨١م وكان عمر الخضر آنذاك ثمان سنوات.

وكانت في ذلك الوقت مشغولة بمشكلاتها الداخلية من فتن ، وثورات ، وسوء إدارة ومجاعات وأوبئة .. الخ^(٢) ثم تواصلت بعد ذلك حالة الفرنسة والإدماج القاضية بطمس معالم الهوية الإسلامية والسيادة القومية شيئاً فشيئاً، فحاولت فرنسا جاهدة إغراء التونسيين بالتجنيس بالجنسية الفرنسية^(٣).

وقد حذر الشيخ الخضر من عاقبة ذلك الإدماج، واعتبر بما كان للجزائر من جزائه وقال: " لقد كان في قصص هؤلاء المتفرنسين عبرة لأولى الألباب من التونسيين وهي ما جعلتهم يحذرون من أن تمسح نفوسهم وتصير بطبيعة التجنيس الفرنسي كالخوافي بل القوادم للسلطة المستعمرة، فيزداد الشعب من بلائهم حنفاً على حنق، وربما عجل ذلك الحنق المترامك إلى أن تتقلب أناته عزماً نافذاً وأنفاسه المكتومة شرراً متصاعداً فينخلّ وكاء فتنة تفتل يد القوة الحاكمة عن وقف سيلها الجارف وإعادة الراحة إلى قرارها المكين"^(٤).

وقد برزت تيارات إصلاحية عديدة في تونس إبان الاحتلال الفرنسي لها أهمها: التيار الديني الاجتماعي، والتيار السياسي. فقد تآزر التياران على إصلاح تونس والنهوض بها. يقول الأستاذ موعدة: " وتجدر الإشارة في هذ المناسبة إلى الجهود الكبيرة التي بذلها الوزير المصلح خير الدين سنة ١٨٨٩م في الميدان الاجتماعي والسياسي، كذلك ما بذله نخبة من المثقفين اللامعين بعده على رأسهم محمد بيرم

(١) الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة الإسلامية. مصطفى حلمي، ص ١٨، الناشر: دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الأولى: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م،

(٢) ينظر : المغرب الكبير، العصور الحديثة ، د/ جلال يحيى ، ج ٣ ، ص، ٢٨٤ ، النهضة العربية ، ١٩٨١م
(٣) الفرّنة هي: سياسة الإدماج والاحتواء ، وتقوم تلك السياسة على فرنسة الشعوب ، ومنحهم جميعاً الحقوق نفساً التي يتمتع بها الفرنسي في بلاده . ينظر ، مشكلة فرنسا في شمال إفريقيا ، أ / محمد رفعت ، مجلة الكاتب المصري ، العدد ٨ ، ص ، ٢٧٧ ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، ١٩٦٤ م .

وهي سياسة نشر وتوسيع اللغة الفرنسية ومعها الثقافة الفرنسية وتوصيلها إلى العالم وجعلها مسيطرة ورائدة وسائدة على غيرها من اللغات وقد ظهر المصطلح مع بداية حملة الاستعمار الفرنسي للدول وخاصة الأفريقية. ينظر: ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

(٤) الإرث الفكري للإمام محمد الخضر، ضمن موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، اعتنى بها / على الرضا الحسيني، ص ٦٠ - دار الأنوار. "سورية، لبنان، الكويت، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

الخامس ت ١٨٨٩م، ومحمد السنوسي ١٩٠٠م. ثم يقول: "ومن شاء أن يقضي العجب فليقضه من جوانب ذلك العميد إذ تظاهر بالعجب من هذه الثورة الفكرية المزعجة قائلاً: إن فرنسا لم تضع هذا القانون على وجه الإكراه وللتونسي الذي يراه مخالفا لدينه أن يحتفظ بقوميته"^(١).

وللشيخ الخضر دور كبير من أحداث عصره، يتجلى فيما قام به من إصلاح ديني واجتماعي، فله جهود مشكورة في إصلاح التعليم بجامع الزيتونة بتونس وغيره الكثير، وبتأسيسه مجلة السعادة العظمى^(٢).

حالة البلاد المصرية:

لعل أبرز الأحداث التي مرّت بها مصر قبل القرن العشرين، الحملة الفرنسية عليها سنة ١٧٩٨م، ولقد دهش المصريون بالحملة، أدهشهم ما شاهدوا منها من مظاهر المدنية، والتي لم يكن لهم بها عهد، من إنشاء نابليون مسرحاً للتمثيل ومدارس لتعليم أولاد الفرنسيين، ومصانع، وجريدتين، ومكتبة عامة، ومجمع علمي مصري وغير ذلك.

وقد هيا الله تعالى الأسباب لمصر كي تنهض وتتبوأ مكانتها بين الأمم باعلاء محمد علي عرش مصر، والذي هبط على أرضها مع الجيوش الإنجليزية، والتركية التي حشدت لمنازلة نابليون وإخراجه من مصر.

وكان محمد علي شخصية طموحة فعمل على نهضة مصر نهضة واسعة في كافة المجالات فنهض بالزراعة والتعليم، وأرسل البعثات إلى أوروبا، وأنشأ المطابع، وفتح المدارس وأنشأ الصحف.... الخ.

ومما تجدر الإشارة إليه تلك الصحوة الإسلامية، التي سادت معظم البلاد الإسلامية والتي كان من أبرز مظاهرها، مواجهة التغريب اللغوي في البلاد العربية، حيث سعت كل دولة من الدول الاستعمارية لفرض لغتها على الدولة التي تخضع لسلطانها السياسي منذ أواخر القرن التاسع عشر.^(٣)

وكان للأزهر الدور الأبرز في هذا المجال^(٤) فلم يقف مكتوف الأيدي تجاه خبث الصليبيين وكيدهم للإسلام واللغة العربية، وتمثل هذا الدور في مواقف كثيرة، أشهرها ما أصدره شيخ الأزهر " محمد الأحمد الطواهري"^(٥) سنة ١٩٣٠م من بيان هام عندما قامت فرنسا بالكيّد بالإسلام واللغة العربية بين مسلمي

(١) المرجع نفسه ص ٥٨.

(٢) محمد الخضر حسين حياته وآثاره د/ محمد مواعدة ص ٤٩، ٥٠.

مجلة السعادة العظمى: أول مجلة عربية تونسية وهي مجلة نصف شهرية ولم يستمر العمل بها سوى أحد عشر شهراً. إذ كان العدد الأول منها في المحرم سنة ١٣٢٢هـ والعدد الأخير منها كان في ذي القعدة من نفس السنة - ومما ساعد في تقويضها احتدام الخلاف بين الإصلاحيين والمحافظين حول قضايا فكرية ودينية عديدة مما جعل أصحاب التيارين وأنصارهما المتطرفين يخاصمون المجلة وصاحبها. ملتنقى الإمام في الجزائر ص ١٨٥

(٣) الإسلام في الأدب العربي المعاصر، د/إبراهيم عوضين ص ٣٧٢،

(٤) المرجع نفسه، ص ٣٧٤، ٣٧٥.

(٥) هو محمد بن إبراهيم الأحمد الطواهري الشافعي (١٨٧٨ م - ١٩٤٤ م) أول شيخ قبيلة عربية يلي مشيخة الأزهر، ولي المشيخة سنة ١٩٢٩ م وفي أيامه أنشئت الجامعة الأزهرية الحديثة ومجلة الأزهر ومطبعته. وفي عهده أرسلت =

البربر في المغرب الأقصى، وغمرت البلاد بسيل جارف من رجال التبشير للعمل على فتنة المسلمين عن دينهم، وصرفهم عن لغتهم العربية، وفي هذا البيان قال شيخ الأزهر: "لقد ارتحت إلى ما تضمنه بيان المفوضية الفرنسية من أن فرنسا واقفة في المسائل الدينية على الحياد، وأن البربر مسلمون وسيبقون مسلمين وأنه بتشجيعها رمت مساجد كثيرة في بلاد المغرب الأقصى، ولكني لم أر فيه ما يكشف الحقيقة من جميع وجوهها، ولا ما يرد على كل تلك التفاصيل التي وردت بها الأنباء وكانت سببا في هياج الرأي العام الإسلامي، فهو لم يتعرض لما قيل من إرسال ألف راهب إلى تلك النواحي لتشجيع التبشير المسيحي، ولا ما قيل من إلغاء المكاتب القرآنية والمحاكم الشرعية، ولم يبين ما هو نظام الإرث الذي أقر الآن لأمة البربر، ولا ما هي الأحكام الشخصية التي أقرت إليهم الآن أيضا، مع أنهم ما داموا مسلمين لا يجوز شرعا أن يكون لهم نظام إرث غير نظام الإرث الشرعي، ولا أحوال شخصية غير النظام الإسلامي، وتلك هي النتيجة المنطقية لأنهم مسلمون وسيبقون مسلمين".

"وإني بصفتي الدينية التي أعمل بها على توطيد دعائم المسلم، ومعاملة الأجانب من أي دين أو أي جنس بالحسنى والتسامح، أمل من القائمين بالأمر أن لا يساعدوا على ما يثير حفاظ النفوس، وأن يعملوا على إعادة الاطمئنان في تلك البلاد الإسلامية".^(١)

إن الشيخ الخضر عاش في مصر في الفترة التي حكمت فيها أسرة محمد علي إلى أن قامت الثورة المصرية، وانتقل الخضر إلى مصر وحيداً، لا والد له ولا ولد. اسمعه يقول:^(٢)

أنا لولا همةٌ تحدوا إلى خدمة الإسلام آثرتُ الحماما

ويقول:^(٣)

ولولا ارتياحي للنضال عن الهدى لفتشت عن وادٍ أعيش به وحدي

ولا شك أن هجرة الشاعر إلى المشرق العربي كانت سببا في شدة موجدته على وطنه وحبه له من ناحية ، وشدة أساه لما آل عليه الشرق عامة من الضعف والاستكانة .،

عمل مصححاً ومراجعاً للنصوص بدار الكتب المصرية، كما ألف العديد من الكتب الإسلامية والأدبية منها :

= بعوث الدعوة إلى الصين واليابان والحبشة والسودان للدعوة إلى الإسلام . وكان شيخ الطواهرية، وهي فخذ من قبيلة النفيعات التي تنتسب إلى نافع بن ثوران بن عوف بن ثعلبة، من طيء. من كتبه كتاب (العلم والعلماء) صودرت نسخه وقت صدوره وأحرقت. وكتاب (براءة الإسلام من أوهام العوام)...ينظر قائمة شيوخ الأزهر، مجلة المعرفة الإلكترونية

(١) السابق نقلا عن مجلة نور الإسلام ، العدد الخامس من المجلد الأول ص ٣٤٢، ٣٤٣.

(٢) الديوان ص ٢٠٩.

(٣) الديوان ص ٧٨.

- نقض كتاب " الإسلام وأصول الحكم" والذي رد فيه على الشيخ/علي عبد الرزاق سنة ١٩٢٥ في كتابه " الإسلام وأصول الحكم"،
- نقض كتاب في الشعر الجاهلي رد فيه على د/ طه حسين فيما جاء في كتابه "الشعر الجاهلي" وذلك سنة ١٩٢٦هـ،
- أسرار التنزيل
- رسائل الإصلاح
- جمع ابن أخيه، المحامي / على الرضا الحسيني أعماله كاملة في موسوعة أسماها " موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، طبع مؤسسة دار النوادر، سورية ، لبنان، الكويت وكانت له أسهامات مهمة في المناظرات، والصراعات الفكرية والأدبية خلال هذه الفترة،
- اشترك في تأسيس بعض الجمعيات في مختلف مجالات الإصلاح منها جمعية الشبان المسلمين سنة ١٩٢٧م، كما أنشأ جمعية الهداية الإسلامية ١٩٢٨هـ، عمل بالتدريس بالجامع الأزهر من سنة ١٩٢٨، وظل في التدريس به حتى أحيل إلى التقاعد سنة ١٩٥٠م، عين عضواً بمجمع اللغة العربية في القاهرة، كما عين عضواً بلجنة كبار العلماء ١٩٥٠م، تولى مشيخة الأزهر سنة ١٣٧١هـ ١٩٥٢: ١٩٥٤م وقد قام الشيخ بالأزهر خير قيام في فترة توليه مشيخته، وكان لديه برنامج إصلاحى للأزهر، لكن رجال الحكم وضعوا العراقيل أمامه، ولما شعر الشيخ بذلك، قدم استقالته معللاً ذلك بكبر سنه إذ كان وقتها قد تجاوز الثمانين، ولا يفوتنا تلك الخلافات العديدة التي كانت بينه وبين مجلس قيادة الثورة.

يقول الكاتب الكبير/ محمد عبد الله السمان متحدثاً عنه: " بعد أن تولى مشيخة الأزهر: " الشيخ الجديد ليس من خلفه أشياع ولا أتباع حتى يهرجوا له، لأن وقاره يسمو به عن أن يتخذ حوله أشياعاً وأتباعاً، ولأن اعتزازه لنفسه يربآن به عن اتخاذ هؤلاء الأشياع والأتباع^(١).

ويقول عنه د/ أحمد الشرباصي: " ... وأنت حين ترى الأستاذ الخضر حسين، أو تجلس إليه، تعجب لهذه الشخصية النبيلة التي تفيض خلقاً وأدباً وبطيل الصمت والسكوت، ولا يتكلم إلا بقدر ولا ينطق إلا بحياء، وقد تقول: كيف استطاع ذلك الشيخ الكبير أن يصبر لمتاعب التفكير والتأليف والكتابة والطباعة؟ ولكنك لو علمت أن في هذه الأثواب الرهيبة أسداً إسلامياً طالما ضحى وجاهد، وطالما دعا إلى الله وعمل لله^(٢).

وله ديوان شعر، أسماه "خواطر الحياة" وهو موضوع الدراسة، نشر ضمن موسوعة الأعمال الكاملة

(١) كتابات حول الإمام محمد الخضر حسين ، الأستاذ /علي الرضا الحسيني، الدار الحسينية للكتاب، ص ٦٧، الأولى ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.

(٢) الشيخ محمد الخضر حسين، سيرته ومؤلفاته، د/ محمد إبراهيم الحمد، ص، ٦٤.

للإمام محمد الخضر حسين، التي اعتني بها وقدم لها ابن أخيه " علي الرضا الحسيني ".
انتقل الشيخ الخضر إلى رحاب ربه في رجب ١٣٧٧هـ، ١٩٥٨م ودفن في المقبرة التيمورية بالقاهرة
بعد أن ترك إرثاً عظيماً، ينهل منه طالب العلم حتى اليوم.

الفصل الأول

الدراسة الموضوعية

موضوعات التجربة الشعرية.

أ - ماهية التجربة الشعرية:

مما لا طائل وراءه، سرد آراء النقاد والباحثين في مفهوم التجربة وماهيتها ، فقد اتضح مفهومها ورسخ مدلولها في ذهن الباحثين والمعنيين بدراسة الأدب، بيد أن طبيعة الموضوع تفرض علينا أن نوضح في عجلة سريعة ماهيتها وأهم مرفداتها. فيرى د/ شوقي ضيف أن التجربة ما هي إلا " رحلة لها كل ما يميزها، بحيث إذا انتهى صاحبها شَعَرَ أنه نهض بعمل جيد كامل، لم تتنازعه فيه أعمال أخرى، ولا عاقته دون تمامه عقبات أو عثرات^(١).

ويعرفها مصطفى السحرتي بأنها: " الحالة التي تلبس الشاعر وتوجه باصرته أو ذهنه أو بصيرته إلى موضوع من موضوعات أو واقعة من واقعات الدنيا، أو مرآي الوجود وتؤثر فيه تأثيرًا قويًا تدفعه في وعي أو غير وعي إلى الإعراب عما يرى أو يشهد أو يتأمل^(٢).

وإذا كان عمود التجربة هو العاطفة التي تجعل الشاعر يتجاوب مع الحدث فلا بد فيها من قدر من الفكر يضبطها، فالفكر هو المعنى الذي ألبسه الشاعر ثوبًا قشبيًا من الألفاظ وكانت العاطفة هي لحمته التي جعلته يشعر ويكتب.

ب - موضوعات التجربة عند الخضر:

محمد الخضر خصب القريحة، قوي الشاعرية، مطبوع على حب الجمال، صادق الشعور، لذا تعددت موضوعات التجربة عنده، ولا غرو فهناك الدين الإسلامي بقيمه ومثله العليا وتشرعته السمحة والطبيعة بجمالها وسحرها، وهناك الوطن واستعماره الذي فجر لديه العديد من الطاقات الشعورية والكثير من كوامن النفس ، و وهناك الصداقة وما يتولد عنها من كثير معاني الحب والوفاء،

ولنتناول كل موضوع من هذه الموضوعات على حدة ولنبدأ بـ

• الاتجاه الديني

-الاتجاه الديني في تجربة الخضر بروز واضح ، ولا غرو فقد نشأ الشاعر نشأة دينية صرفه ، وفي بيئة تقدر العلم و تقدر العلماء ورفد هذا الاتجاه عنده عدة مرفدات لعل أبرزها المناسبات الدينية ، واحتلال بعض المقدسات الإسلامية كبيت المقدس.

(١) في النقد الأدبي د/ شوقي ضيف ص ١٣٨، الطبعة التاسعة - دار المعارف

(٢) الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث/ مصطفى عبد اللطيف السحرتي ص ٢٩، ٣٠ - تهامة للنشر والتوزيع - المملكة العربية السعودية الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م.

- المناسبات الدينية

للخضر الكثير من الأشعار في مناسبات دينية متعددة، كذكرى المولد، والحج وزيارة المسجدين والعيد الخ، وكانت تلك المناسبات فرصة سانحة لشاعرنا للتعبير عن لواعج النفس وشكواها والإفشاء عما في الضمير، فتراه في "ذكرى المولد النبوي الشريف" يمدح الرسول ﷺ من غير إطالة معللاً ذلك تعليلاً مقبولاً، إذ يعتريه البهر والعي عند الحديث عنه ﷺ وما ذاك إلا لسمو مكانته، لذا فلن يستطيع أن يوافيه حقه من المديح والثناء، ثم ينتقل إلى وصف الصحابة رضوان الله عنهم، ويأخذ في تعداد بعض فضائلهم، على رأسها الطاعة للنبي ﷺ والإيثار والزهد، وفوق كل ذلك قيامهم لله سجداً وقياماً. ففي سيرتهم أسوة لمن يبغى الهداية، وينشد القدوة. يقول (١):

تَأَلَّقْتُ الْمَدَامُغَ فِي الْمَأَقِي
تَلَقَّتْهَا الضَّمَامِرُ بَاخْتِنَاقِ
جَنُوبٌ بَاعْتَنَاقِ وَأَنْطَلَقِ
تَبَاهَتْ بِالْمَحَاسِنِ وَالْمَرِاقِ
وَجَاءَتْ بِالْكَوَاعِبِ فِي اتِّسَاقِ
تَدِيرُ الْأُنْسَ بِالْكَأْسِ السِّدْهَاقِ
حُسَامًا قَدْ تَهَيَّأَ لَامْتِشَاقِ
وَهَبَّ الْفَجْرُ يُؤْذِنُ بَانِبْثَاقِ
لِإِجْلَاءِ الظُّلَامِ عَلَى اتِّفَاقِ
وَسَاطِعُ نُورِهِ فِي النَّاسِ بِبَاقِ
وَلَاقَتْهَا الْكَمَامِ بِانْفِتَاقِ
سَأَخْطَى مِنْهُ بِالسَّيْلِ السِّدْفَاقِ
تَوَثَّبَ وَهُوَ مَشْدُودُ الْوِثَاقِ
غَنَاءِ النُّجْمِ فِي الظُّلْمِ الصِّفَاقِ ٢
إِلَى الدُّنْيَا جَنِيَّ عَذْبِ الْمَذَاقِ
مَنْ الحَلِي الْمَخْبَأُ فِي الحِقَاقِ
وَتَقْنَعُ فِي المَعِيشَةِ بِالرِّمَاقِ
وَهَبُوا لِلجَهَادِ عَلَى وَفَاقِ

أَمِنْ خَفَقَانِ أَفْئِدَةِ رِقَاقِ
إِذَا أَهَدَتْ يَدَ الإِقْبَالِ بُشْرِي
كَمَا اهْتَزَّتْ غُصُونٌ لَا عِبْتَهَا
لِللَيْلَتِ الْفَخْزَارُ إِذَا اللِيَالِي
أَشَارَتْ بِالْمَغِيبِ عَلَى ذُكْمَاءِ
وَمَدَّتْ فِي السَّمَاءِ الْبَدْرَ كَفَاءِ
ذَكَرْنَا إِذْ تَقَلَّدَتْ المَعَالِي
ذَكَرْنَا كَيْفَ لَاحَ جَبِينُ طَهْ
كَأَنَّ الفَجْرَ وَالْمَيْلَادَ جَاءَا
أَلَا مَنْ مَبْلُغُ قَمَرًا تَوَارِي
سَلَامًا كَالصَّبَا مَرَّتْ بِرُوضِ
أُرُومِ مَدِيحِهِ وَإِخَالِ أَنِّي
فِي بَهْرِنِي عَالَهُ كَأَنَّ فَكْرِي
تَمَلَّى نَوْرَهُ صَحْبٌ فَأَغْنُوا
نَفُوسَ أُخْصَبَتْ هَدْيًا وَأَدْنَتْ
تَحَلَّتْ بِالْمَكَارِمِ وَهِيَ أَعْلَى
وَتَوَثَّرَ غَيْرَهَا بِالزَّادِ زُهْدًا
سِرَاةً أَحْكَمُوا الإِصْلَاحَ عِلْمًا

(١) الديوان : ص ١٥٠ - ١٥٤.

(٢) الظلم : جمع الظلمة : والصفاق جمع الصفيقة وهي الكثيفة ومراده الليلة شديدة الظلمة

دَعَا وَالْحَجَّةَ الْغَرَاءَ تَهْدِي إِلَى سُئُلِ الْحَقَائِقِ مَنْ تُلَاقِي
هَمْ الْأَعْلَامِ إِنْ طَمَحَتْ نَفُوسٌ إِلَى عَلِيَاءَ وَاسِعَةِ النَّطَاقِ

وتتمحور قصيدته في "الاحتفال بالمولد النبوي سنة ١٣٤٨ هـ "حول عدة أفكار لعل أهمها: تحية صاحب الذكرى والخلق العظيم محمد ﷺ ، بيان صبره على أذى قومه وعناد المشركين ، تصوير بلاغته ﷺ ، رده على تزهات المعاندين و الجاحدين ، تعجبه من أهل الضلال والغواية على ما ران على قلوبهم فلم يبصروا نور الهداية، بيان فضل الصحابة ومآزرتهم النبي ﷺ بالنفس والمال والولد، ويقول فيها : (١)

حي ذاك البدر بالزهرِ النظيم وإملاً الجفنَ بمراهِ الوَسِيمِ
إنه يحكي محيا المصطفى إذ بدا بين المصلى والحطيم (٢)
إن تكن يا بذرُ تزهو بسنا يرشُدُ السَّاري في الليلِ البهيم (٣)
فسنا أحمد يهدي أمما ويريهَا سنن العِزِّ المقيمِ
هل رأى الناسُ كتابًا عجبًا مثل ما يُثلى من الذكْرِ الحكيمِ؟
ويح قوم سحرث أعيانهم هذه الدُّنيا بمرعاها الوخيمِ
غرقوا في لهوها واتخذوا من موالاة الهوى أشقى نديمِ

.....

صاحب الروضة في طيبة نم آمناً طغيانَ ذا الخطبِ الجسيمِ
إن في الشرقِ رجلاً نهضوا يقرعونَ الخطبَ بالعزمِ الصميمِ
لا يباليون إذا ما جاهدوا غَضِبَ الغاشمِ أو كَيْدَ اللئيمِ
قدس الله ثرى قبرك ما نفح القرآنُ بالهدى العميمِ
وأقام العلمَ آياتِ على إنه تنزيلِ خلاقِ حكيمِ

ونلاحظ أن الخضر في تناوله لذكرى المولد لم يتبع مسلك معظم معاصريه ولا متقدميه، من التركيز على تصوير صفات الرسول ﷺ الحسية والمعنوية، وبيان معجزاته الحسية والمعنوية، ولكنه ركز على بيان أثر الإسلام على البشرية جمعاء، وماتحمله ﷺ

و صحابته من أذى في سبيل نشر الدعوة، وأعطى جل عنايته لتصوير الحاضر الأنبي، مبينا ما حلّ

(١) المرجع نفسه ص ١٩٣ .

(٢) الحطيم : جدار ججر الكعبة .

(٣) الساري : الذي يسرى عامة الليل. البهيم : الأسود

بالمسلمين من مصائب، وما ذاك إلا لبعدهم عن منهج الحق، وهذا يدل على أن شاعرنا تحرر من الاتباعية التي وقع فيها كثير من شعراء عصره .

أ- الحج وزيارة المسجدين:

لا شك أن حج بيت الله الحرام وزيارة مسجد رسول الله ﷺ من أقوى مرفدات التجربة الشعرية ، إذ تلهم الشعراء العديد من الخواطر والأحاسيس، وتمدهم بالكثير من الأفكار والمضامين، وهي فوق هذا تعد فرصة سانحة لبث لواعج النفس وشكواها، وتصوير آلامها والتعبير عن آمالها، وبالجملة فتجربة الحج وزيارة المسجدين" تثير أخيلة الشعراء وتمدهم بصور حسية وواقعية وتهيج في نفوسهم أرقى أنواع المشاعر الإنسانية وتفتق أذهانهم عن معانٍ كبيرة تترد إلى التاريخ الأول للدعوة الإسلامية في أول انطلاقها من الجزيرة العربية وتعيش حاضر المسلمين المؤلم والمتردّي وتتطلع إلى مستقبل أرحب حين تحقق أهداف الأمة الإسلامية والعربية^(١).

ومن أجود قصائده وأقواها عاطفة، وأبلغها تصويرًا للوعة والأسى والأسف في آن واحد قصيدته العينية " تحية المقام النبوي ومناجاة الرسول" التي ألقاها أمام المقام النبوي سنة ١٣٣١ هـ ، والتي استهلها بتحية المقام النبوي تحية يمتزج فيها الوجد بالحب، والشوق بالدمع ،والإجلال بالألم والشكوى، فبعد أن أدى التحية والسلام على خاتم البرية ﷺ، أخذ يسترجع الذكرى ،ويصور انعكاس بعض المشاهد والأماكن التي شرفت به ﷺ وصحبه الكرام على مرأة نفسه، فوقف مليا أمام الروضة ومصلاه و منبره ﷺ وحجرته الشريفة ، مناجيا، ولها صبا ، فيقول^(٢):

أحيك والآفاقُ ترسلُ مدمعًا كأنني أحـدو بالسـلام مودّعا^(٣)
وما أدمعُ البشري تلوح بوجنةٍ سوى ثغر صبّ بالوصال تمتعا
وقفْتُ بمغنى كان يا أشرف الوري نطلعتك الحسنى مصيفًا ومربعا

فذا موقفٌ لامستُ فيه بأخمصي أجل من الدرّ النضيد وأرفعا
وذلك مرقى كنت تصدح فوقه بما حاز في أقصى البلاغة موقعا
وذاك مصلى طالما قمت قانتًا به، ويقوم الصحب خلفك خشعا
وذي حجرٍ كان الأمين يؤمها بوحي فكانت للشريعة منبعا

(١) موقع الوعي الشبابي الكويتي، مقال للأستاذ / عبدالهادي صافي، بعنوان، قصيدة الحج في الشعر العربي الحديث،

آخر تحديث ، ٣١ / ١٠ / ٢٠٢٠م

(٢) الديوان ص ١٣٥ وما بعدها.

(٣) أمّاق، وأمّاق جمع المّاق، والمّاق: طَرَفُ العَيْنِ مِمَّا يلي الأنفَ، وهو مجرى الدَّمع . المعجم الوسيط

وبعد أن صور مشاعره تجاه هذه المغاني أخذ في مناجاته ﷺ والإفضاء بما تجيش به النفس من شكوى تتمحور حول تصوير حال المسلمين اليوم، وتخاذلهم وتقاعسهم عن جهاد عدوهم، مما كان سببا في هوانهم وذلهم، حتى أصبحوا لقمة مستساغة في فم الغرب، وهم راضون خانعون مستسلمون يقول: (١)

وأروع ما شق الفؤاد بحسرة
تخاذل حال المسلمين وما أتى
وما شأننا إلا كعقد تناثر
فهذا يحاذي في قضاياه نزعة
وهذا يصوغ القول في قالب يرى
وذاك ينادي بالضلالة ماسحا
ونمنا على الأذان نومة جاهل
ولم نستفق للقوم حتى تحفزوا
ولم نستفق للقوم إذ كل انتضى
ولم نستفق للقارعات وقد جنت
وفي الناس من حاك الأياس بصدريه
ونذب درى صرّف الليالي وأنها
فقام على جد يهيب بقومه

وهاج به الأشجان حتى تقطعا
من الخطب في أرجائهم وتجمعا
جواهره في سطح أهدب أنزعا (٢)
تخط وراء الحق للناس مزععا
بجانبه قول الشريعة أوسعا
بصبغة دين كي يغر ويخدعا
بما يضع المستيقظون ليضرعوا
وأوجس كل بين جنبيه مطمعا
ليظفر باستعبادنا السيف مقرعا
إلى مهجة الإسلام حتى تصدعا (٣)
فجرّد أفراس الجهاد وأقلعا
ثزل بأعلام وتونس بلقعا (٤)
ليرفأ فتقا أو يثني مضعنا

ويرد الشاعر - في هذه القصيدة - على بعض المزاعم التي يُرمي بها الإسلام و أن الإسلام يقف حجر عثرة في طريق ثراء الفرد وغناه وما دعاهم إلى هذا القول إلا تقليد الملحدلين و ذوي الغواية والضلال، ويبين كيف كانت بعثته ﷺ فتحًا ونصرا وعزة للبشرية جمعاء .

يقول أناس إنما الدين عثرة
رمى بهم التقليد في إثر مُجد
تجليت في شغب جرى في عزوقه
تجليت والبغضاء تشوي صدورهم

بسابله العُمران تهوى بمن سعى
ولم يكشفوا عن ميسم الحق برُفعا
دم الكبر وارتاد الغواية إمعا
بنار فأصلاتها قلوبا وأضلعا

(١) المرجع نفسه ص ١٣٦ .

(٢) يقال رجل أنزع بين النزع بفتحيتين وهو الذي انحسر الشعر عن جانبي جبهته. مختار الصحاح

(٣) قارعات وقوارع، جمع قارعة: مصيبة داهية تفرع بصنوف البلايا : معجم اللغة العربية المعاصرة

(٤) رَجُلٌ نَدْبٌ: سَرِيعٌ إِلَى الْفَضَائِلِ، خَفِيفٌ، خَذِرٌ، نَشِيطٌ، ظَرِيفٌ . معجم المعاني الجامع .

عَلَيْكَ سَلامَ اللَّهِ ما انسجم الحيا وحَيَّا صابحُ بالضياءِ ووَدَّعا

وفي قصيدته "مشاهداتي في الحجاز" يصف رحلته إلى حج بيت الله الحرام وصفا تصويريا حيا، يعكس شدة سعادته بتلك الرحلة، وصفا يفيض بالعواطف الجياشة، ويصور شدة اللوعة كما يعكس إعجابا بهذه الشريعة الغراء، وحبا جارفا لصاحب هذه الرسالة الغراء، فعدد مشاعر الحج جلها، تعدادا يمتزج بالعواطف والأحاسيس تجاه هذه الأماكن المقدسة، وصفا لاقطا خاطفا، يركز على ما يتغياها الشاعر من إيضاح تراتب تلك المناسك، وما علق بذهنه من مشاهد استرعت بصره، من الطواف بالبيت، وتقبيل الحجر الأسود، والسعي بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفة، والمبيت بمزدلفة، وطواف الوداع ... الخ.

يقول في مطلعها: (١)

وَدَّع الصَّحْبَ وحيا الظاعنين
زجر الطير لمرت باليمين (٢)
لنوى لا عج شوق في الكنين (٣)
وربوع الخلفاء الراشدين
حلم أم في زمان لا يخون
مجمع البحرين مرتاد السفين
جذل والبحر كالشيخ الرزين (٤)
ما يلاقيه الندامى من شجون
حكمة القرآن في نطق رصين
يذكرون الله جهرا محرمين (٥)
برحت "جدة" في حصن حصين
مكة الغراء من نحو الحجون (٦)

ألمجد لا ينال القاطنين
شام في وجهته يمنا ولو
لا تلوما في النوى من هاجه
شاقه البيت وقبر المصطفى
سار شوطا وهو لا يدري أفي
ذكر "الخضر" و"موسى" إذ أتى
ركب "الطائف" يطوي البحر في
وإذا هبت جنوب طردت
هم سكارى ما احتست آذانهم
ودنو من "رابغ" فاستبقوا
رست الطائف في "جدة" لا
رحلوا في جنح ليل وأتوا

(١) الديوان ص ٢١٠: ٢١٨.

(٢) رَجَرَ الطَّائِرُ: رَمَاهُ بِحِصَاةٍ، وَهُوَ اعْتِقَادُ كَأَنَّ الْمَرْءَ يَزْمِي الطَّائِرَ بِحِصَاةٍ أَوْ يَصِيحُ بِهِ فَإِذَا طَارَ مِنْ جِهَتِهِ يَمِينًا كَانَ مَيْمُونًا وَدَلَّ عَلَى قَالٍ حَسَنٍ، وَإِلَّا فَهُوَ مَشُؤْمٌ. معجم المعاني الجامع .

(٣) الكنين، المستور ويراد به هنا القلب ..

(٤) الطَّائِفُ اسم الباخرة التي ركبها الشاعر من السويس إلى جدة ينظر: الديوان ص، ٢١١.

(٥) رَابِغٍ وادٍ بين مكة والمدينة قُرب ساحل البحر الأحمر، وهو من مواقيت الإحرام بالحج :.المعجم الوسيط

(٦) الحجون :مكان على بعد ميل ونصف من البيت الحرام..

.....

في حصى يغبطه الدر المصون
فيه ذو التاج ومغبر الجبين
عبرات البشر من بعض الجفون

.....

ظماً الأكبَاد حيناً بعد حين
غله عاف خمور الأندرين
وسعوا لله سبعا راجلين
يطرح الآثام من ماضي السنين
تشتهي أنفسهم غير ضنين
وجدوا منها المطايا مصبحين
أنهم جنود إمام المرسلين

لربى طيبة من شوق مكين
تلفح الأشواق صخرا فيلين^(١)
صفرة تحكي بها وجه الحزين

.....

في رضا الله خطا خاضوا بها
دخلوا بيتا حراما يستوي
شاهدوا الكعبة وهنا فجرت

.....

وردوا "زمزم" يشفون بها
لو شفى "عمرو بن كلثوم" بها
صعدوا "المروة" من بعد "الصفاء"
وقفوا في "عرفات" موقفا
إن دهرا طاف ساقيه بما
هبطوا "جمعا" وقد ساد الدجى
هل درى المشعر إذ عاجوا به

.....

أفلا يحمل ما نحملة
دع "ثبير" قاسي القلب فهل
هذه مكة ما للشمس في

.....

ثم تحدث عن زيارة مسجد النبي ﷺ والصلاة في الروضة الشريفة، ثم وقف فيها متأنيا يعيد الذكرى التي يحملها المكان لهذا المعهد الذي طالما ربي وخرج دعاة مخلصين، على يد خير الأنام سيدنا محمد ﷺ فهم مترس حرب وكماة مخلصيين، وأشار إلى حجرات أمهات المؤمنين رضي الله عنهن جميعا، ولم لا وقد تربين في كنف النبي ﷺ، ثم عرج إلى قبره ﷺ ووقف أمامه مليا مشخصا حال الأمة، شاكيا تغير حالها من ضعف بعد قوة وذل بعد عزة، و جهل بعد علم، ويشير إلى بعض أدوائها التي فتكت بالكثير من أبنائها، والشبهات التي أثارها بعض المغرضين ضد الإسلام.. إلخ. يقول^(٢)

(١) ثبير: جبل عظيم يقع بين مكة وعرفة..

(٢) الديوان ص ٢١٠: ٢١٨.

سائق السيارة انهض نغتم
خض بها البيد على سلع فلي
بين ليل مثل أحداق المهها
أحمد الإدلاج والتأويب إذ

فرصة نرقبها منذ سنين^(١)
حاجة في أرض سلع وشؤون
ونهار مثل نور الياسمين
أرياني خير ما تهوى العيون

.....

.....

جئت يا مختار والعالم في
فحوت الهزل بالجهد كما
وأقمت العلم صرحا شامخا

ليل جهل وضلال ومجون
ذدت ليل الغي عن صبح اليقين
وصرعت الجهل طعنا في الوتين

.....

.....

خاتم الرسل" ألم يأتك ما
ويلها من مرهق في علن
ليت قوما ورثوا هديك لم
ليت قوما ورثوا الراية قد
دينك الوضاء ثارت حوله

حل بالأمة من خطب مهين
وخؤون في ثياب الناصحين
يغضوا عن موبقات المترفين
فطنوا للداء والداء كمين
غبرة من شبها المبتلين

.....

وإذا كان في الأمة يد مسلطة تضرب الإسلام في مقتل، فإن فيها شبابا يافعين وعلماء مخلصين،
وقفوا في وجه الملحدين بالمرصاد، يدحضون افتراءاتهم، ويفندون شبهاتهم، ويبذلون النفس والنفيس في
سبيل رفعة دينهم والذب عن أوطانهم

إن في الشرق شبابا أيقنوا
إن أسنى المجد في شعب إذا
وقفوا يرمون أعداء الهدى
يعشقون البذل في الخير إذا

أنك الداعي إلى الحق المبين
سامه الخصم أذى لا يستكين
بنبال قوسها العلم المتين
عشق المال طغام موسرون^(٢)

(١) . سلَّجَ: جبلٌ في المدينة

(٢) الطَّعَامُ : أرذالُ الناس وأوغادُهُمْ. معجم المعاني الجامع .

يؤثرون الموت في عز على
وإلى الحضرة ما حملته
أي ورد لهم يكسّر صوفوه
أن يعيشوا تحت إرهاب وهون
من تحيات شباب ناهضين
صدر ما الدهر إلا منجنون^(١)

ثم قفى قصيدته ببيان لوعة الفراق لهذه الأماكن المقدسة، ويسأل الديار سؤال الواله الحيران هل يوجد الزمان بمثل هذه الزيارة .

أزمع الركب رحبلا لم يكن
فوقفنا لوداع، والأسى
أفلا نأسى على عهد أتى
نضر كالروض حلاه الندى
يا حمى ودعته والشمس قد
هل لنا عود كعود الشمس من
وسلاما كلمما رتلته
منه بد، والضرورات فنون
يلذع الآماق بالدمع السخين
وتولى وهو مقطوع القرين
بجمان صيغ من ماء معين
ودعت والتحقت بالراجلين
قبل أن يصرفنا عنك المنون
قالت الدنيا ومن فيها: أمين

التيار الوطني:

وإذا كانت المناسبات الدينية قد حركت في شاعرنا كوامن النفس فقد أثار حبه لوطنه واستعمار بلاده وارتحاله عنها قسرا مشاعره ورفدته بكثير من المعاني والصور، وتجربة الحبس كانت من أكبر مرفدات التجربة عنده أيضا، فتحسر على ماضي وطنه وتأسف على حاضره ، وتغنى بطبيعته، وحلم له بمستقبل رغيد خالٍ من المستعمر . وفتحت له هذه التجربة بابا واسعا للموازنة بين الماضي والحاضر .

والتجربة الوطنية تجربة ذاتية -بالدرجة الأولى - إذ يسقط الشاعر خلالها مشاعره الحزينة ووقع الاستعمار الأليم على نفسه وحقيقته، فلم يجتلبها اجتلاباً ولم ينتحلها انتحالاً ففي قصيدته " صرخة المغرب" تراه يبث أشجانته، ويصور مشاعره ، ويعرب عن مأساة وطنه عن طريق تصوير هذه المفارقة بين ماضيه وحاضره ، ويشيد بدور الشجعان ممن قدموا أرواحهم فداء لوطنهم، ولم يرضوا بالهوان، كما يبين سياسة المستعمر الغاشم ومحاولاته لصرف المغاربة عن دينهم عن طريق التجنيس وإغرائهم به وتحسينه في أعينهم يقول^(٢):

(١) المَنجُونُ: الدُّوَاب التي يُسَنَقَى عليها. ابن سيده وغيره: المَنجُونُ أداة السانبة التي تدور، جعلها مؤنثة. لسان العرب .

(٢) الديوان ص ١٥٧ .

صرخة الناهض للموت اشتياقا
ورأيتم دمه الغض مراقبا

يصرخ المغرب غيظا واحترافا
لا تلوموه إذا خاض الوغى

ويمكن تقسيم هذا التيار عنده إلى عدة أفكار لعل أهمها

- حب الوطن:

من أجمل تجارب الخضر الوطنية التعبير عن حبه لوطنه ولعل قصيدته (حب الوطن) والتي يناجي فيها وطنه السليب، ملتصبا منه العذر لفراقه من أجمل قصائده، فقد أثر الرحيل ليعيش حرا طليقا يستطيع أن يدافع عنه دون قيد، ويعرض قضية بلاده على الرأي العام بعيدا عن غل القيد وذل الحبس، فيخاطبه قائلا^(١):

يدع القلب لدى البين عليا
وغدا الشرق من الغرب بديلا
وجدت للمجد في الظعن سبيلا
وطنا طاب مبيتا ومقيلا
عن كفاح ويرى الصبر جميلا
قبل أن تخترب السيف الصقيلا^(٢)

وطني علمتني الحب الذي
لا تلمني إن نأى بي قدر
عزيمة قد أبرمتها هممة
أنا لا أنسى على طول النوى
ففي يميني قلّم لا يثنني
هو ذا طاعن به خصمك من

ونجد أن عاطفة حب الوطن تملك عليه أقطار نفسه حتى في أكثر الأوقات طربا وشغفا فكثيرا ما يعجبه منظر ما ثم تراه وهو في قمة السرور والشغف بالمشهد يعتريه الهم والوجد لما تذكره من حال وطنه. يقول وهو يشهد استعراض الجيش المصري يوم ٢٨ محرم ١٣٦٩هـ^(٣):

في المآقي فرط بشر وارتياح
مصر في أسنى عتاد وسلاح
حرها أنفاس مكسور الجناح
لجج سود من العسف الصراح
نهضت إلا بعزم وكفاح
للعلا بين سيوف ورماح

دمعة كالثلج بزدا مجها
إذ شهدنا عرض جيش من بنى
وتلتها دمعة صور لي
إذا نكرت المغرب الغارق في
نهضت مصر إلى المجد وما
أتري المغرب يوما ناهضا

(١) الديوان ص ١٩١، ١٩٢.

(٢) صقل السيف ونحوه: صقله، جلاه وأظهره ولمعه.

(٣) الديوان ص ٦٦

وهو إذ يصور أسفه على حال وطنه فإنه يبين لأبنائه طريق الخلاص في البيتين الخامس والسادس. ولنتأمل الفرق بين الدمعتين في الأبيات دمة باردة كالتلج تعكس هذا الجو النفسي الذي يعيشه المغتبط بنهضة جزء عزيز من الوطن العربي ودمة حارة محرقة تعكس أنات مغترب أسيف على واقع وطنه السليب الذي صور نفسه خلالها بأنفاس طائر مكسور الجناح، وصدق أبو تمام^(١):

فما وجدت على الأحشاء أوقد من دمع على وطنٍ لى سوى وطني

ومن مظاهر حبه لوطنه شدة اشتياقه سماع أخباره ولم لا وقد شرب من آدابه واغترف من معارفه حتى الثمالة فحق له أن يفاخر به فيقول عندما زاره أديب من تونس:^(٢)

أُمُحَدَّثِي رُبِّيتَ فِي الْوَطْنِ الَّذِي رَبِيْتُ تَحْتَ سَمَائِهِ وَبَلَّغْتَ رَشْدًا
وَجَنِيْتَ زَهْرَ ثِقَافَةٍ مِنْ رَوْضَةٍ كُنْتُ اجْتَنَيْتُ بِنَفْسِي مِنْهَا وَوَرْدًا
هَاتِ الْحَدِيثَ فَإِنِّي أَصُوبُ إِلَى أَنْبَاءِ تُونُسٍ مِنْ صَمِيمِ الْقَلْبِ جَدَا

ومن أدل البراهين على صدق عواطفه تجاه وطنه وصدق انتمائه ، ما نجده من حسن استغلال المناسبة والتي يتحيناها للحديث عنه والتلذذ بذكره ، حديثاً يمتلئ بالفخار والعزة، يقول^(٣) في رده على قصيدة بعث بها إليه صديقه الأديب الشيخ "علي النيفر"^(٤):

(١) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، المجلد الثالث، ص، ٣٣٨، دار المعارف، الطبعة الرابعة.

(٢) الديوان ص ٨٨

(٣) الديوان ص ٨٨

(٤) علي بن محمد بن محمد الطيب النيفر ١٤٠٤هـ/١٩٠١ - ١٩٨٤م ولد في تونس (العاصمة)، وفيها توفي. عمل معلماً في الزيتونة، وهو ما يزال طالباً في المرحلة الثالثة، إلى جانب توليه الخطابة خلفاً لشيخه «الطاهر بن عاشور» الذي تم إبعاده، كلف بمشيخة الجامع بعد إبعاد الشيخ ابن عاشور.

- له قصائد في كتاب: «الأدب التونسي في القرن الرابع عشر»، وكتاب «عنوان الأريب عما نشأ بالبلاد التونسية من عالم أديب»، وله دواوين قسمها حسب سني حياته: «الصبا»، و«الفتوة»، و«الكهولة»، و«الشيخوخة»، ثم انتقى منها جزأين سماهما: الأشعار المنقاة من دواوين الحياة، رتبهما على أبواب، وله من المنظوم: أناشيد للأطفال، بعنوان: «مع الطبيعة» - الدار العربية للكتاب - تونس ١٩٨٣. ينظر معجم البابطين لشعراء العربية، في القرن التاسع عشر والعشرين، مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين الثقافية الإلكترونية

بعيشك حادّني عن المعهد الذي
 حظيت بأشياخ ملأت الفؤاد من
 بيان أديب يقلب الليل ضحوه
 فلم يُرني أدري وأنبل منهم
 ويأبى قريضي وهو ضيف جماك أن
 فلي في نقاها جيرة كنت أقتني
 فدعه يحييهم حفاظاً لعهدهم

قضيت به عهد الشبيبة رائداً^(١)
 تجلّتهم لما خبزت الأماجدا
 وفكرة نحرير تصيد الأوابدا
 رحيل طوى بي أبحراً وفاددا
 يمرُّ بمزسى المهذوي محايدا
 طرائف من يناسهم وتلائدا
 ويأوي إلى مغناك في الطرس عائدا

- تصوير لواعج النفس:

لطالما صور الشاعر حزنه وأساه لما آل إليه وطنه وعبر عن لواعج نفسه ، فيرى الأشياء الجميلة والتي هي داعية الانسراح وباعثة السرور - في العادة - على غير طبيعتها فيقول في قصيدته تحية الوطن والتي قالها بعد مقدمه من الشام إلى مصر سنة ١٣٣٩^(٢):

سوى الخيال ^(٣)	مالي لا ألمح من ذي الجمال
ببلا ملال	ألم يكن يدني قطوف الوصال
ماضي النضال	الشوق ألقى مهجتي في نضال
داءً غضال	ماذا ترى والهجر فيما يُقال

والصورة مضطربة البناء كاضطراب نفسه فهي قلقة الإيقاع ، يكثر فيها من الاستفهام الانكاري التعجبي، ويخاطب فيها ما لا يعقل من معالم وطنه، كربي تونس وشاطئ المرسي فيقول^(٤):

يا موطني لم أنس عهد الشباب وريثما	عذب الرضاب
وريثما شمّر يبغني الذهاب	صاح الغراب
بنّا وحضنا في غمار الصعاب	ببلا حساب

(١) المقصود بالمعهد هنا: جامع الزيتونة بتونس. والرائد : من يتقدم القوم يُبصر لهم الكلاً ومَسَاقَطُ الغيث.. المعجم الوسيط-مجمع اللغة العربية بالقاهرة -صدر: ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م

(٢) ديوانه ص ١٨٦.

(٣) يقصد الشاعر بنّي الجمال وطنه "تونس" ينظر تعليق الأستاذ على الرضا بهامش الديوان، نفس المرجع والصفحة.

(٤) السابق الصفحة نفسها.

بينى وبين المجد عهدٌ يُهاب
فَصَمَّتْ بي يا بَيْنُ عِقْدَ الرِّفَاقِ
وقمَّتْ تَنْعِي عُنْدَ شَدِّ الوَثَاقِ
ملقي رفاقي في ليالي المحاق
إن فاتني مـرآهم بالحداق

فـلا عـتاب
بعـد انتـساق^(١)
يـوم الـتلاق
مئـل الفـراق
فـالود بـساق

حيا رُبى تـونس ذاتِ الزُّهورِ
وافترّ في طلعة تلك القصور
ما الأنس في أقـداح راح تدورُ
إنّ التي تـفخّنا في الصُّدورِ

عـهد السـرور
أنـس البـدور
مـا بـين حـور
نـارُ العـيورِ

يا شاطئ المرسى إلام الهجود
وكن كما كُنْتَ لعهد الجُودِ
يمرح فيك العزُّ بين الجُودِ
فأنت لا تُزهي بتلحين خُودِ
يا معهدٌ يئُمُّل فيه الكرام
وابتسمت أزهاره في نظامِ

فُـك القـيود^(٢)
غـيـل الأـسود^(٣)
ضـافي البـرود^(٤)
ونـقـر عـود^(٥)
بـلا مـدام^(٦)
بـلا كـمـام

- (١) انْتَسَقَتِ الأشياءُ: انتظم بعضها إلى بعض ، يقال: نَسَقَهَا فانتَسَقَتْ. معجم الرائد.
- (٢) المرسي: مدينة ساحلية على ضفاف البحر الأبيض المتوسط تقع على مسافة ١٨ كيلومترا شمال مدينة تونس، وهي تمثل مع حلق الوادي والكرم وقرطاج ضاحيتها الشمالية. يبلغ تعداد سكان بلدية المرسي ٩٢.٩٨٧ نسمة (إحصائيات سنة ٢٠١٤) ظلت ضاحية المرسي منذ عهد الأمراء الحفصيين الضاحية الراقية المفضلة لدى أمراء وملوك تونس الذين اتخذوها محطة للاصطياف والاقامة بها أثناء فصلي الصيف والخريف. وسوف تحافظ هذه الضاحية الجميلة على شهرتها، حيث لا يقطنها إلا أعيان البلاد وكبار ينظر: مدينة تونس في القرن الحادي والعشرين محمد المنجي بلحسين - المجلد ١ - صفحة ٣٠٥، طبعة ١٩٩٧م.
- (٣) الغيل: الشجر الكثيف الملتف ويقصد به العرين.
- (٤) البُرْدُ: جمع بردكيساء مَحْطَطٌ يُتَخَفُ به.
- (٥) الخود: الحسنة الخلق.
- (٦) يئُمُّل: يسكر.

يا نسمةً ماست كشابِ راح
والطُّل أضفى من دُموع الملاح
هُبِّي وجُزِّي في النوادي الفساح
هُبِّي وهاتي نفح أنس قَراح

قَبَّل الصَّباح
فوق الوشاح
ذيل المراح
يشفي الجراح

وإذا كان الشاعر القديم قد وقف على أطلال المحبوبة، واستوقف، وتذكر أيامها الحالية وصور مشاعره، وما ألمَّ به من حرق الوجد لفراق الأحبة، فإن شاعرنا قد استهل بعض قصائده بتصوير لواعج النفس إثر رحيل الأحبة، فنجده يصور شدة وجدّه، وانعكاس ذلك البين على نفسه، فيقول في مطلع قصيدته التي ألقاها في افتتاح مؤتمر "المجمع اللغوي" بالقاهرة في ٢٦ يناير ١٩٤١م. (١)

نهض القطار فأومأوا بسلام
بانوا فما بالي فقدت حُشاشتي
عجباً لروح فارقت جسد امرئ
طوت النوى عهداً يطوف سُقائهُ
رضت القريض لعاني أسلو به
فصحوت من شجنٍ إلى شغفٍ بما
هي لهجة شبت بأرضٍ بدوّة
لكنها وسعت علوم "أرسط" بل

وجرى بهم طلقاً بغير زمام
أمضى بها في الركب فرط هيام
يقظان لم يُرثق بسهم حمام
بكؤوس أنسٍ لا كؤوس مُدام
ذكراهم وأغيب عن آلامي
في نطق يعرب من سننٍ ووسام
فيحاء بين الأُسُد والآرام
وسعت حضارة فارسٍ والشّام

وإذا كان الخضر أجاد استهلال قصيدته فقد كان أكثر إجادة في الانتقال، إذ مهد لموضوعه تمهيدا يناسب الغرض الذي من أجله ساق القصيدة، وهو إعلاء شأن اللغة العربية، فقد راض الشعر، وسلك مسالك الشعراء عليه يسري به عن ألم الوجد، فإذا به قد صحا على أدب قوم أبنائه أجادوا اللغة وأحسنوا النطق بها، مما كان له أكبر الأثر في نفسه، إذ أثار فيه معاني الشغف والإعجاب والفخر بما في اللغة من أسرار ومعان.

- دعوته للدفاع عن وطنه

كثيرا ما دعا شاعرنا أبناء وطنه للدفاع عنه، والذب عن حياضه، وضرورة جهاد المستعمر والصمود والصبر حتى يُجلى عنه و يحرر من براثن الغاصب الغاشم، فالعزة والمنعة لا سبيل إليهما إلا ببذل كل غال ونفيس، أما من يدعون أنهم يستطيعون تحرير أوطانهم دون حرب وجهاد، فهذا وهمٌ وخيال

(١) الديوان ص ١٩٦.

لا حقيقة له كحديث عنقاء - كما يقول - . يقول^(١):

ولم يسأل سيوفاً أو يهز قنا^(٢)
فإن أناخ بها ضيماً غدت دمننا
ما ساسنا الخضم إلا القبر والكفنا^(٣)
من الدماء الغوال تغسل الدرننا
على البغات فلاقى الجبن والوهنا
أوكارها لم تهب جنداً ولا تُكنا
يسوفه رهقا أن يهجر الوسنا
ويؤفد السهم إن سراً وإن علنا
كبرى فما هو ممن يغشق الزمننا

حديث عنقاء شغب أنقذ الوطننا
والعز يجعل أرضي روضة أنفا
وليس يلدز والبز والقسب إذا
عسف العدا درن فاسكب عليه دما
ولا يروعنك جند شن غارته
إن الصقور إذا انقضت تنافح عن
وسيرة الحر إذ ينل بطاغية
ويُسرح الطرف في غور وفي علم
يبغي الحياة فإن ضاقت على الهمم

ويستمر الشاعر في تصوير وجدّه ، فيرد على من يلومه على هذا الأسى ، وأن في زيارة طيف وطنه
مغنى له عن رؤيته فيقول^(٤):

ترك الوجد كرى في مقلتيما
لوعنة الشوق فأهدوه إليما
بت طوال الليل للبدن نجياً

قيل لي الطيف أنيس، قلت ما
علموا التمثال يُذكى في الحشا
ليس لي من سلوة عنهم ولو

وإنه ليشيد بالبطولة ويقدر الألمعية والعبقرية فيقول: ^(٥)

(١) الديوان ص ٢٢٣ .

(٢) العنقاء طائر معروف الاسم مجهول الجسم لا يعرف، ويراد بحديث عنقاء الأمر لا حقيقة له قال الشاعر:

الخل والغول والعنقاء ثالثة أسماء أشياء لم توجد ولم تكن

خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، تأليف ، عبد القادر بن عمر البغدادي ، قدم له ، د / محمد نبيل الطريفي ج ٧ ، ص

١٢٥، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان

(٣) قصر يلدز (بالتركية Yildiz Sarayı) : هو قصر عثماني يتكون من عدد كبير من الأجنحة والدور، يقع

في أسطنبول، تركيا. ^{[١][٢]} بني القصر في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وكان مقراً للسلطان

العثماني عبد الحميد الثاني والحكومة العثمانية حتى ١٩٢٢، بدلاً من قصر دولمة باهجة. قصر السلاطين العثمانيين

في الأستانة. ينظر : ويكيبيديا الموسوعة الحرة

(٤) السابق ص ١٣٠

(٥) المرجع نفسه ٢٤٥

قدم يعرض أبواب المزايا
سيفه الغضب ولا يخشى المنايا
تركب الهول ولا ترضى الدنيا
دحر الأعداء فارتدوا خزايا
ينقذ المغرب من أيدي الرزايا
لأصابت كل باغ بشظايا

قلت للشرق وقد قام على
أرني طلعة شهم ينتضي
أرنيها إنني من أمة
فأراني بطل الريف الذي
غضبة حراء هزته لأن
شبَّ حربا لو شددنا أزهر

- بعث الشخصيات الإسلامية

كثيرا ما نجد الشاعر معني ببعث الشخصيات الإسلامية، يرمي بذلك اتخاذها نموذجا يحتذى ، وأسوة تقتدى ، فتحدث عن خالد بن الوليد وشجاعته ، وصلاح الدين وسماحته ، وصقر قريش وصبره وبسالته ، ففي موشحته (صقر قريش) والتي بلغت مائة واثنين وعشرين بيتا ، يستعرض صورا من حياة عبد الرحمن الداخل متغنيا بمواقفه النبيلة، وشجاعته النادرة ، وعزيمته التي لا تني ، وصموده وصبره في سبيل تحقيق غايته .

ويستهلها بشخذ الهمم ، وأن نفس الحر تواقه للمعالي ولا تخشى المصائب والمحن ، يقول في استهلالها: ^(١):

خل نفس الحر تصلي النوب ^(٢) لا تبالي
ليست الأخطار إلا سببا للمعالي

وفيها يقول محمسا و شاحذا الهمم و داعيا للنزال، ومبينا أن لا سبيل للعلا إلا بامتشاق السيوف، واقتحام المفاز، ويحض شباب الشرق على التقدم وغشيان الوغى ويتموا الدور الذي بدأه أسلافهم في حماية البلاد من عسف الصليبيين وظلمهم فهذا صقر قريش الذي ضرب به المثل في الحزم والشدة : ^(٣)

عاشق العلياء خُض في لجج
وترشف من عصير المَهْجِ
يضحك المُلْكُ بثغر
إن نكى الخصم فماجوا هربا
من رماح
لا جناح
كالصباح
كالتعالي

(١) الديوان ص ١٧٣

(٢) النُّوبَةُ : النَّارِلَةُ والمصيبة وجمعها نُوبٌ ونوبات، ينظر معجم المعاني الجامع.

(٣) الديوان ص ١٧٥، ١٨٤.

كالمحال	وابتغاء السلم من باني الزبي ^(١)
.....
واسـتوى	بلغ الصقر من العزّ أشده
والتوى	لبس الحزم لمن صاعر خده
لانطوى	هو لولا بأسه يحرس بنده ^(٢)
في اعتدال	سار بالأمّة شوطا عجبا
في ملال	لا يرى أسرى بها أو أوبا

وقد أتاح هذا اللون من الحوار تصوير العواطف الإنسانية الصادقة والمشاعر الجياشة، النابعة من أعماق النفس. يقول في قصيدته (على ضريح صلاح الدين) :^(٣)

لَو لَمْ تُبَلِّغْكَ الْحَيَاةَ مُنَاكََا كَفَّكَ أَنْكَ قَد قَهَرْتَ عِدَاكََا
لَكَ سِيرَةٌ كَادَتْ تُمَثِّلُ لِلنَّهْيِ بَشْرًا يُنَافِسُ فِي الْعُلَا أَمَلَاكََا

.....

صَرَّخُوا النَّفِيرَ وَأَطْمَعُوا أَحْشَادَهُمْ فِي نَلِّ عَرَشِكَ وَاقْتِحَامِ جِمَاكََا^(٤)
حَمَأُوا الصَّوَارِمَ وَالْقَنَا بِحَمَاسَةٍ وَأَتُوا مِيَادِينَ الْقِتَالِ وَشَاكََا
قُلْتُ "الْجِهَادَ" فَمَاجَ حَوْلَ لَوَائِكَ السَّامِي فَيَالِقُ لَا تَهَابُ عِرَاكََا^(٥)
وَلَقِيَتْهُمْ بَعْرِيمَةٌ لَا تَنْتَهِي وَالرَّأْيِ نِبْرَاسُ يَوْمُ خُطَاكََا
وَإِذَا الْبُطُولَةُ عُزِّزَتْ بِدِرَايَةٍ كَانَتْ لِإِنْقَادِ الشُّعُوبِ مِلَاكََا^(٦)

.....

وَكَأَنِّي بِكَ قَد هَمَمْتُ بِوَثْبَةِ الْـ أَسَدِ الْهَضُورِ لَوِ اسْتَطَعْتَ حَرَاكََا

.....

يَا لَيْتَنِي أُدْرِي وَمِثْلُكَ يُقْتَدَى بِمِثَالِهِ بَيْنَ الْوَرَى وَيُحَاكَى

(١) الزبي جمع الزبيبة والزبيبة: حفرة في موضع عالٍ تغطى فوهتها، فإذا وطنها الأسد وقع فيها ، يقال بلغ السيل الزبي:

يضرب للأمر إذا اشتد حتى جاوز الحد.

(٢) البند: اسم الجمع : بنود و بنود البند : العلم الكبير.

(٣) الديوان، ص ١٦٦ : ١٦٨.

(٤) نل: هدم.

(٥) الفيلق: جمع الفيلق وهو الجيش العظيم.

(٦) الملاك: قوام الأمر الذي يملك به.

أَيْتَاخُ لِلشَّرْقِ الْمُعَدَّبِ ذَائِدُ يَرْمِي وَيَبْلُغُ فِي النَّصَالِ مَدَاكَ؟

ولا شك أن استدعاء مثل هذه الشخصيات يمثل رمزا للتعبير عن همومه، وإسقاطها على واقع الأمة التي تعاني الضعف والاستسلام، إذ ساعد توظيف هذه الشخصيات الشعراء على إثراء تجاربهم، ومد النصوص بقيمة دينية وتاريخية وسياسية جعلت منها مرجعا هاما لحقب مختلفة من تاريخ أمتنا (١).

سياسة الغرب

ويكشف عن سياسة الغرب الماكرة، وحقيقة تدخله السافر في شؤون العرب بغية الحفاظ على أمنه واستقلاله_ كما يدعي_ فيقول: (٢)

يد المحتل تسعدنا على أن	نروض الفكر بالسهر الإدراك
ونوقظ للعظائم رمح عمرو	إذا أزرى بنا رمح السماك
يسير ببغيه في كل يوم	حفائظ مضهد وصراخ شاكي
يقول: أجير قومك من هلاك	ورفع لوائه عين الهلاك
يوارب إذ يعاهدنا مسرا	مآرب في دهاء واحتباك
عهد عن توسمها أريب	رأى الغربان تنعب في صحاك
فما للشرق يرسف في وثاق	وهذا الغرب يمرح في فكاك
هما شطران في بيت، وبعدا	لشعر غير ملتئم الحياك
طباب الشرق في خطرات شهم	وجمر حماسة في القلب ذاك

ويبدو أن منحى التنوير وتخليط الضوء على خبث الأوربيين هو في الحقيقة منحى كثير من الأدباء الإسلاميين، فقد اتجه الأدباء الإسلاميون إلى تصوير ما أصاب المسلمين من تمزيق مادي ومعنوي، وإبراز الدور الأوربي في ذلك، والموازنة بين حالهم اليوم وأمس، والإشارة إلى ما قدموه بالأمس للعالم أجمع من حضارة، دون تفرقة بين جنس وجمس وما يحاوله الصليبيون اليوم مع العالم الإسلامي من تشويه وتضليل (٣).

وإذا كان الخضر قد عقد آمالا عراضا على الشباب في النهوض بأوطانهم وتحريرها، والذب عن حياضها، فإنه يرى أن للحاكم دورا لا يستهان به فإذا صلح أمر الحاكم صلح أمر الرعية، ويرى أن على

(١) التناص في الشعر العربي المعاصر: التناص الديني نموذجا، ظاهر محمد الظواهرية - ص ٣١٠ نسخة الكترونية.

(٢) الديوان ص ١٦٩، ١٧٠.

(٣) الإسلام في الأدب العربي المعاصر، د / إبراهيم عوضين، ص ٣٩٣

الحاكم السير وفق منهج الشرع الحنيف، ويذكره بالتاريخ الذي له عين راصده ومرآة مصقولة تبدي المساويا، فيقول: (١)

قلدت حكما ومنهجاج السياسة أن
أنت الهمام الذي يقضي الليالي في
ولست أنت كزيد إن يصب هدفا
بل أنت كالبدر يدري الناس قاطبة
وللرئيس عيون من بطانته
أوفى البطانة عهدا من يبلغ ما
والعبرية والشورى إذا التقيا
يستطلع المستشير الرأي يردفه
تسود بالحكم أحقابا وذلك ما
والخلد للصيت والرأي الذي ازدهرت

ترعى الشريعة فيما أنت قاضيه
صحو من الحزم لا في سكرة التيه
أو لا يصب، قل لا حيه ومطريه
لو حاد طرفة عين عن معاليه
تفري الظلام وتوري ما انطوى فيه
دراه من غير تزوير وتمويه
على بساطك قرت عين رائيه
صفاء أفئدة كانت تجافيه
أعني إذا قلت: ليت الله يبقيه
به الصحائف واستدت مراميه

- القومية

نلاحظ في تجربة الخضر نزعة قومية واضحة ، تمثلت في احتوائها على العديد من مضامين الشعر القومي وسماته ، والتي تعد مظهرا من مظاهر الصحو الإسلامية^(٢) : ، فكثيرا ما بكى العروبة والشرق المهيب ، ونعاه في ضعفه واستكانته وهوانه، ودعا إلى وحدة الصف العربي ، والأخذ بأسباب القوة ، للنهوض من جديد لتحقيق العزة والكرامة للإسلام والعروبة ، واتخذ من ماضي المسلمين الزاهر ومجدهم التليد معراجا إلى ذلك ، فبين أن من شيدوا هذا الصرح العظيم وبنوا تلك الحضارة المبهرة هم الأبناء والأجداد ، وأمام هذا الضغط اليهودي والكيد الصليبي للمسلمين -خاصة في فلسطين - نرى شاعرنا يقدم صورة لما نزل بساحتها وما ينتهجه اليهود على أرضها من ممارسات غاشمة ، وانتهاج سياسة التجويع والقتل والتشريد والاعتقال ، ففي قصيدته (أي فلسطين) - والتي قالها في مصر على فراش المرض - يصور بغي اليهود وظلمهم وشدة عداوتهم ، فبعد أن تعرض لماضيها المشرق أخذ في تصوير بعض مشاهد البؤس والحرمان والقمع والتشريد للفلسطينيين ، لعل المسلمين والعرب قاطبة يفيقوا من غفلتهم و يهبُّ لتحرير هذا الوطن السليب .

يقول (٣)

(١) الديوان ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

(٢) الإسلام في الأدب العربي المعاصر، د إبراهيم عوضين ص ٣٧٧ .

(٣) الديوان ص ٩ ، ١٠ .

نصب البغاة على ذراك لواء
كنت الشرى وديارك الأجام لا
وبنوك أسد من يجس طباعها
ولقد عهدتك والحياة أنيسة
ما سار فيك الغيم إلا صيباً
لا يحتسي من ماء أرضك صائل
لا دمع إلا من مآقي خاشع

وكسوا مرابعك الحسان دماء
يبني حواليتها الجبان خباء^(١)
لم يلق إلا نخوة وإباء
وربّاك تزهو بهجة ورواء
والريح إلا أن تكون زخاء^(٢).
فيما عرفت سوى شعاع نكاء^(٣)
لله يدعو خيفة ورجاء

وبعد أن تجرّع الخضر الغصص على ماضي فلسطين والذي يمثل عزة الإسلام خير تمثيل، إذ دحروا
عدوهم وكسروا شوكته، وألزموه جرحه. يدعو صراحة إلى الجهاد قائلاً.^٤

لا حرّ إلا غيرة في أنفس
ما لليهود استوطنوك وصاعروا
أفما نبت بهم مواطن لم تطبق
تنفيم الزعماء عن ساحاتها

تهوى إذا حمي الوطيس لقاء
بعد الهوان خدودهم خيلاء
مكرًا يحوك شقًا لها وبلاء
نفي الرياح عن المياه غثاء

والقومية في نظر الشاعر تعني " الدين والعروبة" فهو عندما يستنفر يستنفر العرب وأمة أحمد ﷺ
خاصة ، فإذا كانت المروءة في العرب فإن الإسلام يرسخها.

وإذا كانت العروبة محفزاً للنصرة والنجدة، فالدين قد أوجب جهاد الكفرة والظالمين وعظم أجر نصرته
المظلوم، وإذا تباعدت ديار العرب فالإسلام يجمع ويقرب، وإذا تفرقت الأهواء والشيع فالإسلام يوحد. لذا
راوح الشاعر بين دعوة أبناء العروبة التي تجمعهم لغة واحدة و دعوة بني الإسلام، وفي مراوحته هذه يؤكد
وجوب النفرة لنجدة المسلمين في فلسطين وأن الأمر جد خطير.

فيتجه إلى استنفار أولي النخوة والمروءة لمؤازرة الشعب الفلسطيني الأبوي، بالمال والعتاد، عن طريق

(١) الشرى موضع كثير الأسد ، يقال: هم أسد الشرى: أشداء شجعان المعجم الوسيط كلمة ، الشرى. الأجمة :الشجر
الكثير الملتف. والجمع : أجم، وإجام، وآجام. المعجم الوسيط

(٢) الديوان صيب) :اسم سحاب كثيف قائم تصحبه عواصف الرعد المطيرة، معجم المعاني الجامع

(٣) الذكاء : الشمس.

(٤) الديوان ، ص ١٠

تصوير بعض مشاهد البؤس الإنساني الذي يعيشه الفلسطيني، وأبشع صور البؤس أن يعزَّ على أبنائه تأمين قوتهم اليومي والذي به قوام حياتهم . فقد جف ضرع المرضعات، وأصاب الأيامي واليتامي البؤس والشقاء لفقد العائل. يقول^(١):

من مبلغ الخفاء أمّة أحمدٍ	نبأ يطير له الفؤاد هباء
تلك الأيامي عَضُّهُنَّ بنابه	بؤسٌ وهُنَّ الصامتاتُ حياء
ذاك الفطيم تفقدت لحظاته	من كان يطعمه صباح مساء
ويح الرضيع يمُصُّ ثدياً لم تذر	فيه الكوارثُ للرضيع غداء
ونرى ابن يعرّب في الصّفاذِ وغيره	طأقٌ يجُرُّ - كما يشاء رداء
أننام عن إسعافهم والدينُ قد	عقد ائتلافاً بيننا وإخاء
هل من عواطفِ كالنسيم يمُرُّ في	سحر بزهر حديقة غنّاء
كلّ يجود بما استطاع فما الندى	وقفاً على من يُجزّلون عطاء
لا تنجدوهم بالتحسّر وخدّة	إن التحسّر لا يزيح عناء

وإذا كان الجهاد هو الحل الأوحده - في نظر الشاعر - فإنه يؤكد في أكثر من موضع على ضرورته عن طريق تصوير معاناة الفلسطينيين - اليوم - على يد هؤلاء الأندال الذين لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، فقد أخذوا على عاتقهم مهمة هدم بيت المقدس " أولى القبلتين وثالث الحرمين " ولن يتحقق لهم ذلك إلا بالقضاء عليهم فجدوا في تعذيبهم والتكيل بهم يقول متحسراً^(٢):

هات فلسطين الحديث عن الذي	خلعت يداه على اليهود ولاء
وأعدّ للغرب الكرام قذيفة	فتاكة أو طعنة نجلاء
يعطيهم عهد الحليف مُداهاً	ويسومهم سوء العذاب عداء
يسقيهم السم الزعاف فإن شكوا	عاطاهم شهّد الكلام رياء
يهتز من طرب لرؤية تاكل	تبكي بهاطل دمعها الشهداء
أفحسب القاسي الفؤاد دموعها	ودم الشهداء المماء والصّهباء

ويختتم قصيدته بأبيات من الحكمة تلخص الفكرة وتؤكدّها في ذهن المتلقى تحمل معها حسرة بيّنة فيقول^(٣):

لا تنهض الأوطان من كبواتها
إلا على أيدي تفيض سخاء

(١) الديوان ص ١٢

(٢) الديوان ص ٩، ١٠.

(٣) الديوان ص ١٣.

بلغوا السماء شجاعةً وذكاءً
 فيها النجاة ولا يخيب نداء
 يُبغّي الشفاء ولا يسبغ دواءً
 ضم المسامع يظلموا الأحياء
 لم أعد في تمثالي البخلاء
 بالمال من بيضاء أو صفراء
 بسخاء كفّ يكسف اللأواء^(١)

ما ساد قوم أشربوا شحاً وإن
 أمِنَ المروة أن تُنادى للتي
 تبغّي النجاة ولا جهاد لمَدنِفِ
 إن تحسبوا البخلاء أحياء وهم
 لو قيل من مثل الحجارة في الورى
 بسط اليهود إلى اليهود أكفهم
 ومتى أرى قومي قد استبقوا العلا

وبعد

فقد اشتملت القصيدة على العديد من الخواطر الجزئية والتي يمكن تجميع خيوطها في أسلاك متقاربة نحصرها في خواطر كلية أهمها:

- ١- شكاة الشاعر وتحسره على حاضر فلسطين الأليم وماضيها الزاهر.
 - ٢- استيطان اليهود أرض فلسطين، واستنطاق الذكرى.
 - ٣- استنهاض الهمم للجهاد لتخفيف المعاناة عن هذا الوطن السليب والعزير على قلب كل مسلم والتآزر معه.
- ألقى الشاعر خواطره إلقاءً غنائياً موقعاً على أوتار نفسه الحزينة المحنقة، مصوراً حال فلسطين في مطلع القصيدة، واستغل أسلوب النفي والاستثناء في الأبيات من الرابع إلى الثامن للتعبير عن ماضي فلسطين الزاهر تأكيداً على تلك الربوع الغناء بتربتها المباركة.
- وبنداء البعيد يحذر العدو الإسرائيلي من العرب فهم جنس يأبى الضيم، وفي هذا إحياء للمشاعر الأصيلة والشيم النبيلة التي جبل عليها العربي الصميم، حتى يهب لنصرة أخيه.
- فالمضمون في التجربة، عبّر عن فكره وفلسفته في الحياة، كما اشتمل على نظرات اجتماعية ومضامين سياسية تنبثق عن رؤية إسلامية لنفس مؤمنة تواقفة لحياة ملؤها السلام والحرية في ظل الإسلام، متطلعة لتحقيق أمل طالما تطلعت إلى تحقيقه على يد رجال بواصل وشباب مخلصين غيورين على أوطانهم لا يملون عن الذود عنه والذب عن حياضه، موتهم في سبيل حريته غاية وأمنه أمل يعيشون لأجله. والقصيدة مطلعها شكوى وقد تخللها العديد من الأغراض الرئيسة كالحماسة، والفخر، والوصف، والهجاء، والحكمة، والنقد الاجتماعي.
- والقصيدة - على ما تقدم - عبارة عن تجربة شعورية حيّة صورت أفكاره في وضوح، لأنها تصدر

(١) اللأواء : ضيقُ المعيشة. المعجم الوسيط،

عن إيمان قوي بالفكرة، وتعكس عاطفة صادقة تجاه أبناء دينه، فهي تؤكد ضرورة أن تكون هناك وحدة قومية، وأن أي مكان يضم بين لابتيه مسلماً يعد وطنه ووطن كل مسلم، وينبغي على المسلمين جميعاً الدفاع عنه والذب عن حياضه.

وقد تكرر جذر كلمة "عرب" بمشتقاتها ثلاث مرات في القصيدة ، وأشار إلى الأمة الإسلامية في موضعين منها - أحدهما جاء بلفظ أمة أحمد والآخر جاء بلفظ الدين.

كما وردت كلمة الوطن في القصيدة نفسها وعني بها ما يحويه المكان من "عرب ومسلمين" في أي مكان على وجه البسيطة مرتين.

- دعوته إلى وحدة الصف.

لظما دعا الشاعر إلى الاعتصام والوحدة بين العرب والمسلمين ، فبهذه الوحدة يتحقق ما يصبون إليه من الحرية والاستقلال والعيش في أمن و أمان ، فنراه يبارك الوحدة القومية بين العرب والترك أيام الحرب العظمى في دمشق ١٣٣٤هـ^(١) ويدعو إلى الاعتصام ، ووحدة الصف للنهوض بالأوطان ويشدذ الهمم برسم طريق النصر،والذي قوامه التسليح بالعلم والاتحاد وإعداد العدة، والصبر وقوة العزيمة والشجاعة والبرسالة والإقدام .

وعادت من البغضاء كالحشف البالي
وتخضل أزهار الربى بعد إحمال
ولم تبق من بنيانها غير أطلال
يلم شعوثا تحت وارف أطلال
فعزم فأقدام فأحرار آمال
وهبات بعض الناس تصبو إلى المال
عرجنا بأبكار وعدنا بأصال

وإن ساورت بعض القلوب ضغينة
فقد يستفيق الصب من سكرة الهوى
وكم عبثت ريح الخلاف بوحدة
فلاح شعور وهو أسعد طالع
شعور فعلم فاتحاد فقوة
لنا همم تسمو إلى العلم رفعة
ولو قيل في طرس الغزاة حكمة

ومن مظاهر إشادته بالوحدة ، تحسره على إلغاء الخلافة الإسلامية ، والتي كانت من أبرز مظاهر الوحدة بين المسلمين ، يقول مخاطبا الخلافة الإسلامية: ^(٢)

واعتز باسمك عرشهم هجروك
في الخافقين لأنهم حرسوك
والأمن إن نظروا بعين ضحكوك

ما خطب قوم طالما وصلوك
حرسوك أحقابا وحلق صيتهم
كنت الوقار على وجوه غزاتهم

(١) الديوان ص ١٩١.

(٢) الديوان ص ١٦٣، ١٦٦.

كنت البطولة تزدري نار الوغى
ما زلت سمط قلادة خرزاته
نهض الزعيم وما رعى عهد التي
برح الخلفاء وحاد وهو مظفر
عذروه إذ أقصى الخلافة جانباً
ما بال قسطاس الشريعة ضاع في
والقوم قوم "محمد" إن زحزحوا
وهدهاه حصن لا أريكة مترف

والنصر يعقد بالقنا المشبوك
أمم بأعلى فدية تفديك
لولا اسمها ما صال صول ملوك
نشوان عن منهاجها المسلوك
ومحا اسمها ليزيل غين شكوك
أفق السياسية ضيعة المتروك؟!
عن هديه اقتحموا شعاب النوك
وزئير ليث لا صياح ديوك

ويبدي تحسراً- في موضع آخر- على حال الشرق الذي هاجر إليه ظناً منه، أن يجده حرّاً طليقاً يقف في وجه العدو، مرفوع الهامة، مسموع الكلمة، إذا به خنوعاً جبائناً مطأطأ الرأس.
يقول مصوراً ما رآه من ضعف الدولة العثمانية أمام قناصل الدول الأوروبية^(١):

بين الجوانح همة
نهضت كما تبغي الغلا
أدمى فؤادي أن أرى ال
وأرى سياسة أمّتي
فهجرت قومًا كنت في
وحسبب هذا الشرق لم
يسع الجهد إذا تضّما
ويقول يوم أبئسه

تسّموا إلى أمم بعيد
والعزم كالسيف الفريد
أقلام ترسّف في قيود^(٢)
في قبضة الخصم العنيد
أنظرهم بيت القصيد^(٣)
يبرح على عهد الرشيد^(٤)
يقبّ السبلاد على الجهد
بعض الأسى: هل من مزيد؟

(١) الديوان ص ٧٥.

(٢) ترسّف: تمشي مشي المقيد.

(٣) بيت القصيد: يقال بيت القصيدة أي أنفس أبياتها وهو مثل في النادر والغريب، وتقضيل بعض الشيء على كله.

(٤) الرشيد: هو هارون الرشيد بن محمد المهدي بن المنصور العباسي، أبو جعفر: خامس خلفاء الدولة العباسية في العراق، وأشهرهم، ولاه أبوه غزو الروم في القسطنطينية، فصالحته الملكة إيريني وأفتدت منه مملكتها بسبعين ألف دينار تبعث له إلى خزانة الخليفة في كل عام. بويح بالخلافة بعد وفاة أخيه الهادي (سنة ١٧٠ هـ) فقام بأعبائها، وازدهرت الدولة في أيامه. وكان الرشيد عالماً بالأدب وأخبار العرب والحديث والفقه، فصيحاً، له محاضرات مع علماء عصره، شجاعاً كثير الغزوات حازماً كريماً متواضعاً، يحج سنة ويغزو سنة، لم ير خليفة أجود منه، ولم يجتمع على باب خليفة ما اجتمع على بابيه من العلماء والشعراء والكتّاب والندماء. ينظر الأعلام، خير الدين الزركلي الجزء الثامن، ص ٦٢ دار العلم للملايين الطبعة: الخامسة عشر، ٢٠٠٢م.

فإذا المَجَالُ كأنَّهُ مَن ضَيِّقُهُ خُلُقُ الْوَالِدِ^(١)

فالمقطوعة تعبر عن ثنائية الحال كما يراها الشاعر، فإذا كان الماضي مشرق، بقوة رجاله وبسالته، وشجاعة حاكميه، فإن الحاضر قاتم مظلم بخنوع أبنائه وخيبة أمانيه.

وبعد فشعره في الجانب الوطني فوق ما يصور حبه لوطنه، يسعى جاهدا على إيقاظ الحمية ويشيع روح العزة في النفوس، و يبعث فيها الأنفة من الذل والصغار ، وهو يشيد ببسالة الشجعان ممن ضربوا أروع الأمثلة في الدفاع عن دينهم وأوطانهم.

- شعر الطبيعة:

أثارت الطبيعة - بخلابتها وجمالها- مشاعر الخضر وحركت فيه كوامن النفس التي تعيش المتعة في هذه الطبيعة، فتراه يذوب فيها حبا وسرورا، وينبري في وصفها وتصويرها ، فإذا استرعى نظره منظراً بديعاً وأثار مشاعره أخذ في تصويره تصويراً خاطفاً، بيد أنه يعكس الكثير من الظلال التي انطبعت على مرآة نفسه و التي تنظر إلى الأمر العادي بمنظور مغاير لطبيعته ، فتراه يصور ولوج الليل في النهار بصورة عدوانية قاسية ، وكأن الليل وحش ضار هجم على فريسته فصرعها وتركها مدرجة بدمائها، فيقول^(٢):

هذا الدُجى اغتال النهار ودسَّه تحت التراب مُصْرَجًا بدمائه
ما حمرة الشفق التي تبدو سوى نضح من الدم طار نحو رداءه

ولا شك أن هذه نظرة سوداوية تتم عن حزن ألمّ بالشاعر، ولعله يرمز بالدجى إلى هذا العدو الغاشم الذي حل بأرضه فسلب أمنه واستقراره، وبَدَل أمنه خوفاً وضياءه ظلاماً.

ومن أجمل صور الطبيعة عنده قوله مصوراً ذوبان الثلوج على الأشجار وقد لفتحها الشمس فأذابتها.^(٣)

(١) الوليد: المولود حين يولد، يضرب بخلقه المثل في الضيق.

(٢) ديوان الشاعر "خواطر الحياة" ضمن موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، اعتنى بها / على الرضا الحسيني ص ١٩، دار الأنوار. "سورية، لبنان، الكويت، ١٤٣١ هـ ٢٠١٠ م، وفي كتابه، الخيال في الشعر العربي، اختلاف في رواية الأبيات فجاءت على النحو التالي

قتل الدجى هذا النهار ودسه تحت التراب مُصْرَجًا بدمائه

فخذوا من الشفق الشهادة إنه لطح من الدم نال ذيل رداءه

ينظر " الخيال في الشعر العربي ودراسات أدبية، الإمام محمد الخضر حسين، ضمن موسوعة الأعمال الكاملة للإمام اعتنى بها / على الرضا الحسيني - ص٢٨، دار الأنوار."سورية، لبنان، الكويت، الأولى ١٤٣١ هـ ٢٠١٠ م،

(٣) الديوان ، ص ٣١.

ينظر " الخيال في الشعر العربي ودراسات أدبية، الإمام محمد الخضر حسين، ضمن موسوعة الأعمال الكاملة للإمام اعتنى بها / على الرضا الحسيني - ص٢٨، دار الأنوار."سورية، لبنان، الكويت، الأولى ١٤٣١ هـ ٢٠١٠ م،

نسج الغمام لهذه الأشجار من
والشَّمْسُ تَبَعَتْ فِي الضُّحَى بِأشْعَى
فَبَكَتْ لِكَشْفِ حجابها أو ما ترى
غَزَلِ الثَّلُوجِ بِرَاقِعًا وجلابيا
تسطو على تلك الثياب نواهبيا
عبراتها بين الغصون سواكبيا

والصورة - وإن كان ظاهرها يوحي بهذا المشهد الطبيعي الخلاب توحى أيضا بحب الشاعر للستر والحجاب للمرأة ، ويعبر عما يؤمن به، وقد أوحى صورة المرأة بحجابها وسترها وغفتها له بهذه الصورة .
وكثيرا ما يتخذ من بعض مظاهر الطبيعة سبيلاً لبث أشجانه، وتصوير تجربته، ويجعل ذلك معراجا لتصوير لواعج النفس، يقول وهو على شاطئ البحر بالأسكندرية سنة ١٣٦١هـ^(١).

حمام غره بخر خضم
يحموم عليه يحسبه ذلالاً
فطار السرب يبغي الورد عذباً
فمن قدامك عن وردٍ وبيل
ومن يظفر بوردٍ مستطاب
وكيف يطيب لي عيش وأرضي
تلاعب موجة الحيتان سنبًا
ولما ذاقه ألفاه ملحًا
ولو رشحت به البيداء رشحا
وقل للنفس إن عافته مرحى
فوردي آسن غسقًا وصبا
يهز بها العدا سيفًا ورمحا

ولا شك أن أسف الشاعر على ما أل إليه حال وطنه وراء صياغته الكثير من التجارب من هذا النوع وقد أجاد الخضر في وصف إحساساته إزاء ما يصف .

يقول مصورًا طبيعة الرياح اللينة وما تخلفه من مطر خفيف^(٢):

هزّ النسيم غصون الروض في سحر
لذ الحفيف على سمع الغمام أما
كما يهز بنان الغداة الوترا
تراه يحثو على أدواجه ذررا

فشاعرنا نأى عن أن يكون آلة مصورة ينقل إلينا خلالها ما يراه - كما يقول أ/ أحمد بدوي^(٣) - فقد حدثنا عن إحساساته وانطباعاته إزاء الموصوف .

ويذكره " نيل مصر " وضافه الخلابة بطبيعة تونس الأخاذة ، وكثيرا ما كانت الطبيعة في موطن الشاعر وفي البلاد التي زارها أو استوطنها مدعاة لتذكر وطنه وتصوير حبه له وشوقه إليه ، والتغني

(١) الديوان ص ٥٨ .

(٢) السابق ص ١٠٨ .

(٣) أسس النقد الأدبي عند العرب، ص، ٢٧٨، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة، ١٩٧٩م.

بجمال طبيعته، يقول وقد عبر جسر النيل بمصر إلى الروضة^(١):

عبرتُ على جسرٍ أرى النيلَ تحتهُ إلى روضةٍ فاشتقت منهل زغوان^(٢)
صراطٌ وفردوسٌ وسلسال كوثر وما قيظُ أشواقي سوى وهج نيران

فهذا المنظر الرائق لجسر النيل ومنيل الروضة ذكره بنهر زغوان في تونس وإذا كان جمال الطبيعة يُعدُّ من أكثر مرفدات التجربة عند الخضر فإن التقدم الحضاري ومظاهره، كان له أثره الواضح في إثراء تجربته، وتوليد صور جميلة تعكس واقعا حضاريا ملموسا بأسلوب جميل، من هذه المظاهر تطوّر سبل النقل والمواصلات من قطارات وطائرات تعلو السحاب ، وتشق عبابه، كما تعجب من سرعة القطار وقدرته على نقل راكبيه بسهولة وسرعة وانسيابية ، يقول وقد ركب القطار لأول مرة وسار به بين بساتين دمشق^(٣):

لجّ القطار بنا والنار تسحبه ما بين رائق أشجار وأنهار
ومن عجائب ما تدريه قوم يقادون للجنات بالنار

ويقول في مسير القطار من دمشق إلى الأستانة سنة ١٣٣٤ بعد وداع الأهل^(٤) مصورا أنفاسه الحارة التي تنبعث من صدره وتجيش جيشان المرجل، ومشبهها نفسه وهو في هذه الحالة بالقطار وقد بسطت قضبانه على الطريق يخترق الحدائق والبساتين، ويعمل محركه بالاحتراق الداخلي للسولار مصدرا دخانا كثيفا، وهذا ديدنه ذهابا وإيابا حتى بلوغ غايته ، ومبينا أن القطار رغم هذا أفضل حالا منه إذ أنه يجري ويحرق وقوده بيد أن شمله مجمع لا مبدد كشملة هو .

أرددُ أنفاسًا كذات الوقود إذ رمتني من البين المُشْتِ رواشق
وما أنت مثلي يا قطار وإن نأى بك السير تغشى بلدةً وتفارق
فمالك تلقى زفرة بعد زفرة وشملك إذ تطوي الفلا متناسق

وبعد .

فوصف الطبيعة عند الخضر تميز بعرض نماذج قصيرة -غالبا- عن الثلج وولوج الليل في النهار وعن بعض المخترعات الحضارية الحديثة وقد وظف صورته عن الطبيعة لتصوير نفسه الحرى .

- الصداقة والمراسلات والمطارات:

(١) الديوان ص ٢٢٨ .

(٢) زغوان: نهر في تونس .

(٣) الديوان ص ١٠٨ .

(٤) الديوان ص ١٦٢ .

أ- الصداقة

حب الصديق والوفاء له من أكبر مرفدات التجربة عند الخضر ، فلطالما عبّر عن مشاعره تجاه صديقه وحبه له، وشدة وجدته لفراقه وشوقه إليه، وتصوير الألم الذي يلّم به إذا مرض أو شكى، وكم خف وطرب إعجاباً بخلاله.

يقول مصوراً مجلساً ضمّه وبعض أصدقائه^(١):

وأديب أيقظته من رقادٍ لنصيد الإيناس من أفاظه
طاب في جفنه النعاس وظنت رفقةً أن تهيج ناز اغتياظه
وصحا باسمًا وحيًا فأبصر نا البشر جال في الحاظه
نحن نهوى له الهناءة لكن حرّ شوقٍ دعا إلى إيقاظه

ويقول أيضاً^(٢):

حنانيك ما التمثال باعث سلوة إذا غاب عن عين المحب حبيب
أسيم به طرفي لأطفئ لوعة فيزداد في قلبي المشوق لهيب

ويصور مشاعره تجاه صديقه قائلاً^(٣):

أحبيته ملء الفؤاد وإنما أحببت من ملأ الوداد فؤاده
فظفرت منه بصاحب إن يذر ما أشكوه جافى ما شكوت رقاده
ودريت منه كما درى مني فتى عرف الوفاء نجاده ووهاده

وشعره في الصداقة والوفاء للصديق ، يؤكد ما جاء في سيرته من صفات نبيلة على رأسها شدة إخلاصه ووفائه وحبّه لأصدقائه ، وفي ديوانه الكثير من الأشعار التي تؤكد هذه الخلال منها هذا المشهد القصصي الذي يدل على المحبة والإيثار والذي يقول فيه^(٤):

سايرت خلاً في الهجير فحاد عن ظلّ وأثرني ببرد هوائه
فأبيت أن أرد الظلال وصاحبي يلقى وهيج الشمس في غلوائه

(١) السابق ص ٧٧

(١) الديوان ص ٣٦.

(٢) الديوان ص ٧٧

(٤) الديوان ص ٢٠.

ولو احتسى الماء الزعاق حسوئته
والوود إن شابته يوماً أنورة
عباً ولو جاء الفرات بمائه
ضلت معالم صدقه وصفايه

فإذا ظفرت يده بصديق وفي ألمعي ، فلا ضير إذن مما يحدث بين الأخلاء من بعض الجفاء.
يقول^(١)

خلوا عداتي يملؤون بخيلهم
لا هم في الدنيا إذا ظفرت
أصفو له أمد الحياة وإن رمى
لست المقاطع إن جفا خل ولم
وبرجلهم أكم الثرى ووهاده
بأخ عشقت ذكاه ورشاده
سمعي بقول خادش ما عتاده
يك قطع رابطة الوداد مراده

ويصور ما يطربه من الخلال وما ينشده من صفات فيمن يود صداقته، من سعة علم وحرية رأي،
ونقاش جاد يفضي إلى رأي سديد فيقول^(٢):

أيصفو لي من الأصحاب خل
أهيم به الحياة وما هيامي
يناقش أو يخالف بعض رأي
وأوثر أن أكون محب حزر
لله أدب أرق من السلاف
بغير الألمعية والعفاف
فأبهج بالنقاش وبالخلاف
فحزر الرأي أمثل من تصافي

كما يصور شدة ألمه لمرض صديقه قائلاً^(٣):

نبئت أنك موجع
ما ضرر لو كئت المري
وجع القلوب أشد من
لا خل إلا من يبيت
فارتاع قابلي وانقبض
ض وزال عن خلي المرض
وجع الجسم إذا عرض
إذا مرضت على مضض

ويعبر عن شدة أسفه لفقد الصديق تعبيراً يدعونا إلى الكثير من الشفقة والعطف عليه فيقول^(٤)

(١) الديوان ص ٧٨.

(٢) الديوان ص ١٤٦.

(٣) الديوان ص ١٢٦.

(٤) الديوان ص ٥١.

متحسرا لموت صديقه أحمد تيمور باشا^(١)، ويُعد صديقه محمد بن عاشور^(٢):

تقاسم قلبي صاحبان وددتُ لو
وعالتُ نفسي بالمني فإذا النَّوى
فأحمد في مصر قضى ومحمدُ
أعيشُ وملء الصدر وحشة مُتَرَف
تملتهما عيناى طول حياتي
تعلُّ الحشا طعناً بغير قناة
بتونس لا تحظى به لحظاتي
رمته يدُ الأقدار في فلوات

ولشدة أسفه على بعدهما كأن رحا سلط على قلبه ، وحاله هذه كحال شاب مترف تتقاذفه الفلوات
والمفاوز فلا ينفعه ماله ورفاهيته.

ومن أصدق تجاربه في الصداقة وإخلاصه وشدة وفائه للصديق ، قصيدته الدالية في صديقه محمد
الطاهر بن عاشور قاضي تونس آنذاك، ردًا على رسالته إليه. يقول فيها^(٣):

أي نعم لي بال وأنت بعيد
إذا أجمت نكراك شوقي أخضرت
بعُدتُ وآماد الحياة كثيرة
بعدت بجثمانى وروحي رهينهُ
عرفتُك إذ زرتُ الوزير وقد حنا
فكان غروب الشمس فجر صداقةٍ
وأسلو بطيف والمنام شريدُ
لعمري بدمع المقتنين خدودُ
وللأمد الأسمى عليَّ عهدُ
لديك وللود الصميم قيودُ
عليَّ يا قبيل وأنت شهيدُ
لها بين أحناء الضلوع خلود

(١) هو أحمد تيمور باشا، أديب مؤرخ مصري، علم بالأدب، من أعضاء المجمع العلمي العربي، ولد وتوفي بالقاهرة ، من بيت فضل ووجاهة. كردي الأصل، مات أبوه، وعمره ثلاثة أشهر، فربته أخته عاتشة، وأخذ الأدب عن علماء عصره، وجمع مكتبة قيمة، وكان رضي النفس كريمها، متواضعا، فيه انقباض عن الناس وله مؤلفات عديدة منها: أبو العلاء المعري، أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، التصوير عند العرب ، نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة، تصحيح لسان العرب، تصحيح القاموس المحيط ، ت ١٩٣٠ م . ينظر، الاعلام خير الدين الزركلي، ج ١، ص ١٠٠.

(٢) ابن عاشور (١٢٩٦ - ١٣٩٣ هـ = ١٨٧٩ - ١٩٧٣ م) محمد الطاهر بن عاشور: رئيس المفتين المالكيين بتونس

وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس. مولده ووفاته ودراسته بها. عين (عام ١٩٣٢) شيخا للإسلام مالكيا. وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة. له مصنفات مطبوعة، من أشهرها:

• (مقاصد الشريعة الإسلامية) (أصول النظام الاجتماعي في الإسلام) (التحرير والتنوير) في تفسير القرآن، صدر منه عشرة أجزاء ، أصول الإنشاء والخطابة (موجز البلاغة) ومما عني بتحقيقه ونشره (ديوان بشار بن برد) أربعة أجزاء. وكتب كثيرا في المجالات. وهو والد محمد الفاضل. ينظر ابن عاشور، المكتبة الشاملة. وهو والد محمد الفاضل الآتية ترجمته (١) ..

(٣) الديوان ص ٨٠، ٨١.

لَقِيْتُ الْوُدَادَ الْخُرَّ فِي قَلْبِ مَا جَد
أَلَمْ تَزْمِ فِي الْإِصْلَاحِ عَنِ قَوْسِ نَاقِدٍ
وَقُمْتَ عَلَى الْآدَابِ تَحْمِي قَدِيمِهَا
أَتَذَكُرُ إِذْ كُنَّا نَبَاكِرُ مَعَهُدًا
أَتَذَكُرُ إِذْ كُنَّا قَرِينِينَ عِنْدَمَا
فَأَيْنَ لِيَالِينَا وَأَسْمَاؤُهَا التِّي
لِيَالِ قَضِينَا بَتُونَسَ لِيْتَهَا

وأَصْدَقُ مَنْ يُصْفِي الْوُدَادَ مَجِيد
دَرَى كَيْفَ يُزْعَى طَارِفٌ وَتَلِيدُ
مَخَافَةَ أَنْ يَطْفَى عَلَيْهِ جَدِيدُ
حُمَيَّاهُ عِلْمٌ وَالسَّقَاةُ أَسْوَدُ^(١)
يَحِينُ صَدُورٌ أَوْ يَحِينُ وَرُودُ
تَبَلُّ بِهَا عِنْدَ الظَّمَاءِ كَبُودُ
تَعُودُ وَجَيْشُ الْغَاصِيْنَ طَرِيدُ

ولعل مما ضاعف شعور الخضر بأهميته الصديق بالنسبة له ، غربته وبعده عن وطنه ، كونه لم يبرزق ولدا، مما يكون مدعاة للتسرية عن قلب المحزون والمهموم وكما قال الأول^(٢)

في فرقة الأحاباب شغل شاغل والثكل صرفا فرقة الإخوان

ب- المراسلات والمطارحات الشعرية

المراسلات الشعرية موضوع قديم في الشعر العربي،^(٣) والمراسلات في حقيقتها إرسال صوت إلى صوت آخر، أو هي حوار بين المرسل والمرسل إليه ، وعلى هذا المعنى فهي تحمل أفكارا ورؤى المتراسلين فوق ما تحمله من معان ذاتية وروحية تنم عن روح الصداقة والود بين الأصدقاء من حب وعتاب وشكوى الزمن ونحو ذلك، وقد تكون ردا على تقرّيب لديوان أو شعر شاعر أو تهنئة بتولي منصب أو تأليف كتاب، وقد تأخذ المراسلة -أحيانا- شكل المطارحة^(٤)

ويرى البعض أن لهذه المراسلات جانبا فنيا لا ينبغي إغفاله وهو ذلك المستوى العالي من النصوص الشعرية _ حيث اهتمام المتراسلين _ بتجويد قصائدهم والعناية بها بحيث يجد قبولاً من الطرف الآخر،

(١) المراد بالمعهد هنا : جامع الزيتونة بتونس.

(٢) ديوان أبي تمام، المجلد الثالث، ص، ٣٤٠.

(٣) ينظر على سبيل المثال ما جاء من مراسلات في كتاب: الشكوى والعتاب وما وقع بين الخلان والأصحاب ، لأبي منصور الثعالبي ، دار الصحابة بطنطا، الأولى ١٤١٢ هـ ١٩٩٢م و العقد الفريد لأحمد بن عبد ربه الأندلسي ، شرح أحمد أمين وإبراهيم الإبياري، طبعة ، دار الكتاب العربي ١٩٩٠م. ومصارع العشاق لأبي محمد جعفر بن أحمد القاري، دار صادر بيروت.

(٤) ولا تسمى المراسلة مطارحة إلا إذا كانت بين شاعرين يرد أحدهما على الآخر بشعر يتفق مع شعر الأول في الوزن والروي وفي عدد الأبيات أحيانا. ينظر شعر الأسر والسجن في الأندلس: جمع وتوثيق ودراسة د/ بسيم عبد العظيم عبد القادر، ص ١٠٦.

مكتبة الخانجي، ١٩٩٥ نقلا عن ، بكري شيخ أمين دراسات في الشعر المملوكي.

وهذا _ لا شك _ يعود بالنفع على الأدب، فالمتتبع لهذه الرسائل لا يعدم أن يقف على صورة خيالية أخاذة أو تشبيه طريف بديع أو فكرة جديدة مفيدة أو صورة بديعية راقية.

ففي مراسلة شاعرنا للأديب اللغوي الشيخ عبد القادر المبارك الجزائري، يعبر عن خواطر جياشة عما يحمله له من صداقة وودّ، وما تحمله الذكرى من شوق لأيام حالية قضياها معا في دمشق، ثم عرج بالثناء على تمكن صديقه من اللغة ومن الشاعرية، ثم وضح _ تواضعا منه _ أن تقرّظ صديقه لكتابه "الخيال في الفن الشعري" ما هو إلا كما قال الشافعي: (١)

وعين الرضا عن كل عيب كليله
ولكن عين السخط تبدي المساويا

وختم قصيدته بتقديم شكره والتعبير عن خالص ودّه وإرسال سلامه إليه أرسالا من بعيد طالما عزّ إلقائه من قريب.

وللخضر ثمان مراسلات، ما بين رسالة ومطارحة، تدور مراسلاته حول تقرّظ ديوان أو تهنئته بتولي منصب أو رد على دعوة صديق، أو شكر على هدية.

وهذه المراسلات تختلف فيما بينها من حيث قوة العاطفة وضعفها تبعا لموضوعية الموضوع أو ذاتيته، فإذا كان الموضوع بعيدا عن الموضوعية وعلاقة الشاعر بمراسله قوية متينة ترى القول يتحدر منه تحدر الماء الجاري إلى المسيل والعكس أيضا.

ففي تهنئة الشاعر صديقه الحميم الشيخ / محمد الطاهر بن عاشور، لتوليه القضاء بتونس ١٣٣٢هـ، نجد أن الشعر يفيض بالعاطفة الجياشة، والألفاظ الجزلة القوية التي تعكس خواطر ومشاعر صادقة، وفيها تمتزج التهنئة بالشوق واسترجاع الذكرى الجميلة التي تحمل عبق الماضي بأصالته وأنسه وهناءته، ولا تخلو من إساءة النصيحة التي تؤكد أوامر الصداقة والحرص على الصديق يقول: (٢)

بسط الهناء على القلوب جناحا
إيه محيا الدهر إنك مؤنس
وتعدّ ما أوحشتنا في غابر
لولا سواد الليل ما ابتهج الفتى
يا ظاهر الهمم احتمت بك خطّة
سحبت رداء الفخر واثقة بما
فأعاد مسود الحياة صباحا
ما افتّر ثغرك باسمها وضاحا
خالأ بوجنتك المضئية لاحا
إن آنس المصباح والإصباحا
تبغي هدى ومروءة وسماحا
لك من فؤاد يعشق الإصلاحا

(١) ديوان الإمام الشافعي _ ص ١٤١، شرحه وقدم له / يوسف سامي اليوسف _ الأولى ٢٠٠٣ _ مؤسسة علاء الدين للطباعة والتوزيع، سورية، دمشق .

(٢) الديوان ص ٥٦، ٥٧.

والحزم أنفس ما يكون وشاحا
والعدل أقوى ما يكون سلاحا
خلف فحرم ما ابتغى وأباحا
فكر يرد من العويص جماحا^(٢)
صرف الليالي بالنوى أشباحا
لبنان تهدي نرجسا فيأحا
والصفو يملأ بيئنا أقداحا

ستشد بالحزم الحكيم إزارها
وتنود بالعدل القذى عن حوضها
في الناس من ألقى قلايتها إلى
فأدر قضاياها بفكرك إنه
أنسى ولا أنسى إخاءك إذ رمى
أسلو ولا أسلو علاك ولو أتت
أولم نكن كالفرقدين^(١) تقارنا

وهذا يؤكد صدق الود بينه وبين الطاهر بن عاشور الذي طالما عبر عنه في مواضع عدة من ديوانه
اسمعه يقول حين سأله بعض الأدباء: كيف كانت صلتكم بالشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تونس
فأجابه بهذه الأبيات: ^(٣)

أحبيته ملء الفؤاد وإنما أحببت من ملأ الوداد فؤاده
فظفرت منه بصاحب إن يذر ما أشكوه جافى ما شكوت رقاده
ودريت منه كما درى مني فتى عرف الوفاء نجاده ووهاده

أما إذا كان الموضوع تقرّيب ديوان تجد المراسلة تميل إلى الموضوعية ، وترتكز على طريقة الشاعر
وأسلوبه وما يروقه من نظم صاحب الديوان ومالا يروقه، يقول: ^(٤)

(أبا بكر) نظمت وما مدحتا فها أنا ذا أقرظ ما نظمتا
وما التقريظ إلا الشكر يهدى على ما صغت من أدب وصنتا^(٥)
أبا بكر أعيذك من خيال يروغ عن الهدى ويحوك بيتا
أيزهى بلبل في كف طفلي يمض البلبل الغريد مقتا
فراح يخال لهو القول جداً وينفث في مكان الرشد بهتا
فلاقي من صروف الدهر غسفاً فنصب ماءه واغبر نبتا
لعل الذوق لا يسلو نظاما تزحزح عنه بعض القول بغتا

(١) الفرقدان : نجمان قريبان من القطب يهتدى بهما .

(٢) يقال : جمح الرجل جماحاً أي ركب رأسه وهواه ولم يمكن رده وجمح به مراده لم ينله ، المعجم الوسيط .

(٣) الديوان ص ٧٧، وانظر أيضاً رثاءه للأستاذ أحمد تيمور ص ٢٤٣ من الديوان.

(٤) الديوان ص ٤٢ .

(٥) التقريظ: مصدر قرظ، يقال قرظ فلاناً مدحه وأثنى عليه وقرظ الكتاب: وصف محاسنه ومزياه

وشعر العُرب ذو نظمٍ، فرفقًا
وفي الشعراء من ضاقت خطاه
وكان قريض تونس في صفاء
وما هو كالطليق يمس تيهًا
أبا بكر أخذت تعيدُ مجدًا
وخلّ البخت يسعى للكسالى

بها إن شئت رفقًا واستطعتا
وفاتته الحقائق وهي شتّى
وابداع يضاهي الشهب نعتا
ويشددو فوق أمود تمّتى
هوى فابغ الأناة إليه سمّتا
وسم الحزم والإقدام بختا

والقصيدة تعبر عن منحى الخضر الشعري فهو يميل إلى المضي بالشاعرية على خطى السابقين من جزالة اللفظ وقوة المعنى ومتانة السبك.

ومن المطارحات التي دارت بينه وبين أصدقائه مطارحته صديقه محمد الطاهر بن عاشور ومطارحته الأديب الشيخ علي النيفر فقد أرسل "النيفر" إليه قصيدة دالية فأجابه عليها بقصيدة على نفس الوزن والروي، يقول فيها: (١)

رعى الله حسن العهد هز قريحة
وما الكلم الفصحى سوى درر إذا
ورب قصيد هاج ذكرى تثير من
قصيد بدا من أفق أرض نشأت في
أبا الحسن استسمنت ذا ورم أما
ولا خير فيمن عاد صارم عزمه
وأطريت ظمآن استبان لداته
نظرت بعين السود سيرته فما
حمدنا سراكم يوم وافيت قادمًا
لقيت بلقياك الأريب الذي حكى
ذكرتهما عند اللقاء، وإنما
ولم أنس أن كان الموقر جدكم
فنوه بي عطفًا وتنويه مثله

فألقت علينا من حلاها فرائدا
تلاقت على القرطاس صارت قلائدا
تباريح شوق ما يذيب الجلامدا
مهاد رباها لا عمدت القصائد
ترى عزمه بين الجوانح خامدا
كهاما ويرضى أن يسمى المجاهدا (٢)
موارد عرفان وضل الموارد
دريت الذي تدريه لو جئت ناقدًا
على الطائر الميمون للحج قاصدا
بسيرته الحسناء جدا ووالدا
ذكرت علومًا جمّة ومحامدا
غداة امتحاني مستشارا وشاهدا
يروج ذكرًا مثل ذكرى كاسدا

(١) الديوان ص ٨٥.

(٢) يقال: كَهَمَ السيفُ: أي كلَّ فهو كهامٌ، وكهيمٌ. ينظر معجم المعاني الجامع .

بعيشك حدثني عن المعهد الذي
حظيت بأشياخ ملأت الفؤاد من
بيان أديب يقلب الليل ضحوة
فلم يرني أدري وأنبئ منهم
ويأبى قريضي وهو ضيف حماك أن
فلي في نقاها جيرة كنت أقتني
فدعه يحييهم حفاظا لعهدهم

قضيت به عهد الشبيبة رائدا
تجلت لهم لما خبرت الأماجدا
وفكرة نحير تصيد الأوابدا
رحيل طوى بي أبحرا وفدافدا
يمر بمرسى المهدي محايذا
طرائف من إيناسهم وتلائدا
ويأوي إلى مغناك في الطرس عائدا

وهذه المراسلات - كما سبق أن بينا - مفعمة بالشوق لوطنه ولأيام صباه، وهي فوق ما تحمله من تعبير عن الحب والشوق تحمل أسمى مضمون وحزن جارف على كثير من البلدان الإسلامية التي استلبها العدو ، ولعل هجرة الشاعر قسرا عن وطنه كانت مرفدا لتلك العواطف الجياشة واستتطاق الذكرى الحالية، والعواطف السامية.

- المرض:

عكست تجربة المرض عند الشيخ /الخضر مشاعر صادقة، ومعان جيدة نبيلة سامية، ونلاحظ أن شعره في مرض موته يختلف عن شعره في مرضه العارض، فإذا كان الشاعر يبدي تجلداً وعناداً مع المرض وهو لا يزال به بقية من القوة وشيء من الفتوة، فإنه في مرض موته يبدو مستسلماً له بل ومرحّباً به ويرى فيه خلاصاً من الألم وملاًداً من الضنى ، أضف إلى ذلك ، أن شعره في مرض الموت تشيع فيه الحكمة ويكثر فيه التأمل في الحياة والأحياء . يقول وقد مرض مرضاً عارضاً^(١):

أبدى الطبيب المستشاز نصيحة
قال احم فكرك أن يروض أوابداً
فالفكر إن تُبعِدْ مداه وأنت في
نفسى أبث لي أن تبيت قريحتي
ولأن أموت مُجَلِّياً خير لها

فوقفت منها وقفرة المتردد
واقنع بما يبدو على ظهري اليد
في هذا الضنى لاقيت حتفك في الغد
ويراعتي في نومة المتبلد
من أن أعيش على الفراش كمقعد

مرض الخضر سنوات عدة قبل أن يوافه أجله ، وهذا المرض كان مرفداً أصيلاً لتجربته ، فقد تولد عنه تجارب حية صادقة، ولطالما أن على فراش مرضه ليس من ألم الجسد وحسب ، بل من ألم الاستعمار الذي لا يزال جاثماً على صدر بلاده، اسمعه يقول في مقطوعته " أمنية عليل^(٢):

(١) الديوان ص ٨٢.

(٢) الديوان ص ١١٠، ١١١.

تهز فؤادي يمنة ويسارا
ولم تتخذ ذكري المصير شعارا
كما سطعت شمس السماء نهارا
وألبس من ترب الضريح دثارا
يشيد حصنا أو يخط مطارا

عليل وما لي علة غير رجفة
ألّمت كإمام النذير لمن طغى
ويا ليتنه طهر يعيد صحتي
إذن لا أبالي أن ألقى مصرعي
أوثر عيشا والعدو بأرضنا

- و يرحب - وهو على فراش المرض - بالموت ويرى أنه خير من حياة على رغم، ويحزبه هذا الواقع الأليم لبلاده فلا يفتأ ذاكر له وكأنه ربان سفين وقائد جيش. يقول (١):

والقلب خفاق كقادمة القطاة (٢)
يكفي خطوب كالأسنة في اللهاة (٣)
في ظله الضافي مفاخر رائعات
بطن الثرى أيقظت أجفان الأساة
ضربت بسطوتها على أيدي البغاة
يجد الأسارى من فداء أو حمة (٤)

أرق وهل يبغي القريح سوى السبات
لا تُرهبيني يا حياة ضنى أما
ما أنت ملقية بسلم أقتني
وإذا طغى سقم ليسلمني إلى
إن كنت مرقاة الفلاح لأمة
فالموت مرقاة الهناءة يوم لا

وتبدو على الشاعر - كما نلاحظ في الأبيات - مسحة حزن وإن بدا جلدًا لا يرهب الموت ولا يخشى عاديات الأيام، ويكثر في مرض موته كما بينا من شعر الحكمة، وهذا ليس بعجيب على رجل عاش حتى بلغ التسعين وتقبلت به الأيام وتغيرت به الأحوال ، يقول وهو على فراش المرض بالقاهرة سنة ١٣٤٣هـ (٥):

وأنظّم لکن لا أطيل نسبي
فلم تر غير الجد عين رقيب
ولست إذا يدعو الهوى بمجيب
بكبوة آمالٍ وفقد حبيب

أقول فلا أرتاد غير خصيب
أجد وإن رام النديم دعابة
أحث إلى داعي المعالي مطيبي
وما برحت هذي الحياة تروغني

(١) الديوان ص ٥٠.

(٢) القريح : الجريح ، السبات : الراحة ، وهو حالة يكون فيها الكائن الحي تحت ظروف غير ملائمة، تسكن فيها حركته. ينظر: معجم المعاني الجامع

(٣) الأبيئة جمع: سنان وهو : نصل الرمح. ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة

(٤) المرقاة: وسيلة الرقي أو آله.

(٥) الديوان ص ٣٢.

ولا الـروض يسـليني بنفحة طيب
وما ضـنـبـها إلا بيـاض مشيب
فأنسـت وـجـه الموت غـيـر كـئيب
وإن هـال أقوامـا بنـان طيب
تسـاس بكـفي غاشـم وغـريب

فأنكرتها لا البـذر يـطـلـع مؤنـسا
وما ليلها إلا سـريرة حاسـد
أطلـ عليـ الموت من خـل الضنا
ولو جـس أحشائي لـخـث بنائـه
فلا كان من عيش أرى فيه أمتي

وله تجارب عديدة مع المرض، فوصف علته، وصوّر شكواه، ونقل مشاهد عدة بينه وبين الأساة، فقال بأسلوب حكائي توصيفي بعد أن أبلّ من مرض حل به (١):

لا تغرنك حياة النكد
سطعت بهجة هذا العسجد
تفخري يوماً بنبل المشهد
عثرت بي فرس في جلمد (٢)
أم خلبي من خصال السؤدد
بعد ما اخلولت بعيش رغد
مثلها عسرا وطول أمد
وهوى في الأرض حر الجسد
أرجلي قيّد كقيّد المقعد
يتأخر وأتى في الموعد
مد جسمي فيه مد المخذ
وردوا في الطب أصفى مورد
وانقراض العمر يُدري باليد
كتب المخيا بناب الأسد
في مساء الأمس من صبح غد
ذا ألقى يومهم في أسعد
مطعم مر ووخز العضد
دوا بليـل مثل ليل الأرمـد

يا نفوسا ربيت في رشد
سطع الإيمان في القلب كما
وإذا ما فاتك الرشيد فلا
عثرت بي هم الدنيا كما
لست أدري أفؤادي عامر
وأذاقتني الليالي كدرا
صرعتني غمرة ما حل بي
خفقت في الرأس روح فجأة
ولساني نسي القول وفي
فحسبت الأجل المحتوم لم
بادر المسعف يزجي مركبا
رام بي القصر وألقى فتية
نقروا الصدر وجسوا منبضا
واسـتبانوا أن رب العرش قد
عدت للدار التي فارقتها
وتولاني أساة ها أنا
وصفوا الداء وقالوا طبه
كم طبيب أمه المرضي فعـا

(١) الديوان من ص ٨٢ : ٨٤.

(٢) الجلمد : الصخر. ينظر : المعجم الوسيط.

لَيْتَهُ يَفْقَهُ سَرًّا مَوْعِدًا
وَإِذَا الْمَرءُ اشْتَفَى مِنْ عِلَّةٍ
قَوْمَ الْجِسْمِ بِمَسْتَشْفَى كَمَا
فِي جَنَى النَحْلِ وَرَيْقِ الْأَسْوَدِ^(١)
فَبِفَضْلِ الْأَزْلَى الصَّمَدِ
قَوْمًا أَفْكَارَهُ بِالْمَسْجِدِ

- المرثي:

وإذا كانت تجربة المرض قد فجرت في نفس الحُضِرِ العديد من المشاعر وعَبَّرَ خلالها عن الكثير من الأفكار والمعاني، فإن تجربة الفقد كانت ينبوعًا ثريا لتعجير طاقات من الفكر وتصوير مشاعر ملؤها الحب والحسرة، حبٌ لعزير قلَّ أن يجود الزمان بمثله، وحسرة على هذا الفقد المؤلم.

و موت الصديق كان من أكثر الحوادث وقعًا على نفس الشاعر خاصة وهو في وطن غير وطنه، فالصديق الوفي يمثل له ملاذا وحصنًا منيعًا بل وركنًا مكينًا لا يمكن الاستغناء عنه، كما سبق أن بينا.

ولعل وفاة صديقه الحميم أ/ أحمد تيمور باشا ، كان حدثًا جلاّ بالنسبة لشاعرنا ، فنعاه وصور أساه لموته ، ولم لا وقد كان أديبا ألمعيا و فيا ، وصديقا صدوقا تقيا ، دمت الخلق صادق الودّ ، فحق له الأسي. يقول في رثائه^(٢) :

أهَذَا الدُّجَى وَالصُّبْحُ مَا زَالَ خَافِيَا
أَقْلَبُ وَجْهِي فِي الْحَيَاةِ فَلَا أَرَى
حَمَامَةَ وَادِي النِّيْلِ رَاعِ حَشَاشَتِي
سَقَى دَوْحَكَ الْوَسْمِي وَهَذَا فَمَا لَنَا
لَحَى اللَّهُ صَوْتَ الْهَاتِفِ الْيَوْمِ أَنَّهُ
أَصَاحَ لَهُ صَحْبِي فَأَنْبَأَ بِأَلْتِي
نَعَى عَبْقَرِي الشَّرْقِ تَيْمُورَ فَاغْتَدَى
حَنَانِيكَ عَزَّ الْعِلْمُ وَالْمَجْدُ وَالْهُدَى
تَرَحَّلَ بِالتَّقْوَى وَأَبْقَى وَرَاءَهُ
رَعَى اللَّهُ قَبْرًا بَلْ رَعَى اللَّهُ رَوْضَةً

أَمِ الصُّبْحُ وَافِي حَائِلِ اللَّوْنِ دَاجِيَا
لِذِيْدَا وَكَانَ الْعَيْشُ بِالْأَمْسِ زَاهِيَا
هَتَافِكِ إِذْ أَرَسْتَلَهُ الْيَوْمِ شَاجِيَا
نَرَى غَصْنَهُ الْمِيَادَ أَغْبَرَ ذَاوِيَا^(٣)
نَعَابَ غَرَابٍ يَقْرَعُ السَّمْعَ جَافِيَا
تَشَبَّ الْأَسَى بَيْنَ الْجَوَانِحِ طَاغِيَا
لَمْنَعَاهُ قَلْبَ الشَّرْقِ كَالْقَرْحِ دَامِيَا
فَقَدْ كَانَ عَلَامًا مَجِيْدًا وَهَادِيَا
ثَنَاءً كَنْفَحِ الْمَسْكَ يَسْطَعُ ذَاكِيَا
تَبَوَّأَهَا مِنْ كَانَ لِلْعَهْدِ رَاعِيَا

وإذا كان الشاعر لم يخرج في رثائه عن الإطار التقليدي للمرثية، من تشبيه صوت النعي بصوت الغراب، ونعي المتوفي للعلم والمجد والخلق ، والدعاء له ، فإن هذا لا يقلل من شعوره بالفقد وحزنه على

(١) الْأَسْوَدُ الْعَظِيمُ مِنَ الْحَيَاتِ وَفِيهِ سَوَادٌ. المرجع نفسه

(٢) الديوان ص ٢٤٣.

(٣) الْوَسْمِيُّ :مَطَرُ الرَّبِيعِ الْأَوَّلِ. المعجم الوسيط.

الميت، إذ هي طريقة متبعة في الصياغة، ولا ننسى أن الخضر رجل مهموم حزين وأغلب شعره إنما هو نتاج العاطفة ووليد العقل.

ولعل من أصدق مرثيه وأشدّها لوعة وأكثرها تعبيرًا عن حرق الوجد وشدة الأسى مرثيه لزوجه السيدة زينب التي توفيت بالقاهرة عام ١٣٧٢م وكانت باةً سالحة محبة له حبة عليه. يقول في مستهل إحدى مرثيه فيها^(١):

أعادلُ غُض الطرفِ عن جَفْنِي الباكي فخطبُ رمى الأكبَادِ مَيِّ بأشواك
ولي جارة أودى بها سقمُ إلى نوى دون [مَرَاهَا] المحيط بأفلاك^(٢)
أيا جارتنا عهد اللقاء قد انقضى وصمْتُك إذ أدعوكِ آخِرَ ملقائك
أجارةُ هذا طائر الموت حائم ليذهب من زهر الحياة بمنجأك

فيطلب من عازله التخفف من لومه لكثرة بكائه و نحيبه على زوجه ،والتي كنى الشاعر عنها ب" جارتها" فقد فارقتة بلا عودة، وخلصت له الأنين والأسى والضنى والوحدة والوحشة ، فقد يفقدها الأنيس والساحب والصديق والمعزى والملهم، فحق له أن ينعى معيها وكل ركن من أركان منزلها، وحق له أن يقص علينا بعض فضائلها ومحاسنها التي خلفت له الوجد والأسف والحزن.

وكنت ألاقى كُلمًا جئتُ مؤنسًا فمالي ألاقى اليوم صيحةً منعاك
وكنتُ أعزى النفس من قبل أننى أفوتُ قريِرَ المقلتين بمخياك
ولم أدر ما طعمُ المنونِ فدقُّته مساء لفظتِ الروح والعينُ تزعاك
هوى بك بين لسث أرجو وراءه زمانًا يجودُ الدهرُ فيه بمزآك
فهيهات أن أنساك ما عشتُ والأسى يموجُ بقلبي ما جرت فيه نكراك
وهيهات لا أنسى مواطنَ كنت لي مُسأية لا أنسى إلا بمغناك
ولولاك لم أقض اليراعة حقها كأن نسيج الفكر جيك بيمناك
لقد ضنت في الحالين عهدًا فلا أرى لدى عسرة إلا انطلاق مَحْيَاك
وأنت التي حبيت لي العيش بَعْدَمَا سئمتُ فطيبُ العيش بَعْضُ مزاياك
وإن سامني يومُ شكاة تدفقت دموعك من جفنٍ يُخال هو الشاكي
يجافي الكرى عيني إذا مسك الضنى ويرتاح ما بين الحنايا لمُنجاك
تمر بنا الأيام موصولة الفنَى فما ضرنا إلا نكون كأملك
لياليك أيامٌ بمنزلة اللوى ومظاعُ أقمار السماء بمأواك

(١) الديوان ص ١٧٠ وما بعده

٢ في الديوان مناها وأظنها مرآها.

ويصور حاله بعد أن عاد إلى منزله وقد ضمها القبر، وما ألمَّ به من وجد وأسى وكآبة، فيقول^١ :

أجارة لو شاهدت كيف وقفت في
إذا لرأيت الحزن يضلّ بناه
وعُدْتُ إلى البيت الكئيب كأنني
أغصُّ بشجْوٍ كلَّما مرَّ موضعُ
ويبعثُ أشجاني هديرُ حمامةٍ
أجولُ بفكري أبتغي لي قربةً
تجرعُتُ مرَّ الصبرِ عليّ أراه في

مِزارِكِ لكن ما ظفرتُ بنجواكِ
حشا وكان الحزن شدَّ بأسلاكِ
خُلقتُ فريدًا لستُ أعرفُ إلاكِ
حللت به والنفسُ مرآةَ سيماكِ
تنوحُ كأن الطيرَ في الجو تنعاكِ
أمتُّ بها عند الدعاء برُحماكِ
حسابي وعقباي السليمة عُقباكِ

فقد تزايد شعوره بالوحدة والاعتراب والفقد بعد دفنها وعاد بدونها، ويختم القصيدة بالدعاء لها بنزل كريم، ومقعد صدق عند مليك مقتدر. فيقول.

فطوبى لك القربى لدى الله منه
ونزل كريم في منازل نسائك

ولعل كون الخضر لم يرزق ولدا، ومقيم بوطن غير وطنه، بعيد عن الأهل والأصدقاء قد ضاعف شعوره بالأسى، والإحساس بالوحدة بعد موتها، فكانت هذه الزوجة الرؤوم بالنسبة له - كما قال - الركن المكين، والظل الظليل، والكنف، والكهف الذي يأوى إليه. ولنعش مع أبيات من رثائه لأمه لندرك الفرق بين المرثيتين، يقول في رثائه أمه^٢:

قطَّ بَ الدهرُ فأبديتُ ابتساماً
لستُ أدري أن في كفيك يا
لستُ أدري أنك القاذفُ في
فإذا العينُ ترى من كئيبِ
يا سُقاةَ الترابِ ماء هاكمُ
أفلا يبكي الفتى نازحةً
وانتنت ترشفتُ من أدبِ
بنيت "عزور" لقد لقتنا

فانتضي الخطبُ فما قلتُ سلاماً
دهرُ رزءاً يملأ العينَ ظلاماً
مهجتي نارا ومذكيها ضراماً
كيف تلقى نفسي الأخرى حماماً
عبراتي إن في الجفنِ جماماً
سهرتُ من أجله الليلَ وناماً
مذ لها عن لبن الثدي فظاماً
خشيةً الله وأن نرعى النماماً

(١) الديوان ص ١٧٢.

(٢) السابق ص ١٩٩.

ودريئنا منك ألا نشـتري
 ودريئنا منك أن الله لا
 ودريئنا كيف لا نعنو لمن
 كنت نورا في حمائنا مثلما
 أفلـم تُحييه بالقرآن في
 كان لي من قلبك الطاهر في
 كان لي منك إذا أشكو النوى
 ضاع مني أن أجيل الطرف في
 لهف قأبي بات لا يرجو لقا
 فادخلي في سلف قمت على
 واسعدي نزلاً إلى الملقى إلى

بمعالينا من الدنيا حطاما
 يخذل العبد إذا العبد استقاما
 حارب الحق وإن سل الحساما
 نجتلي البدر إذا البدر تساما
 رقة الخاشع ما عشت لزاما
 كل يوم دعوة تجني المراما
 كُتِبَ تحمل عطفًا وسلاما
 وجهك الريان بشرًا واحتشاما
 لك إلا أن يرى الطيف مناما
 هديه الحق وأحسنتم القياما
 يوم لا نخشى على الأنس انصراما

فقد بين في رثائه لأمه^(١) دورها البارز في تربيته وتنشئته فكانت مدرسة وحدها، ولا يزال يحفظ لها كلماتها وإرشاداتها أيام كان غض الإهاب ناعم البال.

وإذا عقدنا موازنة سريعة بين رثاء الشاعر زوجته ورثائه أمه، تبين لك أن عاطفة الحزن والإحساس بالفقد في رثائه زوجته أقوى منها في رثائه أمه، ولعل موت الأم بعد أن تقدم بها العمر وهي في ظل أبنائها خفف من وطأة الفقد لدى الشاعر، بينما فقد زوجته وهو بعيد عن أهله وذويه وهو في سن متقدمة أيضا وليس له أنيس من ولد أو أخ، ضاعف من الشعور بالفقد عنده.

وقد استطاع شاعرنا أن يضيف على صوره - بما أوتي من قدرة على التخيل والتصوير - الكثير من الحياة والحيوية، وقد وفق في توظيف الصورة لصالح التجربة، بما أشاع فيها من معجم الحزن والأسى، وما عكسه من شدة الألم مثل الألفاظ: قطب، الخطب، رزأ، ظلاما، ناراً، ضراما وبما في خطابه ما لا يعقل كخطاب الدهر ومحاورته والذي يدل على الوله والحيرة.

- ويلائم الحضر ملاءمة جيدة بين المرثية والمرثي، فتراه يبرز دور المرثي وأثره البارز في حياته، وصفاته ودورها في إسعاد الغير، فإذا كان المرثي عالماً فهو الألمي المبرز، وإذا كان أمًا فهي الرءوم الحنون الوفية، وهي المدرسة والشعاع الأول الذي أضاء له الدروب، وإذا كانت زوجة فهي المخلصة الوفية الملهمة، وإذا كان صديقاً فهو الوفي المخلص الذي لا يتحول ولا يتغير. اسمعه يقول في رثاء صديقه سالم أبي حاجب^(٢):

(١) ينظر موضوع: الفقد والمراثي من هذا البحث.

(٢) الديوان ص ١٢٩.

سالم بو حاجب. ١٣٤٢: ١٢٥٨-١٨٢٧هـ: ١٩٢٤م، من كبار علماء تونس وأساتذتها، ولد الشيخ سالم بو حاجب =

تحظى برؤية مثله الألفاظ
وشعاعه الأقسام والألفاظ
فرط الأسى العلماء والوعاظ
منعاه أم لفح الفؤاد شواظ
نبلًا إذا أعيى الحماة حفاظ
شهدته أعيينهم وهم أيقاظ
وكأنما درس البيان عكاظ
غفلت عن استنباطها الحفاظ
لانت قلوب كالصخور غلاظ
وجنبي قريحته اللذيذ حفاظ

فقدت سماء المجد بدرًا عز أن
بدرٌ شباه هداية ومعارف
أودى الحمام - بسالم - فبكاه من
لم أدر إذ نعق النعي أراعني
يلقي حماة النحو في نظراته
يترسومون به الخيل كأنما
وكان درس الفقه مجلس مالك
ويغوص في درس الحديث على حلى
وإذا تسنم للخطابة منبرًا
رحمي له قد كان لي من عطفه

وبعد فأهم ما يميز قصيدة الرثاء عند الشاعر، الصدق في التعبير عن المشاعر والأحاسيس،
الصدق بمعنييه: مطابقة الكلام لمقتضى الواقع، والصدق في التعبير عن الذات.

- النقد الاجتماعي

سبر الخضر أغوار المجتمع فوقف على العديد من أدوائه وأمراضه _ وهي غالبا أمراض معنوية ولا
شك أن هذه الأمراض أشد فتكا بالمجتمع من الأمراض الحسية، فتعرض لشرب الخمر والسفور، وانتشار
دور اللهو والمعازف، والحكم بالقانون الوضعي، والرشوة، وتوسيد الأمر إلى غير أهله، وانتشار الطوائف
الضالة البعيدة عن المنهج الإسلامي الصحيح كالبهائية والقاديانية (١).

= بإحدى قرى تونس ، حفظ القرآن ومبادئ الكتابة في كتاب القرية ، أخذ العلوم الشرعية من جامع الزيتونة الأعظم ،
عين مدرسا بجامع الزيتونة سنة ١٢٦٥هـ/١٨٤٨ - ١٨٤٩م واستمر يبيث العلم في تلامذته إلى سنة ١٣٣٠هـ/١٩١١ -
١٩١٢م باستثناء المدة التي قضاها بأوروبا وخاصة بإيطاليا من سنة ١٢٩٠هـ/١٨٧٣ - ١٨٧٤م إلى سنة
١٢٩٦هـ/١٨٧٨ - ١٨٧٩م مصاحبا الجنرال حسين لَمَّا ، أدخل إصلاحات بارزة على نظام التعليم بجامع الزيتونة ،
تولى الفتيا . ١٣٢٣هـ . ينظر : الموسوعة التونسية نسخة إلكترونية و الأعلام الوطنية العالمية .

(١) البهائية: طائفة تنسب إلى زعيمها البهاء وهو لقب يدعى به ميرزا حسين علي، وهو الزعيم الثاني للمذهب، والذي زعم أنه
المهدي المنتظر، وتسمى أيضا البابية، نسبة إلى الباب وهو لقب ميرزا علي محمد الذي ابتاع هذه التحية، وطائفة البهائيين يزعمون أن
من يصرف العبادة إلى عجل أو كوكب فهو مشرك، أما من يصرفها إلى ولي أو رسول أو عجل البهائية فموحد. ينظر البهائية:
تاريخها وعقيدتها وصلتها بالباطنية والصهيونية.

المؤلف ، عبد الرحمن وكيل، ص ٢٤٧، ٢٥٩. الناشر دار المدني للطباعة والتوزيع، جدة، ١٩٨٦م
والقاديانية والبهائية، محمد الخضر حسين ضمن موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، من ص ٧: ١٥،
اعتنى به على الرضا الحسيني، دار الأنوار، سورية، لبنان، الكويت، الأولى، ١٤٣١هـ ٢٠١٠م، وأبطل الإمام =

ومن أطول قصائده في هذا الجانب قصيدته "بعض أمراضنا الاجتماعية" فقد بلغ عدد أبياتها ستا وأربعين بيتا استهلها بقوله: (١)

أيعود للشرق الحماسة والإبء فتعود عزته ويبتهج العلاء؟

سلط فيها الضوء على العديد من قضايا المجتمع وأمراضه، والتي منها،

- شرب الخمر، وسفور المرأة وتفننها في إبداء زينتها أمام الرجال. يقول في ذلك :

قالوا: استقام الشرق وهو يسير في	نهج الفلاح وفي عزيمته مضاء
تلك الخمور تدار في علن ولا	لوم ينال المعنين ولا جزاء
كم من مآدب في البلاد تقام في	رأد الضحى وعلى موائدها الطلاء (٢)
فتياتنا إن رميت بث شكايتي	من خطبهن يسابق الشكوى بكاء
كُنَّ البودور حصانة ووسامة	والحسن يبهر إذ يخأطه الحياء
وحجورهن مدارس الأطفال إذ	طُهرت فحظهم الطهارة والنقا
ما بالهن اليوم يرضين الهوى	ما شاء، لا راع يُهاب ولا قضاء
أقصى الإله ملاحيا ومراقصا	نصبت كأشراك يُصاد بها النساء
فيضعن أحمر فوق أبيض زينة	ويردنها كالعيس يقتلها الظماء
يغشينها وثيابهن كأنها	لشفوفها فوق الصلا والبطن ماء
أسفا على عرض الفتاة ألم يكن	من غيرة الأم العطوف له وقاء
اليوم ترسلها يد الأب نفسه	بين الشباب كأنه منها براء

= الخضر - في هذا الكتاب - مزاعم الطائفتين.

ومما جاء في كتابه في رده على البابية والبهائية ص ٨٢ قوله: "وملخص القول في البابية والبهائية أنه مذهب مصنوع من ديانات ونحل وآراء فلسفية، قال صاحب كتاب (مفتاح باب الأبواب) يصف البابيين: "لهم دين - خاص مزيج من أخلاط الديانات البوذية والبرهمية الوثنية، والزرادشتية واليهودية والمسيحية والإسلامية ومن اعتقادات الصوفية".

وقاديان التي تتسب إليها طائفة القاديانية، بلدة في الهند، قامت بها دعوة غلام أحمد زعيم الطائفة القاديانية وله مهد القاديانية الهند" القاديانية: نسبة إلى قاديان مدينة تقع في البنجاب الهندية أسسها غلام احمد بن مرتضى القادياني، ولد سنة ١٢٥٢هـ وتعرف أيضا بالأحمدية وقد رفض كون الرسول محمد النبي ﷺ الخاتم، بل قال عن نفسه بأنه المبشر أيضا، وأنه ينزل عليه الوحي، وأنه نبي ورسول ينظر، القاديانية والبهائية، المرجع السابق، من ص ٧: ١٥

(١) الديوان ص ١٣: ١٦.

(٢)الطلاء: بكسر الطاء، ما طبخ من عصير العنب حتى ذهب ثلثاه وصارله قوام . معجم المعاني الجامع .

قالوا دواء قضاتنا قانون بنا
سُسنا به الأقسام فانتظمت لنا
لا تخرج الغبراء مثل محمد
طغت الوساطة في الوظائف ويح من
ضاعت بجانبها كفايات بنى
وإذا نكرت الدين قالوا خنيا
إن المدارس كالسموات العلا

ريز، وقانون الإله هو الدواء^(٢)
في الشرق والغرب العدالة والدهاء
أو مثل شرع آثرته به السماء
لم يدر أين الجاه أو أين الثراء
آساسها العلم المؤتثُل والذكاء
من نكره وعلى أخوته العفاء
وعلمها مثل النجوم لها ضياء

وتعود من تلك الخلاعة مؤهنا وفؤأها من عزة التقوى هواء

- الحكم بالقانون الوضعي، وانتشار الوساطة في الوظائف والاستهانة بالدين وتهميشه في العملية التعليمية، وكثرة الإلحاد والملحدين، الخ. يقول^(١):

(١) السابق نفس الصفحة.

(٢) باريز : باريس وبالفرنسية: Paris ، عاصمة فرنسا ، تحول اقتصاد باريس تدريجياً إلى اقتصاد يعتمد على صناعة الخدمات ذات القيمة العالية مثل الخدمات المالية وخدمات تكنولوجيا المعلومات. ويكيبيديا الموسوعة الحرة .

وسياسة التثقيف يشغل بالها
ومتى يماط أذى الدعايات التي
فدعاية الإلحاد ينفث سمها
ويهمُّها غيرُ الهدى حتى الغناء
توحي ضلالا والضللال هو الوباء
رهط يؤزرهم عليها أغبياء

وكذلك مقطوعته "بلغ السيل الزبي" (١)

- الدعوة إلى العلم .

كثيرا ما دعا الخضر إلى العلم وصقل النفس بالمعارف المختلفة، ورأس العلم هو علم كتاب الله وحفظه واستظهاره وفهم أسراره ومراميه، فالقرآن الكريم غذاء الروح، مليء بالحكم والمواعظ، ساد الأولى الدنيا بأسرها باتباع هديه والتخلق بأخلاقه .

يقول (٢)

.....
تلقى بها وجه الحياة أنيسا	أما نعيمُ الروح فهي هدايةٌ
حكما كما تُبدي السماء شُموسا	هذا كتابُ الله يُبدي للورى
حَام الجُحودُ بها لخرَ فريسا	حُججٌ تذود عن النهى شُبها ولو
فيها بمذياح البيان دُروسا	وأقام سوقا للمكارم ناشرا
إصلاح أُمته وعاد يؤوسا	لولا هُداة لِحار أذكى الناس في

وهو في هذا الجانب لا يشخص الداء فحسب بل كثيرا ما يصف الدواء ففي قصيدته "المعارف والصنائع" والتي بلغت أبياتها إحدى وثلاثين بيتا، يسترجع الذكرى، ويتجرع الغصص على ماض زاهر لم يعد منه غير الطلل، ويكرر في القصيدة لفظ "كنا" أربع مرات الذي يلخص جانبا من الماضي، ثم تراه في نهاية القصيدة يؤكد على دور العلم والعمل في النهضة والتقدم إذ هما حجرا الزاوية يقول: (٣)

تشفي غليلاً حره يتصدد	أبناء هذا العصر هل من نهضة
وسببها للعالمين ممهد	هذي الصنائع ذُللت أدواتها
ودنا جناه فما لنا لا نحصد ^(٤)	وكذاك بذر العلم أخرج شطأه

(١) الديوان ص ٦٨

(٢) الديوان ص ١٢٠، ١٢١.

(٣) الديوان ص ٩١، ٩٢.

(٤) شطأ الزرع: خرجت فروعه أو سنابله، أو أول ما يظهر منه " وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ" . معجم المعاني الجامع

بهما جرى القوم الذين استضعفوا
أفلا نسير مسير ذي رشد إلى
فأطالما حوت الغنائم جولة
إن المعارف والصنائع عدة
من قبل شوطا في التقدم يبعث
آثار ما قد أسسوه وشيدوا
من رائد النظر الذي لا يخمد
باب الترقى من سواها موصد

ويتوجه إلى وزير التعليم، ملتسما منه أن يولى العلم الشرعي اهتماما، وأن يكون له الحظ الأوفر في المدارس والجامعات، كما يدعو حكام المسلمين إلى تحكيم شرع الله، والمساواة بين الرعية في الحقوق والواجبات، والعمل على سيادة العدل بين جميع أفراد الشعب، فلا مفاضلة بين حاكم ومحكوم، وعلى الحاكم أن يتعهد رعيته ويعمل على ما يصلح أمرها، فيقول (١):

حامي العلم أقرض الشرع حظاً
والرئيس الهمام من لا يجاري
يتوخى الإصلاح أنى تبدي
فائقا من رعايته واحتراض
شبهوات الأحزاب والأشخاص
بجلاء فكوره الغواص

- اللغة العربية -

كثيرا ما أشاد الخضر باللغة العربية ، وبين فضلها ، وأبرز مزاياها ، وكم أسى على مسلك بعض العرب ، في إلحاق أبنائهم بمدارس أجنبية بل والتباهي بذلك ، حتى يزيد الطين بلة ويزداد ضعفها وطمس معالمها ، ويرى أن هذا هو الداء العضال ، يقول: (٢)

ضلّ قومٌ سلكوا في حفظها
ألقمت في نطق قومي أحرفاً
بعض من لم يفقهوا أسرارها
نفروا منها لوأذا وإذا
ما زكا تفاح لبنان على
واستوى في نظر الأعشى ضحى
سببا أوهن من حبل القمر
من لغى أخرى فأضناها الخدر
قذفوها بمسواتٍ مستمر
جف طبع المرأ لم تغن النذر
حسك السعدان في ذوق مذر
زهر روض وهشيم المحتظر

ويطلب من ناظر جامع الزيتونة بتونس، الاهتمام بدراسة مادة "الإنشاء" فيقول بعد أن أشاد بجهود هذا

(١) الصبأء: جَهْلَةُ الْفُتُوَّةِ، صَبَا صَبُوءًا وَصُبُوءًا وَصَبَاءً وَصَبَاءً.

(٢) الديوان ص ٩٩.

الناظر افتخر بما يقدمه هذا الجامع من علوم ومعارف تقوم اللسان وتشيد البنيان: (١)

مقامكمُ الجدير بأن يُهابا
أرى بالجامع السامي بحورًا
ولكن الخصاصَ في فنونٍ
فإن صناعة الإنشاء خاست
وكيف يعزّ والألفاظُ فصحي
ولا نرمي بسهم الفکر إلا
نجرد للمعالي سيف حزمٍ
ومن صرف العناية في ارتقاءٍ
ونضرب عن مقالة من نعاها
يقول ابن العميد لها ختامٌ

ومطلبنا الجدير بأن يُجابا
من العرفان زاخرةً عذابًا
تهيج بنا المخافة أن نُعابا
بضاعتها فلم تبأغ نصابًا
علينا أن نعيد لها الشبابة
يقول العالمون لقد أصابا
يمزق دون طلعتها الحجابا
إلى أعلى الذرى اقتحم العقابا
ليخمد من عزائمنا التهابا
وعند فواته نفضت جرابًا

- الإعلام

نبه الخضر على حقيقة مأساوية فشت في المجتمع العربي - خاصة - ألا وهي ما عليه إعلامنا اليوم من تضليل وتمويه وتشويه للحقائق، فيقول في ذكرى مولد الرسول ﷺ مصورا انحراف الصحافة والمجلات عن وجهتها الصحيحة: (٢)

ولا أدري أقومي في سُبباتٍ
فأشياغ الضلال اليوم صالوا
وهم ما بين الحادٍ وقاحٍ
وإن شؤمُ النُّعاقُ فما أزاغوا
فمن قَصَصِ نُعاطي قارئها
ومن ضورٍ تثير هوى وتحدو
أما لشباب أحمد أن يذودوا
كفى ما قد خسرتنا من شبابٍ
فغادوها، وكيف ترى فراشا

فأرجو صحوهم أم في سياقٍ (٣)
بالسنة وأقلام حمّاقٍ
والحاد تقنع بالنفّاقِ
به الفتيات أشأم من نُعاقِ
شرابًا ديف بالسُّم الزُعاقِ
نفوسًا كالبدور إلى محاقِ
خطوبًا كالمطاعن في التراقي
رأوا سُوقَ الخلاعة في نفاقِ
تَهافت في لظى النار الحراقِ

(١) الديوان، ص ٢٩ الديوان ص ٧٠: ٧٥ ينظر كذلك ص ٢٩، و ٩٦

(٢) الديوان: ص ١٥٣، ١٥٤.

(٣) السياق: النَّزْعُ. يقال: هو في السياق أي في الاحتضار، المعجم الوسيط.

هي الشكوى يُردُّها لسانٌ وما بين الجوانح في احتراق

والشكوى - كما نلاحظ - هي المحور الرئيس الذي تدور حوله الأبيات، ولا غرو فذكرى المولد فرصة سانحة للتعبير عن هموم النفس، ولعل قضايا الوطن والمجتمع الإسلامي على رأس ما يوجب الحزن والأرق للشاعر.

- الدعوة إلى التمسك بالدين الحنيف

وكم دعا المسلمين إلى التمسك بدينهم، ويرى أن التمسك بالدين هو الدرع الواقي والحسام الذي لا يفل، وأن السعادة كل السعادة والعزة كل العزة في تقيئ ظلاله والسير على منهاجه، فحججه دامغة وقوانينه جامعة نافعة يقول: (١)

وحياة الإنسان ميدان حربٍ	مالة من وُردها من مناص
وأخو الدين يحتمي من أذاها	بجسامٍ عضبٍ ودرعٍ دلاصٍ (٢)
إنما الدين عزةٌ وعفافٌ	يصرفُ الطرف عن وجوه المعاصي
وحجاجٌ مثل القواضبِ إن لم	يكُ إلا اليقينُ وجهه الخلاصِ
وقوانينٌ إن تصدت لفصلٍ	أخذت بالقلوب لا بالنواصي
لو تراءت للعين يوماً لقلنا	هل لهذا الجمال من قنّاص (٣)
وكأين من حكمةٍ لو تبنّت	طلعة البدر لم يُصب بانتقاص (٤)
فمن الخير أن يثب على آ	دابِه نشوْنَا بغيرِ خصاص
ويح نشءٍ من الصّباءِ بطنانٍ	ومن الرُّشدِ والثّقاةِ خِصاص (٥)

ويتوجه بالنصيحة لبعض شبابنا ممن ينالون من الشرع الحنيف على وجه الدعابة، فيخاطبهم خطاب الأب العاقل والمعلم الشفيق قائلاً: (٦)

بني ألم ترشفت أفاويق حكمةٍ كما رشفت قطر الندى زهرة الدوح

(١) الديوان ص ١٢٤.

(٢) عَضْبُ السَيْفِ : صار قاطعاً، دِرْعٌ دِلَاصٌ : لَيِّنَةٌ. معجم المعاني الجامع.

(٣) الجمال : اللؤلؤ. القنّاص: الصياد.

(٤) تَبَّنَ: (اسم مصدر تَبَّئِي إِثْنٌ بِالتَّبْيِي : الاثْنُ الَّذِي يَصِيرُ فَرْداً مِنْ الْعَائِلَةِ وَلَيْسَ مِنْ صُلْبِهَا. معجم المعاني الجامع.

(٥) الديوان ص ١٢٤.

(٦) الديوان ص ٥٨، ٥٩.

عن السيرة الغراء والخلق السمح
يغض من الدين الحنفي بالمرح
ويأخذ أهل الشرع بالطعن والقبح
دُجْنَةً ليلٍ والهْدَى فلق الصبح

ومثلك لا تلويه داعية الهوى
أعيذك بالفرقان أن تحكي امراً
وتصغي إلى نجوى الذي يركب الخنا
بلوئنا الهدى بعد الهوى فإذا الهوى

- الدعوة إلى العمل

وله دعوات متكررة إلى الإقبال على العمل والجد في تحصيله، والسعي الحثيث للكسب الحلال، فنراه يُعلي من شأن العمل ويرى أن العمل _أي عمل_ حتى لو كان وضيعاً في نظر الكثير من الناس فيه الخير الكثير، فلا تثريب ولا لوم على منقلده، يقول: (١)

وهب يفتح من غورٍ إلى علم (٢)
يدُ الغمامة إذ جادت بمنسجم (٣)
تاج مصون بلا جندٍ وسفك دم
عليائه بسنا ينساب في الظلم
أحلى لناظره من جولة القلم (٤)
فيها مزايا جلاها صاقلُ النسَم
خصبٍ فيسمع منها أطيّب النعم
وتلك ناظرة شزرا إلى الأجم (٥)
يهوى ويخضب بعض الحَق بالكتم (٦)
مسيره نفس العجفاء والهـرم
لم يغل إن ساسهم سعيًا على قدم

تقلد الملك بين الضال والسلم
فعرشه ربوة حاكت خميلتها
وتأجبه الشمسُ تبدو فوق مفرقه
سراجُه الكوكبُ الدري يرسل من
والظبي يرقم في طرس الفلاة خطا
صفت مناظرُ غدرانٍ فكان له
وآلة الطرب الحُملانُ ترتع في
عيناها: ذي سارقت جفن المهانظرا
لم يتخذ سامرا يُوحى إليه بما
وما امتطى مركبا كيلا يُضايق في
ومن تولى نمام الأمر في ملاء

بل ويرى أن الذل كل الذل في البطالة والكسل، والرضا بالدون، يقول: (٧)

(١) الديوان ص ٢٠٤، ٢٠٥.

(٢) الضال: والسلم من أشجار البادية . الغور: ما انحدر من الأرض ويقابله النجد . العلم : الجبل الطويل .

(٣) الحميلة : الشجر المُجمَع الكثير الملتف الذي لا يُرى فيه الشيء إذا وقع في وَسْطِهِ.

(٤) الطرس الصحيفة.

(٥) المها جمع المهاة : البقرة الوحشية . نَظَرَ إِلَيْهِ شَزْرًا : أي نَظَرَ إِلَيْهِ بِغَضَبٍ وَاسْتِهَانَةٍ أَوْ إِعْرَاضٍ

(٦) الكتم بالتحريك: نبات يستعمل في الخضاب وفي صنع المداد .

(٧) الديوان ص ١٩٢.

لا يرتجى العز شعب ظل في وسن
فالدرد يسمو إلى جيد الفتاة وإن
من البطالة لا سعيًا ولا أملا
حام النعاس على أجفانها نزلا

وبعد. فالاتجاه الاجتماعي عند الشاعر يؤكد شدة إخلاصه لدينه وعروبته، وحلمه أن يصبح الوطن العربي عزيزًا مهابًا، قويا بدين أبنائه وأخلاقهم الحميدة، وعلمهم وعملهم من أجل نهضته، فدعا مرارًا إلى الكسب الحلال والسعي الحثيث لدفع غائلة الفقر من خلال تصويره لبعض المشاهد الواقعية لأناس تكبدوا المشاق، ورادوا النفس على العمل والكسب الحلال.

- شعر التأمل

يكثُر الشاعر من التأمل في الكون والحياة والأحياء من حوله، تأملات من شأنها أن تحمل المرء على الحياة السوية وتردعه عن المعاصي، لأنها تتبع من معين إسلامي خالص، ومن شأنها - أيضا - أن تعمق الإيمان في النفوس وترسخ قيم الدين في القلوب، من البر والصلة والصبر والقوة والشجاعة وغيرها، ولا شك أن الجانب التأملي في تجربة الشاعر جانب مهم وحيوي، إذ يقدم فيه زبدة أفكاره وعصارة علمه وعقله.

وهو لا يسوق تأملاته في أسلوب موضوعي عقلي تجريدي جاف، بل يسوقها في أسلوب أدبي تمتاز فيه العاطفة بالوجدان، وينفث فيه من روحه بما يلقيه عليه من التخيل والتمثيل فتخاله نفسا حية لا دمية جامدة، وهذا هو سر التأثير في المتلقي. يقول متأملا الأطور التي يمر بها الإنسان منذ أن كان جنينا في بن أمه، وبعد أن خرج إلى النور إلى أن بلغ أشده وصار عالما يشار إليه بالبنان، ومبينا فضل الله عليه في جميع هذه الأطور، يقول: (١)

قنعت بقوت في الحياة كفاف
أوحى إليها بالحنو الضافي
خلاك تطرح بالسياج الجافي
فاللؤلؤ المكثون في أصداف^(٢)
لقطات عصف كالرياش خفاف
مستوحشا من قلة الألاف^(٣)
من ذات طوق تغدي وتوافي
سواك رب الرفق والإسعاف

حضنتك ذات قوادم وخوافي
تحنو عليك وما درت من ذا الذي
حتى سرى في جسمك الروح الذي
بارحت قيضا كنت فيه محجبا
ألفت بيئا لا بساط به سوى
فجئمت لا مستحينا فرشا ولا
ووقفت حول الوكر ترقب أوبه
توليك إسعافا ورفقا والذي

(١) الديوان ص ١٤٧، ١٤٨.

(٢) الفيض: القشرة العليا اليابسة على البيضة.

(٣) الألاف: جمع الإلف: العشير المؤانس.

رفعتك حكمته إلى طور أبى
راشيت جناحك فانتصيت عزيمة
لك أن تظل غنيفة الخطاف
وعلوت تكشف عن فري ويافي^(١)

وأرجح أن هذه القصيدة يكني بها الشاعر عن نفسه ويفتخر فيها بعلمه.

وفي قصيدته " مناجاة النفس " والتي بلغ عدد أبياتها تسعة وثلاثين بيتا، يكثر من مناجاة نفسه، ومحاورتها، موضحا لها النهج القويم والصراط المستقيم الذي فيه نجاتها، ومبينا حقيقة الدنيا وكثرة صروفها والتي وصفها بكونها " معرض الأضداد " وتتوالى في القصيدة الحكمة كما تكثر فيها العظة والنصيحة يقول فيها: ^(٢)

فاحذري أيتها النفس هوى
هو ذا الفرقان يلقي حكما
عصمة من كل ما تكبو به
فري منهأله في لهف
هذه الدنيا كتاب فاعرفي
معرض الأضداد تلقين بها
تخطر السراء في رونقها
إن جنثك النخل شهدا فارقبي
هي سلم حين تلقى خاملا
وهي حرب حين تلقى ناهضا
أي فضل لحياة لا يبرى
فأنسي بالعيش إن مد التقى
وأنسي بالموت إن أصبحت في

يسترق العقل قبل العاطفة
تتملاها فموم ثاقفه^(٣)
نظرات الفيلسوف القائفه
تجدي طب النفوس اللاهفة
رمزه إن لم تكوني عارفه
درة التاج وأخري زائفه
فإذا البأساء تغدو رادفه
أن تري رقطا بسوم زاحفه^(٤)
لا ينادى لخطوب آزفه
لا يهاب المرهفات القاصفه^(٥)
ناقدوها غير بأر نازفه
من حواليه ظلالا وارفه
أفق العلياء شمسا كاسفه

- الاغتراب.

أبانت دراسة التجربة في ديوان الخضر عن أن الشاعر عاش حالة اغتراب مريرة كان من مسبباتها

- (١) راش الطائر: نبت ريشه، راش السهم: ركب عليه الريش. معجم المعاني الجامع، معجم عربي عربي .
(٢) الديوان ص ١٤٢ : ١٤٥ .
(٣) ثاقفة: حاذقة وفطنة.
(٤) الرقط: جمع قطاء، ويقصد بها الحية فيها سواد يشوبه نقط بيضاء، أو عكسه. معجم المعاني الجامع.
(٥) المرهفات: جمع مرهف، وهي السيف مرقق الحد.

الاحتلال الفرنسي لوطنه، سعى المحتل خلال تلك الفترة إلى تغريب التونسيين بما فرضه عليهم من لغته، وبما أغرى به التونسيين من التجنيس^(١)، وإذا كان هناك ما يسمى بالغرابة المادية والتي تتمثل في نزوح الإنسان عن وطنه، وما يسمى بالغرابة المعنوية والمتمثلة في التمرد على تقاليد المجتمع وأعرافه، فقد عاش الخضر الغريبتين جميعهما.

وللهروي الأنصاري تعريف طريف للاغتراب يتمثل في قوله: " الاغتراب أمر يشار به إلى الانفراد على الأكفاء بمعنى أن كل من انفرد بوصف جليل دون أبناء جنسه فإنه غريب بينهم مغترب عنهم^(٢). ومظاهر الاغتراب في ديوان الخضر كثيرة ومتعددة، لعل أهمها شيوع معان كثيرة للاغتراب في شعره منها: معاني الحزن والألم والشكوى، والتطلع إلى نموذج مثالي غير موجود في الواقع، والتمرد على كثير من الأوضاع السائدة في مجتمعه، واللوذ بالطبيعة.... الخ.

وعن واقع الاغتراب في المجتمعات العربية يقول د/ زكريا إبراهيم: " إن الاغتراب ليس مجرد قطيعة تتم بين الطبيعة والمجتمع أو مجرد تصدع يحدث بين الثكنة^(٣) والإنسانية.. إنما الاغتراب أيضًا تعبير عن الحرمان والضياع خصوصًا حين يجيء المستعمر فيسرق من الجماعة التي يستعمرها أرضها وحضارتها ولغتها وشخصيتها.."^(٤).

هذا الاغتراب وإن كان له تأثير سلبي على الشاعر فله أيضًا جانب إيجابي، يتلخص في إتاحة مساحة زمنية ومكانية كبيرة للشاعر تمكنه من إفراغ أكبر قدر من المشاعر والأحاسيس تجاه الكون بأكمله.

ولعل من أهم التأثيرات السلبية لهذه الظاهرة كثرة حديث الشاعر عن نفسه وظهور "الأنا" بشكل بين في شعره، والافتخار بما أحرز من علوم، وما كسب من معارف، وحمل النفس على الجد والاجتهاد حتى في حالات مرضه ووهن جسمه. فهل كان شاعرنا يتغى من ذلك التأسى وحمل الغير إلى الاقتداء به ومجاهدة النفس في الجد والتحصيل، أم الإعجاب بسعة علمه واتساع مداركه قياسًا على الكثير من أنداده من ذوي الثقافة الهشة، لتحقيق ذاته ورفع شأنه؟ وهذا التفسير مرجوح عندي لما عرف عن الشاعر من

(١) اعتمدت السلطات الفرنسية سياسة التجنيس في تونس، بهدف تحويل التونسيين عن شخصيتهم، وهويتهم الوطنية، وتحويلهم بالتدريج من مواطنين تونسيين إلى فرنسيين. وقد أقيمت فئة من التونسيين على طلب الجنسية الفرنسية والتجنس. الذي شمل فئات اجتماعية مختلفة من حيث الجنس والعمر والوظائف. مقابل صمت الحكومة التونسية وعلماء الدين الرسميين الذين لم يوضحوا موقف الدين الإسلامي من التجنيس، عكس إخوانهم من عامة الناس والمفكرين ورجال الدين الذين رفضوا الجنسية الفرنسية. ينظر مجلة أبعاد مقال تحت عنوان التجنيس في تونس بين القبول والمعارضة خلال فترة الحماية الفرنسية ١٨٨١-١٩٥٦.

(٢) مجلة عالم الفكر مج ١٠ ع ١٠ - ١٩٧٩ م ص ٩٢ مقال " الاغتراب في الإسلام -/ فتح الله خليف "

(٣) الثكنة: مركز الجند ومجتمعهم.

(٤) معنى الاغتراب عند الإنسان العربي المعاصر، مجلة العربي، الكويت العدد ١٩ يناير ١٩٧٥ ص ١٥٣، ١٥٤.

دمائة الخلق بشهادة أصدقائه ومعارفه، ولذمه الكبر والتعالي، وحبه التواضع والمتواضعين.

ويعد الاغتراب الذي عاشه الخضر من أهم مرفدات التجربة عنده فقد عبر في تجربته عن هذا الاغتراب وكشف عن بواعثه وبين آثاره.

فاحتلال وطنه، وغياب شمس الحرية عن سمائه وسلب المستعمر خيرات بلاده، وقمعه المواطنين وهجرة الشاعر قسرا، كل هذا كفيل بأن يجعل الشاعر يعيش حالة اغتراب مريرة تولد عنها شعور مؤلم وجرح ظل ينزف إلى أن وافته منيته.

يقول من قصيدته " صرخة المغرب"^(١).

صرخة الناهض للموت اشتياقاً
ورأيت دمعه الغض مرقاً
الضيم في أكؤسه ماء زعاقاً
أرضه رشداً وعلماً وفاقاً
جاء أرض الشام أو وافي العراق
بهر الأحفاد من فخر وراقاً
أرضهم يخترم البيض الرقاق
فتعاطاه اصطبأً واغتباقاً
يذكر العهد حفاظاً وصداقاً
يعرفون الدهر للذعر مذاقاً
لم ينم فيها الفريقان فواقاً
أي أمن مد في الأرض رواقاً
وقلوب ملئت منه خناقاً
أنها تغلي إذا شد الخناقاً
هم بالدين خسوفاً أو محاقاً
حكمة الله قلوباً وحداقاً
خوف ان يصلوا به النار الحراقاً
ولسانا لا ادعاء واختلاقاً

يصرخ المغرب غيظاً واحتراقاً
لا تلوموه إذا خاض الوغى
هو يلتذ الردى إذ يسكب
أوفد الشرق رجلاً طبقة
يحسب الوافد بدءاً أنه
أمة أودعت التاريخ ما
راعهم جنود غريب حل في
حسب البغى عليهم خمره
ذكروا عهد العلاء والخز من
نهضوا نهض أسود الغاب لا
ظلت الحزب سجلاً حقبه
أي حرب وضعت أوزارها
بين أيدي أمعت في عسفها
يسفك الباغي دماء ذنبها
وظغى في الأرض حتى إنه
ينصب الأشرار كي يصرف عن
لأن بالتجنيس والقوم أبوا
وبنوا المغرب عرب شيميا

والشاعر - في القصيدة - يعكس غربة جماعية عاشها المغرب في ظل هذا المستعمر الغاشم.

(١) الديوان ص ١٥٧، ١٦٠.

والاغتراب في تجربة الخضر الشعرية كما أثبتت الدراسة، يمثل ظاهرة بارزة لها أسبابها ومفرداتها وسماتها، وشعره الذي يمثل هذه الظاهرة يغلب عليه الطابع الذاتي، فالشاعر قد رفده لصياغة شعره في هذا الموضوع، ضغط نفسي يغلب على معجم الشاعر، خاصة جانب الحزن والأسى والأسف معا فنبراته تعكس طوايا نفس تعيش الأسى وتماري غصصه. فالتعبيرات: غيظًا، احتراقًا، صرخة، ماء زعاقا، أدمى فؤادي، الأسى، خُلق الوليد، ميتا، كفن، البكاء، الخيانة، الأسى، الدمن، طعم الموت، العُرب، تعكس هذا الحزن المضني، وهذا الشعور الأسييف.

ويقول أيضًا مصورًا ما آلت إليه تونس من انحدار وتدّنٍ بسبب سوء مسلك المستعمر، الأمر الذي جعله يتمنى الموت ويرى أنه أصبح مطمح النفس^(١).

إذا نُصبت بين الديار منابر	تقوم عليها العُرب وهي تصيح
تنادي لأسواقٍ تموجُ خلاعة	وشرطيها في الرّئدين مَروُح
فقد بلغ السَّيل الزُّبى وأظنا	زمانٌ بما يُرضى الكرامَ شحيح
وأصبح طعمُ الموتِ خُلوًا وريحُهُ	كأنفاسِ زهُرٍ بالرياضِ يفوح

وقد صاحب الاغتراب عند الشاعر حضورًا مكثفًا لمعجم الحزن والأسى، وما ذلك إلا لما لدى الشاعر من بواعث الهموم ودواعي الألم والحزن من حبس وتضييق وتقويض للحرية، نجد ذلك واضحًا في تصويره لهذه المفارقة العجيبة بين ماضٍ زاهر مشرق وحاضر سوداوي مظلم. كما هو باد في القصيدة السابقة، وكما في قصائده: أي فلسطين^(٢)، تحية المجمع^(٣)، تحية المقام النبوي ومناجاة الرسول^(٤). وكانت الطبيعة إحدى ملاذات الخضر ومنتفس لصدرة المكلم فيرى فيها راحة -ولو آنية لما يجد. يقول محمد راضي جعفر عن لوذ الشاعر المغترب بالطبيعة... "في نفس كل شاعر مغترب صوت رومانسي والطبيعة أحد ملاذات شعرائنا من اغترابهم فربما كان عالم الطبيعة البريئة مصدر راحة للشاعر الحزين بعيدًا عن التقليد والتكلف وعندما يضيق الزمان أو المكان بالشاعر يقيم هذا إفضاء في داخل الشاعر. أو يقيمه هو خارجها في صورة كوخ"^(٥).

وقد حوى ديوانه ما يزيد على أربع وثلاثين مقطوعة تناول فيها بعض مظاهر الطبيعة معجبًا حينًا

(١) الديوان ص ٦٨.

(٢) الديوان ص ٩.

(٣) الديوان ص ٢١.

(٤) الديوان ص ٥٥.

(٥) الاغتراب في الشعر العراقي أ محمد راضي جعفر، ص ٤٩، ط اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٩م.

ومتعجباً حيناً ومتخذاً منها صوراً تعكس حالته وتأملاته أحياناً يقول في أحدها: (١).

يعيدُ الشِّتَاءَ الحَيِّ مَيِّئاً أَلَا تَرَى
وَتُرْجِعُ أَيَّامَ الرِّبِيعِ حَيَاتَهُ
به الرُّوضِ فِي كَفَنِ مِنَ الثَّلْجِ مُدْرَجَا
وتكسوه بُزْدًا بِالزُّهُورِ مُدْبَجَا

ويقول (٢):

سَرَقَ الغَمَامُ اليَوْمَ ظَلِي بَعْدَ أَنْ
وَيَدُ الرِّجِيلِ تَخَطَّطَتْ مِنْ جَأَقِ
فَأَنَا خَيَالٌ وَالبُّحَيْرَةُ مُقَالَةٌ
رسمتهُ فِي "لنداو" شمسُ ضُحَاهَا
جَسْمِي وَأَبَقْتُ مُهَجَّتِي بُرْبَاهَا
لَكِن تَطَّأَوَّلَ بِالخَيَالِ كَرَاهَا

ويقول (٣):

كأني دينارٌ وجأقٌ راحةٌ
فكم سمحت بي للريحيل وليتني
ثنافس في الإنفاق راحة حاتم
ضربت بها الأوتاد ضربة لازم

فشعر الخضر في الطبيعة ما هو إلا انعكاس لمشاعر ملؤها الحسرة والألم، حسرة ممزوجة بشكوى وأسفٍ على حاضر مضمّن، وأمني لا سبيل لتحقيقها إلا بإيمان عميق من أبناء مجتمعه بضرورة النهوض واليقظة من هذا السبات، والتأزر للتغيير نحو الأفضل.

ومن الملاحظ أن شاعرنا حين يهرع إلى الطبيعة لا يهرع إليها مناجياً شاكياً - بالدرجة الأولى - بل كشف معجمه فيما يخص الطبيعة - عن نظرة سوداوية عابسة تعكس مشاعر حزينة وواقع أليم قائم فالدجى بلونه القاني - الذي هو مرحلة أولية لدخول الليل في حقيقته زمن الراحة من عناء طويل، صورته

(١) الديوان ص ٥٥.

(٢) الديوان ص ٢٣١، وانظر كذلك ص ١٩، ٣١، ٥٥، ٥٧، ١٠١، ١١١، ١٦١، ١٩٠، ١٣١، ٢٤٦.

(٣) الديوان ص ٢٠٤، جلق "اسم من أسماء دمشق. وهي لفظة أعجمية. جلق): وهي مبنية على فضاء مستو من الأرض في وسط الغوطة الغناء بين الحدائق والجنان النضرة المحيطة بها من جهاتها الأربع، يشرف عليها جبل. جلق بكسر الجيم واللام وتشديدها، وقد تفتح (جلق). وقد ورد في الصحاح: (جلق ... ينظر، دمشق: أقدم عاصمة في العالم - حسن زكي صواف، صفحة ٨٢، دار قنتية للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٤م.

وحاتم هو حاتم طيء، يضرب به المثل في الجود فيقال أجود من حاتم، عاش في الجاهلية فارساً شجاعاً ويكنى أبا سفانة وأبا عدي كني بابنته لأنها أكبر ولده وبابنه عدي، شعره كله حجة في علوم اللغة، مات في عوارض (جبل في بلاد طيء) ديوان حاتم الطائي وأخباره، ص ٣، طبعة لندن سنة ١٨٧٢م.

الشاعر عدوا يصارع خصمه وهو النهار وقد نجح في اغتياله وقتله .اسمعه يقول: (١)

هذا الدُّجى اغتالَ النَّهارَ ودَسَّهُ تحتَ الثُّرابِ مُضَرَّجاً بدمائِهِ
ما حُمْرَةُ الشَّفَقِ التي تَبْدُو سِوى لَطِخِ مِنَ الدَّمِ طَارَ نحوَ رِداءِهِ

والشمس بأشعتها وما ينبعث منها من حرارة - والتي هي في طبيعتها مصدر الدفاء ومبعث الضياء - ماهي إلا ظالمة تسطو على ما نسجه الغمام من ثلوج على الأشجار . يقول (٢):

نَسَجَ الغَمَامُ لِهذِهِ الأشجارِ مِنَ غَزَلِ الثُّلُوجِ بَراقِعًا وِجَلابِيا
والشَّمْسُ تَبْعُثُ في الضُّحى بِأشعَّةٍ تَسْطُو على تلكَ الثِّيَابِ نَواهِيا
فَبَكَتْ لِكشْفِ جِبابِها أو ما تَرى عِبْرَاتِها بَيْنَ الغُصُونِ سَواكِبا

ويقول أيضًا في واقعة حال بالآستانة (٣):

يا رِياضًا خانِها الخُرَّاسُ إذْ عَرِقَتْ أعيُنُهُم في وَسَنِ
سَرقت رِيحَ الصَّبَا مِنْكَ شَدًّا طابَ وانسابَتْ بِهِ في الدِّمَنِ

وبعد . فبنظرة متأنية فيما تناوله الخضر من ألوان الطبيعة يقف المتذوق لأول وهلة على نفسية شاعر تنطوي على حُرْق الوجد وأنات مُعْتَرِب، وآمال ضائعة، ولعل قلة الخلان وندرة الإخوان وشدة حبه لوطنه، ضاعف شعوره بالاغتراب.

- المثل و الحكمة

تضمن ديوان الخضر العديد من الأبيات الحكمية، فكثيرا ما تنتثر في ثنايا قصائده الأبيات الموجزة المركزة، التي تعكس رؤيته في الحياة وتلخص تجاربه، ولعل على رأس خصائص شعر الحكمة التأثر بالمنطق ومخاطبة العقل.

وقد تتبعت أبيات الحكمة في مائة وسبعين صفحة من صفحات الديوان من أصل مئتين وتسع وخمسين صفحة، فوقفت منها على ما يربو على الخمسة وثلاثين بيتا. ويشير الأستاذ عبد الله لالي إلى هذا المنحى الحكمي التأملي في شعره قائلا: (٤) " وفي الديوان كثير من الأبيات والقصائد على هذا النمط

(١) انظر ص ١٩ .

(٢) الديوان ص ٣١ .

(٣) الديوان ص ٢٢٣ .

(٤) قراءة في (ديوان خواطر الحياة) للشيخ العلامة محمد الخضر حسين بقلم: عبد الله لالي , مدونة أحمد طوسون، أدب وثقافة.

التأملي العميق، وربما أكثر من نصف الديوان حكمٌ عظيمة ونظرات ثاقبة في الوجود والكون، تلخص تجربة الشيخ في هذه الدنيا، وما استخلصه من عبر قيّمة،

وتدور معظم حكمه حول الدين والأخلاق والسياسة، والعلم، وفيها دعوات صراح إلى أهمية العلم وضرورة الصبر على تحصيله، وأنه عمود التقدم وذروة سنامه، كما دعا إلى ضرورة أن يصحب العلم خلق حسن، يقول: (١)

رُمْنَا السَّعَادَةَ فِي الْحَيَاةِ فَلَمْ نَجِدْ غَيْرَ الْمَعَارِفِ لِلْسَّعَادَةِ بَابَا
وَالْعِلْمُ كَاللِّبْنِ الْغَرِيضِ يَطِيبُ إِنْ أَنْقَيْتَ أَقْدَاخًا لَأَهُ وَوِطَابَا (٢)
لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ وَعَتَهُ نَقِيبَةٌ كَشَفَتْ عَنِ الطَّبَعِ الذَّمِيمِ نِقَابَا (٣)

ونلاحظ أن الحكمة جاءت في أبيات متتالية.

ويقول في موضع آخر: (٤)

إِنَّ الْمَعَارِفَ وَالصَّنَائِعَ عُودَةٌ بَابُ التَّرْقِيِّ مِنْ سِوَاهَا مُوَصَّدٌ

وكثيرا ما اشتملت حكمه على الدعوة للجهد ودعم المجاهدين والوقوف في وجه المعتدين، ولطالما دعا إلى الشجاعة والإقدام لتحرير الأوطان يقول: (٥)

وَأَشَقَى النَّاسِ أَحْرَارًا تَوَلَّى شُؤُونَهُمْ عَلَى رَغَمِ غَرِيبُ
فَلَاذُوا بِالْقَنَاءِ إِذْ لَأَذَقُوا بِأَقْوَالٍ يُنَمِّقُهَا الْخَطِيبُ
وَلَا يَحْمِي الْبِلَادَ سِوَى اتِّحَادٍ يَشُدُّ عُورَاهُ إِقْدَامَ مَهْيَبُ

ويقول أيضا مؤكدا على أن صلاح الأمم بصلاح حكامها: (٦)

وَمَا أَسْوَأَ الْغَفْبَى إِذَا سَاسَ أُمَّةً لَى الرِّعْمِ مَخْلُوعِ الْعِذَارِ جَمُوحُ (٧)

وتشيع في شعره الكثير من الأبيات التي يمكن جريانها مجرى المثل، والتي تعبر عن عمق ثقافته، وعن

(١) الديوان ص ٢٥.

(٢) الغريضة: الطري والمقصود به هنا: اللين حديث العهد بالطلب. الوطْبُ: سقاء اللين، وهو جلد الجذع فما فوقه.

(٣) نَقِيبُ: اسم، الجمع: نَقَبَاءُ، المُونْتُ: نَقِيبَةٌ وَالنَّقِيبُ: كبير القوم المعني بشئونهم.

(٤) الديوان ص ٩٢.

(٥) الديوان ص ٣٧.

(٦) الديوان ص ٦٤.

(٧) يقال فلان خلع عذاره أي ترك الحياء وركب هواه. جموح الرجل يركب هواه فلا يمكن رده.

البيئة التي عاش فيها وما يعتورها، وما يحزبه منها، ومن أمثاله قوله معبرا عن حبه لمسلك الشباب المتدين: (١)
وما أَبْصَرْتَ عَيْنَايَ أَجْمَلَ مِنْ فَتَى يَخَافُ مَقَامَ اللَّهِ فِي الْخَلَوَاتِ

وقوله معبرا عن وجوب مراقبة الإنسان لله سبحانه وتعالى في السر والعلن، ومغالبتة هوى النفس
والتمسك بحبل الله المتين: (٢)

وَالنَّفْسُ إِنْ جَمَحَتْ نَكَبْخُ شِرَاسَتَهَا بِمَحْكَمِ الْقَوْلِ حَتَّى تَدْرِكَ الْأَدْبَا

ومن أمثاله أيضا (٣):

بِلَوْى الرِّيَاسَةِ أَنْ تُنَاطِ بِمَنْ لَهُ نَفْسٌ تَعَبَّدَهَا غُرُورٌ أَوْ رِيَاءٌ
يَرْتُئُو إِلَى الدُّنْيَا بِمِرَاةِ الْهَوَى وَبِعَيْنِ أَعْشَى وَالْعَشَا دَاءٌ عِيَاءٌ (٤)

ومنها أيضا قوله في مرض ألمّ به: (٥)

فَاجَاهُمْ نَفْسٌ بِمَا أَشْكُوهُ مِنْ وَجِعٍ وَأَنْفَاسُ الْعِيلِ تُنَاجِي

ومنها قوله عن التواضع والكبر: (٦)

أَرَى مَثْمَرَ الْأَغْصَانِ يَدْتُو مِنْ الثَّرَى وَعَاطِلَهَا يَبْغِي بِهَامَتِهِ الشِّعْرَى

وكثيرا ما يختم قصائده بمثل أو حكمة تلخص نظرته، كما جاء في ختام قصيدته "وجه الموت غير كئيب": (٧)
فَلَا كَانَ مِنْ عَيْشٍ أَرَى فِيهِ أُمَّتِي تَسَاسُ بِكْفَى غَاشِمٍ وَغَرِيبِ (٨)

(١) الديوان ص ٤٨.

(٢) الديوان ص ٤١.

(٣) الديوان ص ١٥.

(٤) عشي الرّجل: عشا، ضَعُفَ بَصْرُهُ لَيْلًا.

(٤) الديوان، ص ٥٥.

(٦) الديوان ص ١٠٧.

(٧) الديوان ص ٣٣.

(٨) غاشِم: (اسم) فاعل من غَشَمَ رَجُلٌ غَاشِمًا: ظَلَمَ.

وكما جاء في ختام قصيدته الدالية " فضل اللغة العربية " (١)

ومن يُصنُّهُدَى ملئت يَدَاهُ نجاحاً كُلَّمَا اسْتَوْرَى زَنَادًا

ومن الملاحظ على أمثال الخضر وحكمه أنها تكاد تخلو من الابتكار، فهي حكم مكرورة توارد عليها الشعراء من قبل، بل إنه كثيرا ما يعمد إلى المثل المعروف والمشهور فيصيغ على غراره بيتا أو شطر بيت يقول: (٢)

وللحُبِّ عَيْنٌ أَبْتَنِي البيت من حصي فتبصره دَرًا على القُربِ والبُعْدِ

متأثر فيه بقول الإمام الشافعي: (٣)

وعين الرضا عن كلِّ عيبٍ كليلَةٌ ولكن عين السُّخْطِ تُبْدي المسَاوِيَا

ويقول في موضع آخر: (٤)

فقد بلغ السَّيْلُ الزُّبَى وأظْلَنَّا زمانٌ بما يرضي الكرام شَحِيحُ

متأثر فيه بالمثل: " بلغ السيل الزبي " (٥)

وكثيرا ما دعا إلى الجود ومغالبة هوى النفس وشحها. يقول: (٦)

ما ساد قومٌ أشربوا شُحًا وإن بلغوا السَّماءَ شجاعةً وذَكَاءَ

ويقول أيضا: (٧)

لو قيل من مثل الحجارة في الوَرَى لم أعدُ في تمثيلي البُخلاء

(١) الديوان ص ٧٥.

(٢) الديوان ص ٨٤.

(٣) ديوان الإمام الشافعي ص ١٤١.

(٤) الديوان ص ٦٨.

(٥) كتاب جمهرة الأمثال _ لأبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري _ ضبطه د. أحمد عبد السلام _ خرج أحاديثه أبو

هاجر محمد سعيد بن السيوفي زغلول _ ص ١٨٠ _ الطبعة الأولى _ دار الكتب العلمية بيروت لبنان،

نشر، ١٩٨٨هـ ١٤٠٨ م ..

(٦) الديوان ص ١٣.

(٧) الديوان ص ١٣.

وبعد.

فإن الحكم والأمثال في تجربة الخضر جاءت ضمن أغراض قصدها الشاعر، أو ذيل بها قصائده لتوضيح فكره أو تلخيص لموضوع أو قضية عرضها .

الفخر:

احتوى ديوان الخضر على الكثير من شعر الفخر، ولم لا وهو الأديب الأريب والعالم الألمعي، فطالما نافح عن الدين، ودافع عن الوطن، وظل ينفخ في بوقه حتى انقطع صوته بوفاته رحمه الله، وفخره يدور معظمه حول علو همته وطول باعه في تحصيل العلم وإسهامه في التنوير وإخلاص النصيحة للمسلمين والعرب، يقول: (١)

بصري يسبح في وادي النظر	يتقصى أثرا بعد أثر
وسبيل الرشيد مهود لمن	يتحامي الغمض ما استطاع السهر
إنما الكون سجل رسمت	فيه للأفكار آي وعبر
وإذا أرخى الدجى أستاره	ظفر السمع بما فات البصر
لست أنسى جناح ليل خفقت	فيه بالأحشاء أنفاس الضجر
قمت أسعى لتقاضى سلوة	ومطايا السعي مرقاة الوطر
لج بي التسهيد حتى أوشكت	غرة الإصباح أن تغشى السحر

كما افتخر بصدق دفاعه عن وطنه ونضاله عن حقه في الحرية والاستقلال. (٢) يقول:

وطني علمتني الحب الذي	يدع القلب لدى البين عليلا
لا تلمني إن نأى بي قدر	وغدا الشرق من الغرب بديلا
عزيمة قد أبرمتها همة	وجدت للمجد في الظعن سبيلا
أنا لا أنسى على طول النوى	وطنا طاب مبيتا ومقيلا
في يميني قلم لا ينثني	عن كفاح ويرى الصبر جميلا
هو ذا طاعن به خصمك من	قبل أن تخترب السيف الصقيلا

كما يفخر برسوخ قدم العرب في التقدم واستطاعتهم - بفضل حفاظهم على اللغة- تشييد حضارة

(١) الديوان ص ٩٦.

(٢) الديوان ص ١٩١.

وارفة الظلال أسهم خلفهم في تقويضها، يقول: (١)
ومفاتح العرفان في أيدي الألى
والغُرب قُدمًا مهَّدوا لحضارة ال
حضنوا العلوم وأنعشوها بعد أن
واسم تطلعوا أسرارها فبذت كما
وتبوات من لهجة فينانة

راضوا البيان خطابة وكتابًا (٢)
أمم الحبور وفتحوا الأبوابا
كادت تشق من الأسى أجيابا
يُيدي المزج على الكؤوس حبابا
نزلًا كأندية الكرام رحابا (٣)

و يفخر بمجمع اللغة العربية بالقاهرة والقائمين عليه وأعضائه الذين لا يألون جهدًا في الحفاظ على لغة الضاد وحاولوا جاهدين تطعيم اللغة بكلمات جديدة فصيحة. يقول (٤)

هي لهجة حظيت بنطق محمد
نهضوا كما تبغي الكرامة وانتصوا
جنحوا إلى لغة الفصاحة وانتقوا
واستوردوا العلم الحديث حياصًا
ساروا على نهج المقاييس التي
فكنا جناها في اللغات وطابا
عزمًا يردّ الراسيات هبابا (٥)
كلمًا كأحداق المهة خلابًا
فسقته بالكأس الدهاق رُصابًا
كانت بها ولادة منجابًا (٦)

كما فخر بالحزب الحر الدستوري التونسي (٧) الذي جند الجند، ووقف صفا واحدا في وجه العدو غير أبه بكثرة خيله ورجله ووفرة عدته وعتاده. يقول (٨)

أبى الأحرار ان يحنوا رؤوسًا
وقالوا عزة الأوطان أن لا
وأشقى الناس أحرار تولى
على هونٍ فتركبها العيوب
يقوم من العدا فيها رقيب
شؤونهم على رغم غريب

(١) الديوان ص ٢٦.

(٢) راض نفسه بالنقوى: طوعها: راضوا البيان طوعوه لأغراضهم.

(٣) فينان) اسم والفينان: ذو الأفنان يقال شجر فينان، وشعر فينان: طويل حسن والمراد به هنا غزارة اللغة وسعتها.

(٤) الديوان، ص ٢٦-٢٧

(٥) الراسيات: الجبال الرواسخ، الهباب: الغبار.

(٦) الولادة: مبالغة في الولادة والمنجاب من الرجال والنساء: من ولد النجباء.

(٧) الحزب الحر الدستوري التونسي: هو أول حزب وطني يتأسس بالبلاد التونسية، وكان ذلك في شهر مارس ١٩٢٠، وأصبح يعرف بعد سنة ١٩٣٤ بالحزب الدستوري القديم مقابل الحزب الحر الدستوري الجديد الذي أسسه الحبيب بورقيبة وعدد من زملائه في ٢ مارس من تلك السنة، ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

(٨) الديوان، ص ٣٧

فلاذوا بالقنفا إذ لاذ قـومٌ
ولا يحمي البلاد سوى اتحادٍ
بأقوالٍ ينمقها الخـطيبُ
يشدُّ عُـراه إقـدامَ مهيب

ويفتخر - في معرض وصفه لبلدة "المزسى" التونسية - بمجالس العلم بها وبنهله وعلله من هذه المجالس فيقول (١):
ذكرتُ رُبى المزسى الأنيقة والصبا
وسامرِ آدابِ حسانٍ كأنه
وروضة علمٍ كنت أجني ثمارها
وأيامٍ ما بالقاع من ظبيات
وأرشف منها أعذب اللهجات

وكثيرا ما افتخر برعايته العشير، وعرفانه لحق الصديق. فيقول (٢) :

يومٌ بينٍ لم أذق من قبله
ودعوا، والصبح يحدو بالدجى
وامتطوا سابحةً في الجو لا
جيرةً أضفئتهم ودي بوذٍ وبنوا
لا أبالي إن أنا جاورتهم
زهرة الدنيا أخلائي ولو
لوعه كالنار حراً وهياجاً
حاملاً من بين جنبيه سراجاً
لقيت من أختها الريح لجاجاً
من حفاظ الود للعهد سياجاً
أفرائنا كان وري أم أجاجاً
شفني البين وأعياني علاجاً

ويقول أيضا في مرضٍ ألمَّ به (٣)

هو ذا الضنى أي جارتى ينقض من
يُدلي الطبيب مع الطبيب إلى الحشا
يتهامسون بلهجة لم أدرها
فلتذكريني إن قضيت بأني
بين الجوانح في أشد هياج
سماعة تصف انحراف مزاجي
فإخالهم همسوا بغسر علاجي
أرعى العشير ولم أكن بمُداجي

ويقول في مديحه أهل دمشق وفخره بمجاداتهم وحسن خلقهم وطيب شمائلهم. (٤)

زارها بعد نوى طال مداها
فشفى قلباً مُجدداً في هواها

(١) الديوان، ص ٤٧

(٢) الديوان، ص ٥٥.

(٣) الديوان، ص ٥٤، ٥٥.

(٤) الديوان، ٢٢٩.

أَنْ أَرَى الشَّامَ وَحَيَّاهُ شَذَاهَا
كَيْفَ كَانَ الْعَيْشَ يَحْلُو فِي رُبَاهَا
حَدَّثْتُهُ النَّفْسَ بِالشُّكْوَى نَهَاها
بَرَدَى يَحْمَدُ لِلْعَيْسِ سُورَاهَا^(١)
تَبْلُغُ النَّفْسَ بِمَأْقَاهِمِ مُنَاهَا
أَرْشَقْتُهُ الشُّحْبَ مِنْ خَمْرِ نَدَاهَا
نَاصِحٌ لَاتَّخَذَتْ مِنْهُ خُلَاهَا
لَيْئَاهَا طَلَّقَ الْمُحَيَّا كَضْحَاهَا^(٢)
مُرَهَفَاتِ الْعِزْمِ طَعْنًا فِي لَهَاها

رَاحَ نَشْـوَانٌ وَلَا رَاحَ سـوَى
نَظْرَةً فِي سَاحِهَا تُذَكِّرُهُ
مَا شَكَا فِيهَا اغْتِرَابًا، وَإِذَا
مَنْ يَحْتُ الْعَيْسَ فِي الْبَيْدِ إِلَى
فَهْنًا قَامَتِ نَوَادِي فَتِيَّةٍ
أَدَبٌ يَزْهَوُ كَزَهْرِ عَطِرٍ
خُلِقَ لَوْ نَصَحَ الْخَوْذُ بِهِ
مَلُؤُوا "جَلْقًا" أَنْسَا فَأَرَى
شَدَّ مَا لَاقُوا خُطُوبًا فَاثْتَضُّوا

ويقول مفتخرا بعلو همة قومه، وأنهم أولي صرامة وعزيمة وسطوة يرهبها كل كميته باسل، وبتحادهم

تتحقق الرغائب وتفرج الكرب المدلهمة: ^(٣)

وَعَادَتِ مِنَ الْبَغْضَاءِ كَالْحَشْفِ الْبَالِي^(٤)
وَتَخَصَّلُ أَزْهَارَ الرَّبِيِّ بَعْدَ إِحْمالِ
وَلَمْ تُبْقِ مِنْ بُنْيَانِهَا غَيْرَ أَطْلالِ
يَلْمُ شُعُونًَا تَحْتِ وَارِفِ أَظْلالِ
فَعَزَمَ فِإِقْدَامَ فِإِحْرَازِ آمَالِ
وَهَمَّاتُ بَعْضِ النَّاسِ تَصْبُو إِلَى الْمَالِ
عَرَجْنَا بِأَبْكَارِ وَعَدْنَا بِأَصَالِ^(٥)

وَإِنْ سَاوَرْتَ بَعْضَ الْقُلُوبِ ضَغِينَةً
فَقَدْ يَسْتَفِيقُ الصِّبُّ مِنْ سَكْرَةِ الْهَوَى
وَكَمَ عَبَّتْ رِيحُ الْخِلافِ بِوَحْدَةٍ
فَإِلَاحَ شُعُورٍ وَهُوَ أَسْعَدُ طَالِعِ
شُعُورٍ فَعَلِمَ فَاتِحًا فِقْوَةً
لَنَا هِمَمٌ تَسْمُو إِلَى الْعِلْمِ رِفْعَةً
وَلَوْ قِيلَ فِي طِرْسِ الْغَزَالَةِ حِكْمَةٌ

وإنه لياسى لتقويض الحريات والحيلولة دون الإفضاء بتجاربه حية عما في الضمير

لتحميس الجند ورد العدوان. يقول ^(٦)

(١) بَرَدَى: نهر دمشق الأعظم، يخرج من قرية الزَيْدَانِي، على خمسة فراسخ من دمشق، مما يلي بَعْلَبَك.

(٢) جَلَّقَ: اسم دمشق. المعجم الوسيط

(٣) الديوان ص ١٩١.

(٤) الحشف: أردأ التمر.

(٥) الطَّرْسُ: الكتاب الذي مُجِي ثم كَتَب. الغزاة: الشمس.

(٦) الديوان ص ٧٥.

بين الجوانح همة
نهضت كما تبغي العلاء
أدمى فؤادي أن أرى ال
وأرى سياسة أمتي
فهبزت قومًا كنت في
وحسبت هذا الشرق لم
يسع الجهد إذا تصا
ويقول يوم أبتئنه
فإذا المجل كآله

تسومو إلى أميد بعيد
والعزم كالسيف الفريد
أقلام ترسفت في قيود
في قبضة الخصم العنيد
أنظارهم بيبت القصيد
يبرح على عهد الرشيد
يقت البلاد على الجهود
بعض الأسى: هل من مزيد؟
من ضيقه خالق الوليد

وتأسيساً على ما سبق_ فيمكن إجمال مرادفات التجربة عند الإمام الخضر، والتي حفزته للقول وكانت مدعاة لبواعث الشاعرية عنده، في : - تلك الموهبة الفطرية والبدئية الحاضرة التي حباه الله بها والتي مكنته من قول الشعر بتحرر وسلاسة، وبالتالي بعد به عن التكلف والصنعة مصداقاً لقوله (١):

لا خير فيمن جفَّ طبعًا واشترى
بِطَائِفِ الأَدْبَاءِ كَأَسِ مُدَامِ

.....

والشعر كالبيداء: هذا مهمته
قفّر، وهذا مرثع الآرام (٢)

- المناسبات الدينية وما فجرته من طاقات روحية، ومشاهد حية عكستها مرآته في زيارته المسجدين، وخواطر سنحت له اثناء تنقلاته بين المشاعر.

- الظروف الصعبة التي مر بها القطر التونسي في الفترة التي عاش فيها الشاعر، من هذا الاستعمار الجاثم على صدر بلاده، والذي حال بين التونسيين وبين العيش في ظل الحرية، فما كان منه غير قمع الحريات، وفرض العقوبات والسجن والاعتقال لكل من يرى غير ما تراه الجنرالات.

- الطبيعة بجمالها وخلابتها وشدة أسرها، سواء طبيعة بلاده الهادئة الوداعة، أم طبيعة البلدان التي زارها أو استوطنها وما كان فيها من مشاهد ومناظر أخاذة تسترعي النظر.

(١) الديوان ص ٢٠٢.

(٢) مَهْمَه: اسم الجمع: مهممة وهي المفازة البعيدة، الآرام: جمع الرئم: الظبي الأبيض خالص البياض.

- المجتمع وتغيّر أوضاعه، ونبذ كثير من أناسه للفضيلة، واتباعهم الهوى، وحيدتهم عن سبيل الرشاد، ورضاهم بالهوان والعيش على رغم وذل.
- الشرق العربي بعامّة الذي رآه يرسف في قيود المستعمرين من الفرنسيين والإنجليز والإيطاليين بعد أن كان له تاريخ حافل بالجهاد تحت مظلة حكام أقوياء أشداء على الكفار، طالما أذاقوا الألد الخصم صنوف العذاب.

الفصل الثاني

الدراسة الفنية

(عناصر التجربة الشعرية)

- الانفعال والوجدان

- البنية التعبيرية: (الألفاظ والأساليب، المعاني والأفكار، الصور والأخيلة، الموسيقى والإيقاع)

- الوحدة في الصورة.

- المعجم الشعري في تجربة الشاعر.

- عناصر التجربة الشعرية :

تتكون التجربة الشعرية من عدة عناصر أو مقومات تشترك جميعًا في بلورتها وتكوينها لعل أهمها: الوجدان ،البنية التعبيرية. (الألفاظ والأساليب ، المعاني والأفكار، الخيال ،الموسيقى)

أ- الوجدان ويتفرع من الحديث عنالوجدان عدة عناصر أهمها: الانفعالات

و العواطف و المشاعر، الأحاسيس.

- الانفعال والعواطف:

لا شك أن التجربة تعكس ميول الأديب و توجهاته، وتشف عن نزعاته، وتكشف عن مسلكه، فإذا كان الشاعر صادقًا مع نفسه، جاءت تجربته مرآة مصقولة لعواطفه ومشاعره وأخلاقه.

وتتأثر التجربة بشكل مباشر بقوة العاطفة، فكلما كان الأديب قوي العاطفة ممتلئ الشعور جاءت تجربته محكمة النسيج متماسكة البناء، وكلما عانى تجاربه بنفسه معاناة حقيقية، كلما جاءت خصبة غنية .

وإذا كانت قوة العاطفة تؤثر في نسيج التجربة فإن تنوعها من أهم المقاييس لتمايز شاعر على آخر.

وأهم مقاييس جودة العاطفة :

- الصدق: ويعنون بالصدق، صدق الانفعال ، وصدق المشاعر والأحاسيس، وهناك علاقة قوية بين الصدق الفني في التجربة وشخصية الشاعر^(١).

وإذا عرضنا شعر الخضر على مقاييس العاطفة رأينا أن جل شعره ما هو إلا مجموعة من التجارب الحية والمتنوعة، والتي تتسم في مجملها بالسمو العاطفي والصدق الفني ويجليها أيضًا عاطفة قوية منبعها نفس الأديب وقوة شعوره بالحدث.

وتبدو قوة العاطفة أكثر ما تبدو في شعر الطبيعة و شعر الحنين إلى الوطن، وفي تصوير حاضر الأمة وشدة

(١) د/ محمد طه عصر- النقد الأدبي وأزمة الهوية ص ٥٩ الطبعة الثانية ٢٠٠٢م.

أسفه على واقعها الأليم، وفي رثائه زوجها، والتي كانت له المؤنس في الغربية، والصديق في الوحدة.
يقول مصوراً شوقه وحنينه إلى وطنه^(١).

أَسْرَبَ القَطَا والبَيْنُ أَقصى مغانينا
أَحِنُّ إلى المَغْنَى الأنيسِ وأَيْقِي
أَعْرَنِي جَنَاحًا فالْمَسَالِكُ وَغَرَّةٌ
أَعْرَنِي جَنَاحًا كي أَلَم بجيرة
فقال: أَعِشْتَ الدَهْرَ في رأسِ شاهِقِ
من الأنسِ أسرابٌ تطير كأنها
وَكُنْ طائرًا لا يستعيرُ قوادِمًا

تمليت أنسا في رباها لياليا^(٢)
تجوب لمقاه القرى والفيافيا^(٣)
وأخفاف تلك العيس أمست دواميا^(٤)
وشمس تهادي في السماء كما هيا
وما زلت عن مجلي الحضارة نائيا^(٥)
بُروقُ إذا مَرَّتْ تشق الـدياجيا^(٦)
إذا رام مَغْنَى قاصيا أو خوافيا

ورغم أن الصورة تقليدية، فقد عكست مشاعر صادقة وعاطفة قوية مشبوبة إلى أهله وذويه ووطنه الأول، وأبانت عن شعور صادق وحنين جارف إلى تلك الطبيعة الصافية الغناءة، فلشدة شغفه بطبيعة وطنه، يرى أن طلوع الشمس عليه أجمل من طلوعها على غيره، ونلاحظ هذا الاقتضاب في ختام القصيدة والذي يناسب اقتضاب نفسه وعدم أريحيته لما هو عليه، والمعاني واضحة، يقف المتلقي لأول وهلة على ما يتغياها منها، وكثير منها يمتد بجذوره نحو الماضي، فاستعارة الجناح من سرب القطا صورة تقليدية قديمة^(٧).

ولعل من أهم مقاييس العاطفة أيضًا استمرارها وثباتها، ومعنى ثباتها أن يبقى أثرها في النفس زمنًا طويلاً وأن تثير في النفوس شعورًا متجانسًا.

وباستقراء ديوان الشاعر والتملي في تجربته تبين أن عاطفته تتسم بالصدق والثبات والسمو أيضا،

(١) الديوان ص ٢٤٧.

(٢) السرب: بكسر الراء وسكونها، جمع أسراب، الجماعة من الطير والحيوان. المغاني جمع المغنى: المنزل.

(٣) الفيافي جمع الفياف: الصحراء الواسعة المستوية.

(٤) وعَرَّ الطَّرِيقُ: صَلَّبَ وَصَعِبَ السَّيْرُ فِيهِ. العيس: جمع عيس وعيساء: إبل بيض يخالط بياضها شقرة، وهي كرائم الإبل.

(٥) المَجْلَى. يقال أجلي الأمر: أى أظهره وكشفه، والمعنى الأقرب لمراد الشاعر - والله أعلم - أي أتعيش في مهد الحضارة - مصر - بعد أن

عشت في البداوة قبل ولا زلت نائيا وراغبا عنها؟ وقد وَصَّحَ من اعتنى بالديوان "الأستاذ / على الرضا الحسيني" أن المقصود بكلمة المجلى:

مقدمة الرأس، ولا يستقيم معنى البيت على ما وضعه الشارح.

(٦) الـدياجي جمع دجية: الظلمات.

(٧) من ذلك قول العباس بن الأحنف:

أَسْرَبَ القَطَا هل مِنْ يعيرِ جَنَاحَهُ لَعَلِّي إلى مَنْ قَدْ هَوَيْتُ أُطِيرُ

ديوان: العباس بن الأحنف، شرح وتحقيق، عاتكة الخزرجي، ص ١٤٣، مطبعة، دار الكتب المصرية، القاهرة، الأولى

١٣٧٣هـ، ١٩٥٤م. وينظر ديوان الشاعر "خواطر الحياة" ص ٢٤٧.

ويراد بالسمو أن تسعى تلك العاطفة إلى تربية النفوس على الفضيلة، ومداواة المجتمع من أمراضه وأدراجه وتأخذ بتلابيبه إلى طريق الخير والصلاح والجمال.

وإذا كان شعراؤنا القدامى قد بينوا الكثير من بواعث الشعر من الطرب، والغضب، والشراب والمكان الأخضر الحالي، والماء الجاري، والشرف العالي، والحب والشوق، كما أثر عن كثير عزة حين سئل: لم تركت الشعر؟ قال^(١): ذهب الشَّبَابُ فما أعجب، وماتت عَزَّةُ فما أطرب، ومات ابن أبي ليلى فما أرغب، يريد عبد العزيز بن مروان وقالوا: أشعر الناس النابغة إذا وهب، وزُهير إذا غضب، وجَرير إذا رغب. فقد توافر لشاعرنا الكثير من الدواعي أو البواعث لقول الشعر.

وقد استطاعت تجربة الخضر أن تؤثر فينا وتقنعنا بما يراه ويؤمن به، بما حقق لها من الصدق والإخلاص ووضوح الفكرة، فهي تجربة حية صادقة مفعمة بالأحاسيس والمشاعر الجياشة تجربة نفس أنهكها الجوى وأتعبها ما عليه الواقع الإسلامي من تخاذل و ضعف في كثير من جوانبه.

اسمعه يقول مصورًا طبيعة المحتل ونواياه الخبيثة^(٢).

يد المحتل تسعدنا على أن	نروض الفكر بالسهر الدراك
وتوقظ للعظماء رُمح عمرو	إذا أزرى بنا رُمح السماك ^(٣)
يثير ببغيه في كل يوم	حفائظ مُضهدٍ وصراخ شاكي
يقول: أجيُر قومك من هلاك	ورفع لوائه عَيْنُ الهلاك
يوارب إذ يُعاهدنا مسيرًا	مآرب في دهاءٍ واحتباك ^(٤)
عهد إن توسمها أريب	رأى الغربان تنعب في صكاك ^(٥)
فما للشرق يرسف في وثاق	وهذا الغرب يمرح في فكاك
هما شطران في بيتٍ وبُعْدًا	لشعر غير ملتئم الحياك ^(٦)
طباب الشرق في خطرات شهم	وجمر حماسة في القلب ذاك

(١) العقد الفريد، أحمد بن عبد ربه الأندلسي، تحقيق، عبد المجيد الترحيبي ص، ١٧٥، الجزء / السادس، دار الكتب العلمية بيروت، ٢٠٠٦م.

(٢) الديوان ص ١٦٩.

(٣) نسبة إلى عمرو بن معدي كرب بن ربيعة فارس اليماني يضرب المثل برمحه وسيفه - أزرى: عاب - رمح السماك: في السماء وهو نجم يقدمه نجم مستطيل الشعاع يقولون هو رمحه.

(٤) يوارب: يداهي - الاحتباك: إحكام الأمر وإتقانه.

(٥) الصكاك: جمع صك وهو الكتاب.

(٦) الحياك: النسيج.

فالشاعر نقل إلينا طبيعة الحراك الغربي، وما يرمي إليه من تمزيق شمل الأمة الإسلامية، وإحداث الشقة بين أفرادها، وليس لهذا المرمى إلا الحرب، يحمل لواءها رجال أقوياء أشداء على الكفار، تغلي مراجلهم حنقا وغيظا على عدوهم.

وبعد

فقد أبانت الدراسة عن تمتع الشاعر بعاطفة قوية مكنته من التفاعل والتجاوب بالأحداث تجاوبًا يعكس خفايا النفس، ومشاعر إنسان عاش حلمًا مات دون تحقيقه، حلم الحرية والعيش على أرض الوطن.

ب- البنية التعبيرية وتتمثل البنية التعبيرية في التجربة الشعرية في عدة عناصر أهمها:

(الألفاظ والأساليب، المعاني والأفكار، الصور والأخيلة، الموسيقى)

وسنتناول كل عنصر من هذه العناصر على حدة بما يكشف عن سماته وأهم خصائصه.

أ- الألفاظ والأساليب

الشكل في مفهوم النقد الحديث يعني الصورة الخارجية، أو هو الفن الخالص المجرد عن المضمون والذي تتمثل فيه وتحقق من خلاله شروط الفن الأدبي، سواء أكان قصيدة غنائية أم قصة مروية أم مسرحية، فإذا حكمنا على الشكل حكمًا ينحصر حول الوزن والموسيقى، والصورة الشعرية، والصياغة الفنية، ومما قد يتحقق من خلال ذلك من جمال أو انسجام في الوحدة أو تناظر في الأجزاء، وبالجملة كل ما يتصل بالعنصر الشعري الغنائي في القصيدة وصياغته وأسلوب تصويره. أما المضمون أو المحتوى فهو " كل ما يشتمل عليه العمل الفني من فكر أو فلسفة أو أخلاق أو اجتماع أو سياسة أو دين"^(١).

" ومعظم الشعراء والنقاد يرون أن من الضروري في الأدب إجادة الصياغة، وجمال السبك ولا يرون المعنى وإن سما مستغنيا عن الصوغ الجميل"^(٢)

و يرى د / على صبح أن دقة التركيب و صياغة النظم، و انسجام الكلمات هو الذى يؤثر تأثيرا حقيقيا في الصورة الأدبية، فهي تتألف من حسن مواقع الألفاظ في النظم ووضع كل جزء في موضعه الملائم من الجمل ووضع الجملة في موضعها المناسب من النظم الذى تتبع منه الصورة قوية واضحة مؤثرة^(٣)

وإذا كانت اللفظة بما تحملها من معنى معجمي تعبر عن معنى ذاتي يريده الشاعر، وتتأزر مع غيرها لأداء فكرة ما؛ فإن الخضر كان دقيقًا في اختيار ألفاظه، وقد وفق إلى حد كبير في اختيار أدق الألفاظ وأدلها على أداء المعنى، فاللفظ عنده يحمل شحنات عاطفية وشعورية عالية، ويعبر بوضوح عما يريده

(١) قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث د/ محمد زكي العشماوي ٢١٩، ٢٢٠ دار الشروق الأولى ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.

(٢) ينظر أسس النقد الأدبي عند العرب، أحمد بدوي، ص ٣٦٤.

(٣) المرجع نفسه ص ٦٣، ٦٤.

الشاعر من معنى، والكلمة في الصورة عند الخضر تتسم بـ:

-الجزالة ، وهذا هو السرّ في سحرها ووقعها وتأثيرها على النفس. اسمعه يقول ردًا على من يلومه في بعده عن وطنه ورضاه بالعيش في مصر وحيدًا بعيدًا عن أهله وذويه^(١).

رَضِيْتُ عَنْ اغْتِرَابِي إِذْ لَحَانِي	فَتَى لَا يَنْظُرُ الدُّنْيَا بَعِينِي
يَقُولُ: تَقِيمُ فِي مِصْرٍ وَحِيدًا	وَفَقْدُ الْأَنْسِ إِحْدَى الْمَوْتَيْنِ
أَلَا تَحْدُو الْمُطَيِّبَةَ نَحْوِ أَرْضِ	تُعِيدُ إِلَيْكَ أَنْسَ الْأَسْرَتَيْنِ
فَقُلْتُ لَهُ: أَيُّهَا لِي إِيَابٌ	وَتِلْكَ الْأَرْضُ طَافِحَةٌ بَغِينِ
وَمَا غَيْنَ الْبَلَادِ سِوَى اعْتِسَافِ	يَدْنُسُهَا بِهِ خَرِقُ الْيَدِينِ ^(٢)
فَعَيْشُ رَافِهِ فِيهَا يُسَاوِي	إِذَا أَنَا سُمْتُهُ خُفِي حُنِينِ ^(٣)

فكلمة "طافحة" في البيت الأول في معناها الحسي تعني تمام الامتلاء ويقصد بها كمال سيطرة العدو على أرضه، والغين لغة في الغيم، والمعنى الحسي للكلمة يوحي بالضبابية وعدم الصفاء والتي يحدث حالة من الاكتئاب والحزن، كما توحى بامتلاء النفس بمشاعر الحنق والغیظ تجاه هذا المستعمر الذي يسوم أبناء الوطن سوء العذاب .

وكلمة "اعتساف" في البيت الثاني والتي تدل على ركوب الأمر من غير رويّة، يقصد بها الشاعر هذا العدو الغاشم، وقد عكست ما في نفسه تجاه هذا المستعمر، وأنه ركب مركبًا صعبًا إذ أن أهل المغرب ، أشداء مغاوير لا يقبلون الضيم ، ولو أن الشاعر اختار لفظة أخرى تؤدي معناها لما استطاعت أن تؤدي ما تغياه الشاعر .

وهكذا كان الخضر يضيفي على الكلمة دلالات فوق دلالتها المعجمية.

كان معنيًا بالكلمة في السياق الشعري أو النسق أكثر من عنايته بها كلفظة مفردة تحمل معنى معجميًا فكان يراعى موقعها في الجملة، ثم دلالتها في البيت، ثم ما تعكسه من دلالة إضافية على الصورة العامة، وهو يملك حاسة تمكنه من التقاط أنسب الكلمات وأنسب جوار أو نسق أو نظم. هذا . وإن اتسمت ألفاظه بالجزالة فلا يحول ذلك دون سهولتها وعذوبتها ، خاصة في موضوعات شعر الطبيعة ، الشعر الاجتماعي ومن خصائص اللفظة عند الخضر أيضًا:

(١) الديوان ص ٢١٨ ، ٢١٩ .

(٢) الغبن: لغة في الغيم وفيه تلميح إلى الاستعمار الفرنسي آنذاك.

(٣) خفي حنين: إشارة إلى المثل " رجع بخفي حنين " .

- تراؤها في المدلول الشعري. اسمعه يقول في مدح أولي النخوة والنجدة في الشرق: (١)

إِنَّ أَسْنَى الْمَجْدِ فِي شَعْبٍ سَامَهُ الْخَصْمُ أَدَى لَا يَسْتَكِينُ
وَقَفُوا يَرْمُونَ أَعْدَاءَ الْهُدَى بِنِبَالٍ قَوْسُهَا الْعِلْمُ الْمَتِينُ
يَعشِقُونَ الْبِذْلَ فِي الْخَيْرِ إِذَا عَشِقَ الْمَالُ طِفْغَامَ (٢) مُؤَسَّرُونَ

لفظة يعشقون: تعكس شعوره المفعم بالخواطر الجميلة والمشاعر النبيلة تجاه هؤلاء الشجعان المغاوير الغيورين على أوطانهم، الذين يجودون بالطريف والتلديد في سبيل إحقاق الحق، ونشر العدل وتحقيق الحرية، لذا آثر لفظة " يعشقون " على لفظة " يحبون " مثلاً- وكان البذل في وجوه الخير ومصلحة الوطن غاية يسعى إليها الرجل ، فهو شغوف بها لذا فالتفريط فيها أمر مستبعد.

ويقول أيضا مصورًا طبيعة الغواة ومن يتبعون أهواءهم ،ومسلكهم المشين الذي يؤدي حتما إلى الشر والهلاك. (٣)

رَأَوْا فِي كَفِّهِ ذَهَبًا فَطَاشُوا إِلَيْهِ وَطَالَ بَيْنَهُمُ الْهَرَّاشُ (٤)
كَأَنَّ النَّبْرَ نَارًا فِي ظِلَامٍ وَهُمْ مِنْ حَوْلِ صَفْرَتِهِ فَرَّاشُ
يَدَارُ الْغِيِّ بَيْنَ يَدَيْهِ صِرْفًا فَتَغْمَزُ الْبِشَاشَةَ وَالْهَشَّاشُ (٥)
وَإِنَّ مَرَّ الرَّشَادُ بِهِ تَثْنَت وَكَشَّتْ تَحْتَ بَرْدَتِهِ رَقَاشُ (٦)
لِحَا اللَّهِ الْغَوَايَةَ مِنْ طَرِيقٍ يَنَالُ بِهِ طَعَامَ، أَوْ رِيَّاشُ

فاللفظ في المقطوعة مشاكل للمعنى الذي يقصده كما قال المرزوقي " دقة اللفظ في أداء معناه " وهذا يدل على مقدرة الشاعر على أن ينقل الفكرة إلى المتلقي " (٧)

فالكلمات " طاشوا، الهراش، فراش، هشاش،" كلمات دقيقة موحية تحمل شحنات عالية من الوصف والتصوير، وكان اعتماد الشاعر الأول في تصويره ما تعكسه هذه الألفاظ من الهيئة والحركة.

فالفعل "طاشوا" يحمل معنى الخفة والنزق والرعونة، يقال طاش عقله أي خف وتشتت فجهل أو أخطأ،

(١) الديوان ص ٢١٧.

(٢) طغام: أوغاد الناس.

(٣) الديوان ص ١٢٢.

(٤) الهراش: الخصام والقتال وهو مستعار من هراش الكلاب.

(٥) الصرف: الخالص -الهشاش: الارتياح والخفة والنشاط.

(٦)كشَّت: عَضتْ بغيرها وانتزعت -الرقاش: الحية.

(٧)شرح ديوان الحماسة، أبي علي أحمد بن الحسن المرزوقي ح ١، ص ١١، تعليق الأستاذة /غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ٢٠٠٣م.

وهذا ما أراده الشاعر من دلالة الفعل، وكذلك كلمة "الهراش" والتي تعني المخاصمة والقتال يقال تهاششت الكلاب وهاششت أي تحرش بعضها على بعض وتواششت.

وإذا كان صدر البيت الأول يصور موقف السفهاء تجاه المادة وشهوة المال فإن الشطر الثاني يعكس ما يحدث بينهم من التخاصم والتقاتل والتهاش من أجل المادة.

وقد عكس التشبيه في البيت الثاني خفة هؤلاء الغواة ونزقهم فهم كالفرش الذي يحوم حول النار ويقتحمها غير آبه بخطرها وما تجره عليه من هلاك ودمار.

ويأخذ الخضر بمجامع المتلقى إلى حانوت الغواة، وكأنه يقول له إن كنت في شك من قلبي فانظر إلى هؤلاء الغواة، إذ تراهم في أشد الارتياح لمجلس الغواية، فإذا نصحهم ناصح تراهم كالحية الرقشاء، ينثنى الواحد منهم منكراً عليك قولك، بل قد يؤذيك بلسانه.

والكلمات تحمل في طياتها الكثير من الإنكار، والتعجب من شأن هؤلاء، وما دام هذا شأنهم فليس بمستغرب أن يصفهم بصفات الحيوان تارة، والحشرات أخرى، وإذا كانت الصورة تحمل توصيفاً دقيقاً لهؤلاء فهي تحمل دعوة صريحة بالبعد عن مسلكهم، وهذا ما لخصه البيت الأخير، وتعكس شعوراً نفسياً يفيض بالتعجب والإنكار.

فالوصف في تجربة الخضر استطاع أن يحكي الموصوف حتى ليكاد يمثله عياناً للمتلقى، ومن دلائل حسن التلاؤم بين اللفظ والمعنى، هذا الوزن الشعري "الوافر" والذي هو "ألين البحور يشد إذا شدته ويرق إذا رققته، وأكثر ما وجود به النظم في الفخر، وفيه تجود المراثي، وليس في جميع بحور الشعر بحر نظيره يصح للتصرف بجميع المعاني^(١). ومن المعروف أن قوة اللفظ تدل على قوة المعنى فذكر ابن جني أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نقل إلى وزن آخر أكثر منه فلا بد أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولاً "فهشاش" "أبلغ دلالة من "هش"، و"هراش" "أبلغ دلالة من "هرش" لما فيه من تتوين ولا شك أن في ذلك ضرباً من التوكيد.

واللفظ عند الخضر - في معظمه - يسري في سهولة رقراقة، وينقل مشاعره في عذوبة وتحدر، لذا نجده قد خامر نفس المتلقى وكأن بينه وبينه أواصر قربي، فسرعان ما يؤثر فيه، فهو ليس مجافياً لطبعه واللفظ بهذه الصورة يأخذ بتلابيب السامع

يقول في صديقه محمد الطاهر بن عاشور معبراً عن حبه له^(٢):

أَحْبَبْتُهُ مِـلَاءِ الْفُـؤَادِ وَإِنَّمَا أَحْبَبْتُ مِنْ مِـلَاءِ الْوُودَادِ فُـؤَادَهُ

(١) معالم العروض والقافية، الدكتور عمر الأسعد - ص ٣٨، العبيكان، الثالثة، ١٤١٦ هـ ١٩٩٦ م.

(٢) الديوان ص ٧٧.

فَظْفَرْتُ مِنْهُ بِصَاحِبٍ إِنْ يَدْرٍ مَا أَشْكُوهُ جَافِي مَا شَكُوتَ رِقَادَهُ
وَدَرَيْتُ مِنْهُ كَمَا دَرَى مِنْي فَتَى عَرَفَ الْوَفَاءَ نَجَادَهُ وَوَهَادَهُ^(١)

فالألفاظ تسري في عذوبة كعذوبة الماء ، وتحمل مشاعر فياضة تجاه الصديق الذي يحمل صفاء النفس، وصدق الود .

- تمكنه في مكانه من جملة سمات اللفظ عند الخضر، تمكنه في مكانه، فتجد أن اللفظ عنده بينه وبين ما يحمله من معنى اتفاق حسن ، وتلاؤم واضح بين الكلمة وجاراتها، فتراه يعلل الحمرة التي تعلو الأفق في الغروب تعليلاً خيالياً لا يخلو من الجدة والطرافة فيقول:^(٢)

هَذَا الدُّجَى اغْتَالَ النَّهَارَ وَدَسَّهُ تَحْتِ التُّرَابِ مُضْرَجًا بِدِمَائِهِ
مَا حُمِرَةَ الشَّفَقِ الَّتِي تَبْدُو سَوَى لَطِخَ مِنَ الدَّمِ طَارَ نَحْوَ رِدَائِهِ

فالصورة التي بين أيدينا صورة طريفة ، ألقى عليها الشاعر من مشاعره وشاعريته الكثير من الظلال والألوان، فكان لها نصيب وافر من الحيوية والحياة، وفي اعتقادي أن هذه الصورة - وغيرها الكثير - مما تضمنه ديوانه سيكتب لها الخلود والسيرورة، ولم تتمتع الصورة بكل هذه الخصائص إلا بحسن نظمها وجمال نسقها وحسن تجاورها ، وكذلك هذا الخيال الملحق الذي يلتقط الجزئيات ويصنع منها نسيجاً أخذاً يأخذ بمجامع النفس والحس معاً. وإذا جمعنا خيوطاً عن سمات هذه الصورة في تجربة الخضر، فأول ما نلقاه هنا هو حسن اختيار الشاعر لألفاظه، فقد أثر لفظة الدجى على الليل ، وكلمة اغتال على قتل ، والتي تصور هجوم الليل على النهار، وكأن بينهما مصارعة نتيجتها الحتمية مصرع أحدهما، فإذا كانت الغلبة ليل على هذا النحو فليفعل بقتيله ما يشاء، وها هو لم يرضه مصرعه بل وراه في التراب حتى ينمحي أثره، ثم يعلل ما يوجد بالأفق من حمرة في وقت الغروب تعليلاً منطقياً جميلاً فما هذا البادي في الأفق من حمرة إلا بقع من دماء النهار .

فالصورة على وجازتها عكست شعوراً قوياً، وأوحت بوجودان شاعر تمتلئ نفسه بمشاعر الأسي والحزن، فجاءت الصورة سوداوية يعلوها القتامة والحزن ، وقد تآزرت عناصر الصورة من الحركة المتمثلة في عملية الاغتيال والموارة، واللون ويمثله النهار بنوره والدجى بظلمته، والتراب بقتامته وعتامته، والدم بلونه الأحمر القاني، واللطخ ببقعه التي تنتشر على جانبي الأفق، والحجم والمتمثل في اللطخ أيضاً .

قد يأتي الشاعر بألفاظ قديمة بيد أنها واضحة الدلالة لا تحتاج لبيان معنى - الكثير منها- للرجوع إلى

(١) النجاد: جمع نجد وهو ما ارتفع من الأرض-الوهاد: جمع الوهد الأرض المنخفضة.

(٢) الديوان ص ١٩ .

كتب اللغة، ويضطره إلى هذا ضرورة القافية أحياناً، وقد يكون ذلك راجعاً إلى رغبته في إظهار تمكنه من اللغة، وإمهار مقدرته اللغوية وبيان غزارة علمه وسعة اطلاعه أيضاً، اسمعه يقول في صقر قريش: (١):

حَدَّقَ الصَّقْرُ بَرَأِي لَا عَجَلَ لَا حَسِيرِ
وَانْبَرَى يَطْوِي الْفَلَاحَ يَطْوِي الْأَمَلَ فِي الضَّمِيرِ
كَمِي فَرَّ مِنْ وَقَعِ الْأَسْلِ لِيُغَيِّرَ

فالكمي: الشجاع أو لايس السلاح، والأسل: الرماح، والفلا: القفر والخلاء - وجميعها كلمات وإن كانت فصيحة فهي تراثية قديمة، تضرب بجذورها نحو العصر الجاهلي، ويقول أيضاً (٢):

يَا مُكَبَّأً بَيْنَ ظَبِيٍّ أَدْعَجَا وَمَهَاةٍ (٣)
إِنَّمَا الْهَمَّةُ فِي حَجْرِ الْحَجَا كَالنَّبَاتِ
أَفَلَا تَنْزِلُ إِذْ تَقْضِي الدُّجَى فِي سُبَاتِ
فَإِذَا بَتَّ تُجَارِي الْكُوكَبَا فِي مَجَالِ
كُنْتُ كَالضَّرْعَامِ يَمْشِي الْهَيْدَبَى لِلنَّزَالِ

مَا لِهَذَا السَّمَهْرِيَّاتِ فَخَارٍ فِي الْحِرَابِ
غَيْرُ عَزْمِ هَرَّةٍ حَامِي الذِّمَارِ بِالتَّهَابِ
أَتَرَى الرَّامِحَ ذَا قَلْبٍ يَغَاظُ فِيهِ الْهَابِ
جَرَّ فِي الْأَفَاقِ رُمَحًا سَلْهَبًا بِاخْتِيَالِ
وَهُوَ كَالْأَعْزَلِ لَا يَلْقَى الظُّبَا وَالْعَوَالِي

فمشي الهيدبي. نوع من مشي الخيل فيه جد، والضرعام: الأسد، والسمهريات: جمع السمهري، وتعني الرمح الصلب، والحراب جمع الحرابة وهي آلة دون الرمح، والرامح نجم - والسهلب الطويل. ويشير د/ عبد القادر القط إلى تأثر الشعر العربي الحديث بالشعر القديم قائلاً: (٤)

(١) الديوان ص ١٧٨.

(٢) الديوان ص ١٧٣، ١٧٤.

(٣) أدعج: شدة سواد وبياض العين - المهاة: البقرة الوحشية.

(٤) الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، د عبد القادر القط، ص ٣٩١، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، الثانية، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م.

"ويلاحظ الدارس في هذا المجال؛ أن الشعر العربي مهما يوغل في التجديد، يظل مرتبطا على نحو ما ببعض المظاهر الفنية في تراث الشعر العربي القديم".

ويقول في موضع آخر: "... ومع بعد العهد بالشعر الجاهلي واختلاف ظروف النشأة بينه وبين الشعر في العصور التي تلته فقد ظل له سلطان عجيب على الشعر العربي القديم والحديث، حتى لنجد بعض آثار باقية في الشعر الحر".

وبالجملة فأهم ما تميزت به الألفاظ عند شاعرنا، سهولتها، وجزالتها، وشدة تماسكها، وفخامتها في نفس الوقت، نأى بها عن الغريب والحوشي والتنافر، وإن حوت بعض الكلمات القديمة، ولا غرو فالخضر عمل بالتدريس وأتقن فنون العربية فعلم وألف ونظم بها شعرا رقيقا. وصدق الأستاذ عبد الله لالي حين قال عن شعره^(١): "إنه لعمرى لذو لفظ أنيق، و معنى رشيق .. وحكمة بليغة ومثل سائر، وصور رائعة وفن من الإبداع فريد. ولو أنه تفرغ له وأكثر من الكتابة فيه لفاق كثيرا من أقرانه وبزهم بزا.. "

- الأساليب

للأسلوب في تجربة الخضر العديد من الخصائص، التي تعكس ثقافة الرجل، وتعبر عن فكره، وكما يقال "الأسلوب هو الرجل" ولعل من أهم هذه الخصائص :

جزالته ورسالته:

والأسلوب الجزل كما عرفه صاحب الصنائع: " هو الذي تعرفه العامة إذا سمعته ولا تستعمله في محاوراتها"^(٢) ولا يمنع من وصف الأسلوب بالجزالة احتوائه على بعض الكلمات القديمة فرغم احتواء أسلوبه على كثير من الكلمات القديمة - كما بينا - إلا أنه ظل جزل العبارة متين اللفظ شديد التماسك قوي المعنى، واضح الدلالة، تعلوه مسحة من الحلاوة والرونق، لأن الكلمات فيه تجري بانسيابية وسلاسة، إذ نأى فيه صاحبه عن استعمال الألفاظ السوقية والحوشية والتي تؤدي إلى غموض المعنى وإبهامه، ويمكن للقارئ الرجوع لأي من قصائده ليقف على صحة الاستنتاج.

- كثرة الصيغ الإنشائية

يختلف الأسلوب التعبيري للشاعر باختلاف الموضوع الذي يعالجه والموقف الذي استدعى القول فيه، ومن أجل ذلك تنوعت الأساليب اللغوية والبلاغية في النص الشعري في تجربة الخضر، فقد راوح في أسلوبه بين الخبر والإنشاء، وهذا التراوح من شأنه أن ينفى السامة عن السامع، ويبعث في القصيدة روح الحياة والحيوية، فقد اعتمد الأسلوب الخبري في مواطن التقرير والتأكيد للحقائق، وعكس هذا الأسلوب الكثير من

(١) قراءة في (ديوان خواطر الحياة) للشيخ العلامة محمد الخضر حسين بقلم: عبد الله لالي، مدونة أحمد طوسون أدب وثقافة.
(٢) كتاب الصنائع (الكتابة والشعر)، أبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق د مفيد قميحة، ص، ٦٢. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٨م.

الدلالات كدلالة الفخر ودلالة التحسر والتأسف والتحزن.... الخ، كما في قصيدته " إي فلسطين" والتي أخبر فيها عن ماضي فلسطين الزاهر المشرق وحاضرها المتردي المؤسف، والتي قال في مطلعها: (١)

نَصَبَ البَغَاةُ عَلَى ذَرَاكَ لِيَوَاءُ وَكَسَّوْا مِرَابِعَكَ الحِسَانَ دَمَاءَ

ودلالة الفخر كما في مقطوعته "على لسان قلم ناضل عن حق" (٢)

سَفَكَتْ يَدِي فِي الطَّرْسِ أَنْمُلُ كَاتِبٍ وَطَوَّتَنِي المِبْرَاةُ إِلا مَا تَرَى (٣)

نَاضَلْتُ عَن حَقِّ يُحَاوِلُ ذُو هَوَى تصَوِيرَهُ لِلنَّاسِ شَيْئًا مُنْكَرًا

لَا تَضْرِبُوا وَجْهَ النَّزْرِ بِبَقِيَّةِ مِئِّي كَمَا تُرْمِي النَّوَاةُ وَتُزْدِرِي

فخزائهُ الأُسْتَاذِ نَيْمُورَ اَزْدَهَت بجلَى من العِرْفَانِ نُبُهْرُ مَنْظَرَا

فَأَنَا الشَّهِيدُ وَتلكَ جَنَاتُ الهُدَى لا أَبْتَغِي بِسِوَى ذُرَاهَا مَظْهَرَا (٤)

كما يعكس الأسلوب الإنشائي الكثير من المعاني، كالتعجب والإنكار والتقدير والتأكيد والتمني، الخ، وهذا كله يعكس نفسية الشاعر.

وما دامت حياة الخضر مليئة بالأحداث الجسام التي تحرك المشاعر، وتؤثر على الحالة النفسية، فأوفق الأساليب وأليقها بتصوير حاله هو الأسلوب الإنشائي، فالشاعر يعيش على أرض غير أرضه، وفي وطن غير وطنه، فليس من الحكمة _وهو الشاعر الحكيم_ أن يتتبع أخبار الحكم والسياسة، ويعمل من شعره أداة إعلام ورصد للأحداث وهذا يوقعه بالضرورة في حرج هو عنه في غنى، وقد ابتلي الرجل بالحبس جراء الإفصاح وتحريك المشاعر ضد المستعمر.

وما دام الشاعر يحمل رسالة إسلامية ترمي إلى توعية أبناء وطنه وحملهم على السعي الحثيث للأخذ بأسباب القوة والمنعة، لردع العدو، وما دام الشاعر قد عانى التدريس وسبر أغوار النفس، ووقف على أوفق الأساليب وأليقها للتعبير عما يعتور النفس من ألم وحيرة وقلق، إذن فليكن الأسلوب الإنشائي هو الأكثر بروزا ودوراناً، بل إن سيادة الأسلوب الإنشائي في تجربة الخضر أمر مسوغ ومقبول، بل هو الأوفق والأكثر ملائمة لحال العصر، ولحاله القلقة التي تأسى و تكاد تميز من الغيظ كأنها مرجل، وهذا ما يمنحه الأسلوب الإنشائي للنص من تدفق يتساقق وحالة النفس القلقة التي كثيرا ما تستفهم تعجبا

(١) الديوان ص ٩.

(٢) الديوان ص ١٠٥.

(٣) سفكت : صبت - الطرس: الصحيفة.

(٤) الذرى: جمع ذروة والذروة من الشيء أعلاه

وتأمر وتتهى التماسا وتتادي ولها وحيرة. وإذن أيضا" فليختف الهمس أحيانا ولتعلو نبرة الخطاب، تلك النبرة التي تجعله أكثر قدرة على استثارة المشاعر واستنهاض العزائم".^(١) ومن صور الإنشاء عنده - الاستفهام.

والاستفهام أداة مواتية للتعبير عن تحسر الشاعر، واضطرابه النفسي وهيجان عاطفته، وقد احتلت الهمزة - من بين أدوات الإنشاء - الصدارة - ولعل ذلك لكون الهمزة أوسع استعمالا وتصرفا من بقية الأدوات، إذ قد تحذف ولا يؤثر ذلك على سياق الكلام أو تغير في مضمونه، وهي أيضا يمكن الاستفهام بها للعاقل وغير العاقل.^(٢)

وللاستفهام في تجربة الخضر العديد من الدلالات والتي يمكن تحديدها وفهمها بسهولة من سياق الكلام. وما جاء من الاستفهام في تجربة الخضر قد انصرف - معظمه - إلى معان أخرى غير المعنى الحقيقي، وهذه المعاني ألصق بتصوير الكثير من أحوال النفس من حسرة وألم، وتعجب وتوجع، ونحو ذلك.

فمن الاستفهام التعجبي قوله^(٣)

أَهْذِي تَحَايَا الْوَدِّ وَالْبَرْكَاتِ أم الرَوْضُ يُهْدِي أَطْيَبَ النَّفَحَاتِ؟

ومن التقريري نجد قوله :^(٤)

أَرْقُ وَهَلْ يَبْغِي الْقَرِيحُ سِوَى السُّبَاتِ وَالْقَلْبُ خَفَّاقٌ كَقَادِمَةِ الْقَطَاةِ^(٥)
لَا تُرْهِقْنِي يَا حَيَاةَ ضَنْئِي أَمَا يَكْفِي خُطُوبٌ كَالْأَسِنَّةِ فِي اللَّهَاءِ^(٦)

ومن الإنكاري التوبيخي نجد قوله^(٧):

أَغَاظَ الْحَسُودَ الْخِبُّ أَنْ بَتُّ مُقْبِلًا بِفِكْرِي عَلَى عِلْمٍ بَدِيعِ الْمَبَاحِثِ^(٨)

(١) البنية الفنية لشعر الفتوحات الإسلامية في عصر صدر الإسلام، حسين علي عبد الحسين الدخيلي، ص ٦٠، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان الأردن، رقم الإيداع ٢٦١٨/٧/٢٠١٠.

(٢) المرجع نفسه ص ٦١.

(٣) الديوان ص ٤٧.

(٤) الديوان ص ٥٠.

(٥) القريح: الجريح - القادمة: ريشات في مقدم الجناح

(٦) اللهأة: اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم.

(٧) الديوان ص ٥٣.

(٨) الخب : الخداع

وقد يتناغم أسلوب الأمر مع النهي، وتوحد الأساليب الإنشائية في بوتقة واحدة لتبين طبيعة الزمان وتقلباته، فيقول: (١)

لا تَغْلُ فِي مَرَحٍ إِذَا بِسَمِّ الزَّمَانِ وَرَحَبَا
وَتَأْتُهُ بِتَجَاوِدٍ مَهْمَا جَفَاكَ وَقَطَّبَا

هُوَ إِنْ تَصِفُهُ مُشَبِّهًا: كَالْمَنْجِنُونَ تَقَابًا^(٢) وَمِنْ
الأمر المراد به الاستعذاب قوله: (٣)

رُدُّوا عَلَيَّ مَجْدِنَا الذِّكْرَ الَّذِي ذَهَبَا يَكْفِي مَضَاجِعَنَا نَوْمٌ دَهَى حُقْبَا

ويقول مناديا (٤):

يَا رَبِّي تَرْفُلُ فِي حُسْنٍ وَطِيبٍ وَالصَّبَا تَخْفِقُ بِالغُصْنِ الرِّطِيبِ
هَاجَ ذِكْرَكَ شَذَا الأَنْسِ الَّذِي هَبَّ مِنْ أُرْدَانٍ وَأَدِيكَ الخَصِيبِ^(٥)

- تأثرها إلى حد كبير بالقرآن الكريم

من الملاحظ في تجربة الخضر، تأثرها إلى حد كبير بالقرآن الكريم، وهذا التأثر كان - بلاشك - سببا رئيسا في بعد ألفاظه عن الغرابة ومعانيه عن الغموض، والقرآن بهذا يعد رافدا أساسيا من روافد التجربة عند الخضر، بل من روافد الحركة الشعرية المعاصرة بوجه عام، فقد اعتمد الشعراء المعاصرون عليه وأخضعوه لتجاربههم، وهذا يؤكد تفاعل الشعراء مع القرآن في إبداعهم الشعري (٦):

ومن نماذج تأثره بالقرآن قوله: (٧)

وَمَا أَبْرِي نَفْسِي وَالْهَوَى يَقِظُ بَيْنَ الْجَوَانِحِ وَهُوَ الأَمْرُ النَّاهِي

(١) الديوان ص ٣٩.

(٢) المَنْجِنُونَ: الدولاب التي يُسْتَقَى عليها.

(٣) الديوان ص ٤٠.

(٤) الديوان ص ٣٤.

(٥) أُرْدَان: جمع الرदन وهو أصل الكم.

(٦) التناص في نماذج من الشعر العربي الحديث، موسى رباحة، ص ١١، طبعة، أريد، الأردن، مؤسسة حماد للدراسات الجامعية، للنشر والتوزيع.

(٧) الديوان ص ٢٣٤.

متأثر فيه بقوله تعالى " وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ " (١)

ويقول أيضا مصورًا إحدى غارات العدو على تونس وطائرات الاستعمار تحوم فوق ربوعها^(٢):

ولقد نكرتك في ظلامِ آذنت
والطائرات تحوم فوق رؤوسنا
ولو اطلعت على الشّظايا خلتها
فعلمت أنّ نواك أروع للحشا
بخطوبِهِ صَفَاةُ الْإِنْسَانِ
تَرْمِي الخُتُوفَ بيمينَةٍ ويسارِ
شَرَرَ الجَحِيمِ يَطِيرُ كُلَّ مَطَارِ
مِن هَوْلِ مُحْرِقَةِ الجُسُومِ بِنَارِ

فالبيت الثالث، متأثر فيه بقول الله تعالى في وصف جهنم " إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّرٍ كَالْقَصْرِ " (٣)

_ الخطابية

من أبرز الظواهر الأسلوبية في تجربة الخضر "الخطابية" ويعل د/ حسن الهويلم كثرة الخطابية في الشعر الحديث وعند كثير من الشعراء الشباب - خاصة - بالواقع المؤلم والمعاناة الممضة الناتجة عن عنف المواجهة وتجاوزات الاستعمار وتحدياته ثم القلق النفسي والفكري الذي يعتري كثيرا من الشباب ويستطرد قائلا: "...وهذا سبب رئيسي في تحويل التعبير الشعري إلى ممارسات خطابية عنيفة لأن المواجهة الحسية مع الخصم لا تحتل همس والإيحاء وتنتشر المفردة تحت ظلال وارفة من الهدوء والسكينة".^(٤)

وقد تمثلت الخطابية _ بكل شياتها _ في تجربة الخضر فخطاب الأحياء كما خاطب الأموات وخاطب العقلاء، كما خاطب مالا يعقل، وخاطب الفقير كما خاطب الغني.

وكشفت الخطابية عن نفس تتوق الحرية وتألف العيش في ظلها، والأمثلة على شيوع الخطابية في تجربة الخضر كثيرة ومتنوعة، فكثيرا ما استهل قصائده بالأسلوب الإنشائي من نداء ودعاء وأمر ونهي، ليلفت سمع المخاطب وكأنه يهرع إليه ينشد مشاركته ومشاطرته همومه والتخفيف عن آلامه، من خلال هذا الإفضاء بما في النفس من وجد وأسى وكأنه مستغيث مكروب يحتاج لمسعف أو منجد، وهذا الأسلوب كان أنسب الأساليب في التأكيد والإلحاح على وجوب الوحدة والاعتصام والأخذ بأسباب القوة والمنعة.

يقول في مطلع قصيدته "بعض أمراضنا الاجتماعية"^(٥) مستقهما ومستبعدا:

أَيُّغُودُ لِلشَّرْقِ الحَمَاسَةَ وَالإِبَاءَ
فَتَغُودُ عِزَّتَهُ وَيَبْتَهِجُ العِلاءَ؟

(١)، الآية ٥٣، من سورة يوسف.

(٢) الديوان ص ١٠٧.

(٣) سورة المرسلات، آية ٣٢.

(٤) النزعة الإسلامية في الشعر السعودي الحديث والمعاصر، ص ٥٠٠، مطابع الناشر العربي، الرياض ط ١٩٩٩م/١٤١٩هـ.

(٥) ديوانه ص ١٣.

ويقول في مقطوعته "قوس الغمام" ^(١):

أَيْخَفِي ضَمِيرُ الْمَرِّ يَوْمًا وَلَوْ سَمًا
إِلَى الذُّرَّةِ الْقُصْوَى ضَحَى وَدَهَاءَ

ويرى محمد الصادق عفيفي أن موسيقى الأسلوب الإنشائي هي التي جذبت الشعراء إلى اعتناقه والنسج على منواله. ^(٢)

وقد اتضحت الخطابية في شعر الخضر في كثير من قصائده ومقطعاته حتى في عنونتهما من ذلك قصيدته "أي فلسطين" ^(٣) والتي مطلعها:

نصب البغاة على ذراك لواء
وكسوا مرابعك الحسان دماء

وقصيدته "أيها الإنسان" والتي مطلعها: ^(٤)

أما كفاك ظبَاءً أو مَهَّأَ بِرُبِّي
حَتَّى تَقْنَصَتْ آسَادَ الشَّرَى بِرُبِّي

فقد استهلها بالاستفهام الإنكاري التوبيخي

ويكثر الخضر من خطاب مالا يعقل ، و لاشك أن خطاب مالا يعقل يدل على فرط الوله وشدة الحيرة ، وإنما يستحسن هذا الضرب _ كما قال الزوزني " في النسيب والمرثي وما يوجب حزنا وكآبة ووجدًا وصباة ^(٥) وهل بعد هجرة الوطن قسرا ، وضياح كثير من القيم فوق ضياح جزء من المقدمات الدينية كالمسجد الأقصى، وتخاذل المسلمين ونوم العرب عن حقوقهم المسلوبة ما يوجب الكآبة والحزن ؟ فتراه يشخص الجماد ويلقي عليه من صفات الأحياء ، ويحادثه ويشكو إليه ويفضى إليه بخوالج النفس ، ويخاطب الأموات ويبث إليهم همومه وآلامه، وشخص القلم ، والعيد ، والنفس ، حتى المكان الذي يحمل من الذكرى ما يوجب وجدا وصباة ، يقول مخاطبا شاطئ المرسى ^(٦)،

(١) ديوانه ص ١٩ .

(٢) النقد التطبيقي والموازنات، محمد الصادق عفيفي ص ٢، ط ١٣٩٨هـ/١٩٨٧م.

(٣) ديوانه ص ٩ .

(٤) ديوانه ص ٢٧ .

(٥) شرح المعلقات السبع، أبي عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني، ص ٤٦ دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ١٩٧٨م

(٦) الديوان ص ١٨٧، ١٨٨ .

يا شاطئ المرسي إلام هجود
وكن كما كنت لعهد الجدود
يمرح فيك العز بين الجود
فأنت لا تزهي بتلحين حود
يا معهد يثمل فيه الكرام
ببلا مدام

وابتسمت أزهاره في نظام
نهضت تحدو بالنفوس العظام
أقلامك الحرة ترعى الذمام
ببلا مدام

الحوارية

يعد الأسلوب الحوارى من أبرز الأساليب في ديوان الخضر ، ولعل ميل الشاعر إلى اتخاذ الحوار وسيلة للتعبير عن خواطره ، لما يضيفه الحوار من الحيوية والحياة على المشهد، ولما يعكسه من الكثير من المشاعر والخواطر و ما يبرزه من رؤية الشاعر ومنهجه في الحياة ،فوق ما يسهم به الحوار في تنمية الحدث .ويرى بعض النقاد أن هذا الأسلوب ناشئ عن واقعية الشاعر ، إذ نراه يخاطب أناسا يعرفهم فيأخذ منهم ويأخذون منه.(١)

ويعد الأسلوب الحوارى أكثر الأساليب تلاؤما للتعبير عن الأفكار في القصيدة فكثيرا ما نجده يعقد حوارات بينه وبين غيره في شعر محكم البناء متين السبك.

وقد تنوعت حواراته ما بين حوار الأنا و الآخر، فكثيرا ما حاور الشاعر ذاته وهو ما يطلق عليه في النقد الحديث "حوار الأنا" ، ويقصد به "صوت الشاعر وهو يتحدث إلى نفسه أو لا يتحدث إلى أحد" ، وهذا النوع من الحوار يكشف عن صراع داخلي يعيشه الشاعر، فيصور الأشياء المعنوية غير الخاضعة للتصوير الحسى مثل القلق واليأس وما إلى ذلك.

ومن أبرز حواراته من هذا النوع ما حوته قصيدته (أعمار زائفة) (٢)

نَفَدَ الْعُمْرُ وَفِي الْقَلْبِ ارْتِياعُ
مئلي لَمَّا انْقَضَى دَهْرٌ وَلم
وارتجاعُ الْعُمْرِ مَآلاً يُسْتَطَاعُ
يَكُ لِي فِيهِ نُهوضٌ وارتفاع

(١) دراسات في شعر المهجر، شعراء الرابطة القلمية، ص ٣٣٩، دار المعارف ١٩٦٤.

(٢) الديوان ص ١٣١.

طَائِرٌ هَيْضَ جَنَاحَاهُ فَمَا
مُرَّ يَا سَائِقُ بِالسُّوقِ الَّتِي
عَلَّيْ أَبْتَاعُ عُمَرًا أُفْعِمَتْ
دَأْبُهُ إِلَّا جُؤْمٌ وَاضٍ طِبَّاع
تُغْرَضُ الْأَعْمَارُ فِيهَا وَتُبَاع
مِنْهُ بِالْإِحْسَانِ أَعْوَامٌ وَسَاع

وتنوع حوار الآخر عند الخضر، فقد حاور النبي _صلى الله عليه وسلم_ وبعض الشخصيات الإسلامية، كخالد بن الوليد وعبد الرحمن الداخل، وصلاح الدين الأيوبي^(١)، وهذا يؤكد حضورا واضحا للشخصيات الإسلامية في تجربته -كما سبق أن بينّا- ومن حوار الآخر، حوار الأصدقاء والأقارب الذي يكشف بدوره عن علاقات حميمية بينه وبين أصدقائه، وهذا النوع من الحوار يعد طرفا مهما في تقنية الحوار، كما أنه وسيلة لتصوير مشاعره و فرصة سانحة للوصول إلى مقاصده، وله حوارات طريفة مع الطبيعتين الحية والصامتة، حوارات تشهد بامتلاك شاعرنا لأدواته وتمتعه بموهبة أصيلة ونفس تحب الجمال وتتلمسه في كل شيء من حوله، فحاور الطيور والغيوم والثلوج.^(٢)

وباستقصاء حوار ما لا يعقل في ديوان الشاعر تأكد لدينا صدق الشاعر مع نفسه وصدق لفته، فحواراته تكشف عن نفس شاعر صادق الودّ، رقيق القلب مرهف الحس، شديد المعاناة، صادق المواساة، كما تؤكد ما ذكر من قبل من عيش الشاعر حالة اغتراب مريرة كان من أثرها، إثارة منجاة الطبيعة والأموات ومحاورتهم، إذ لم يجد من بني جنسه من يسمع شكواه، أو من يئن لبلواه.

وأكثر حوارات الخضر حوارات قصيرة لا تحتل مساحة كبيرة من القصيدة، فهي _غالبا_ لا تتسع إلا لبيتين أو بضعة أبيات وذلك "لأنه لا يخرج من نطاق المساجلة الآنية والفكرة المؤقتة والتأثر الذاتي، ولكنه يمثل اتجاها قصصيا، ويجري حوارا كان يأخذ بعده في الواقع الشعري ويرسم ملامح توجهات قصصية معروفة"^(٣)

ولم يخل قصر الحوار في تجربة الخضر من حبكة البناء في القصيدة أو المقطوعة فقد استوفى الغرض الذي أراده الشاعر.

- المحسنات لبيعية .

كان للمحسنات اليبعية حضور ظاهر في تجربة الخضر، سواء اللفظية منها من جناس وسجع

(١) ينظر مبحث التيار الوطني وينظر كذلك قصائده (تحية المقام النبوي ومناجاة الرسول)،(على ضريح صلاح الدين)،(صقر قریش) .

(٢) ينظر الديوان ص ١٢١، ١٦٢ حواره القطار، ١٦٨ حواره السواك، ١٩٠ حواره السفينة.

(٣) لمحات من الشعر القصصي في الأدب العربي، د/نوري حمودي القيسي، ص ٣٣، منشورات دار الجاحظ للنشر_ وزارة الثقافة والإعلام _ بغداد، الجمهورية العراقية، ١٩٨٠م.

أوالمعنوية، من طباق وتورية وحسن تعليل ومبالغة ،

ومن نماذج هذه المحسنات عنده قوله مجانسا مخاطبًا صديقه خير الدين الزركلي بدمشق عندما استمع إلى قصيدة بليغة من نظمه: (١)

يا محضراً في برد شِعْرٍ رَائِعٍ رُوح ابن بُرْدٍ وهو يلفظ بِالْحِجَمِ
من علم الشعراء أن يتحضروا روحاً تردى جسمها ثوب العدم

فالبُرد الأول هو: الكساء المخطط يلتحف به الإنسان ، أو بُردٍ الثانية فيقصد بها أبو معاذ، بشار بن برد الشاعر المخضرم إمام المولدين عاصر نهاية الدولة الأموية وبداية الدولة العباسية. ومنه قوله أيضاً (٢):

ما النَجْمُ تجري به الأفلاك في غَسَقٍ كالذُّرِّ تقذفه الأقلام في نَسَقٍ

فقد جانس بين "غسق" و"نسق". ومن مطابقاته قوله: (٣)

أمة تلهوا بذكرى تالدا عن طريف لم ترم عهد صباها
وقوله: (٤)

نفسان : تحمل هذه كدرا وتحمل تلك صفوا
ومن مقابلاته قوله (٥)

سميت يا هذا الشبي بة سكرة والشيب صحوا
ومنها أيضا قوله (٦)

وبدا الصبح عبوسا بعدما كنت ألقى ليلهم طلق المحيا
ومن التورية قوله عن جبل زغوان بتونس (٧):

(١) الديوان ص ٢٠٧.

(٢) الديوان ص ١٥٦.

(٣) الديوان ص ٢٣١.

(٤) الديوان ص ٢٤١.

(٥) السابق نفس الصفحة.

(٦) السابق ص ٢٤٢.

(٧) نفسه ص ١٦١. زغوان جبل بتونس، به عين دافقة يجري ماؤها في أنابيب تحت الأرض إلى المدينة، وحول هذه العين قرية تسمى زغوان وكان الشاعر قد زارها سنة ١٣٣١ وصعد أعلى الجبل الذي يتقعر منه الماء.

رَوِينَا عَنِ الْمَاءِ الْمَعِينِ بَتُونَسِ أَحَادِيثٌ عَنِ يَنْبُوعِ زَغْوَانَ رَائِقِهِ
وَحَالِجِنِي رَيْبٌ إِلَيَّ أَنْ عَرَضْتُهَا عَلَى السَّنَدِ الْعَالِي فَكَانَتْ مُطَابِقَهُ

فالمعنى الظاهر لكلمة السند ، هو ما ارتفع من الأرض في قبل الجبل أو الوادي ، والجمع أسناد ، وروى به عن السند في الحديث ، وهو الطريق الموصلة لمتن الحديث، أي سلسلة رواة الحديث، وسمي "سند" لأن كل راو يسنده إلى راو حتى ينتهي السند إلى التابعي أو الصحابي .. (١).

- ولشاعرنا أبيات رائعة في حسن التعليل، لما يورده من مسائل وقضايا، تعليل يقف المتلقي حياله مصدقا لما أورده الشاعر من رأي ودليل، من ذلك قوله معللاً جفاف قريحته الشعرية (٢):

لَا عَتَبَ أَنْ ضَاقَ بَاعِي فِي الْقَرِيضِ فَلَمْ يَضِيَّ كَمَا ضَاءَتِ الْجُوزَاءُ فِي الْأَفْقِ
فَإِنْ إِحْسَاسِي الشَّعْرِي أَوْشَكَ أَنْ يَجُودَ بِالنَّفْسِ الْأَقْصَى مِنَ الرَّمَقِ
لَمْ تُبْقِ لِي حَادِثَاتِ الدَّهْرِ مِنْهُ سِوَى أَثَارَةِ كِبْقَايَا الشَّمْسِ فِي الْأَفْقِ

وبعد . فقد جاء البديع عند شاعرنا، سمحا طيعاً لا كلفة فيه ولا صنعة لذا استحسنت في موضعه ، ومن الملاحظ على صور البديع عنده ، أنها تدور حول هذا التضاد الظاهر في كثير من مناحي الحياة من وجهة نظر الشاعر ، تضاد بين الماضي والحاضر بين سيادة قيم الخير والحق والعدل في الماضي وتدن في مستوى هذه القيم في الحاضر ، مما يكشف عن نفس حزينة تحمل بين جنباتها الكثير من الهموم والآلام والأوجاع، وتؤكد عدم ارتياح الشاعر لهذه الحياة التي تتضاد مع قيمه وأخلاقه (٣).

- الاستدلال المنطقي

أكثر شاعرنا في تجربته من الاستدلال المنطقي للتدليل على صحة رأيه، ولكي يحظى رأيه بالقبول من المتلقي. يقول مدلاً على رأيه في فضل البداوة على الحضارة (٤):

جَرَى سَمْرٌ يَوْمَ اعْتَقَلْنَا بِفُنْدُقِ ضَحَانًا بِهِ لَيْلٌ وَسَامِرُنَا رَمْسُ
فَقَالَ رَفِيقِي فِي شَقَا الْحَبْسِ: إِنَّ فِي الدِّ حَضَارَةَ أَنْسَا لَا يُقَاسُ بِهِ أَنْسُ
فَقُلْتُ لَهُ: فَضْلُ الْبَدَاوَةِ رَاجِحٌ وَحَسْبُكَ أَنْ الْبَدَوُ لَا يَسُ بِهِ حَبْسُ

(١) ينظر ، لسان العرب ، ابن منظور ، دار المعارف ج ٣ ، مادة سند ، و مسند إسحاق بن إبراهيم بن راهويه ، دار

الكتاب العربي، ٢٠٠٢

(٢) الديوان ص ١٥٧.

(٣) وانظر إن شئت أيضا ، الديوان ص ، ١٥٤، ١٥٥، ١٧١، ١٦٩، ١٧٥، ١٥٦.

(٤) الديوان ص ١٢١.

ويقول معلما من شأن اللون الأسمر، ومنتصرا لذوات البشرة السمراء من النساء، وهي من الصور الطريفة عنده^(١):

نُجُومُ القُبَّةِ الزَّرْقَاءِ تَبْدُو بِأَيْلٍ فِي بَيَّاضِ وَاذْهَارِ^(٢)
وَسُمُرُ الغَيْدِ مِنْ فَتَيَاتِ حَامِ نُجُومُ الأَرْضِ تَخْطُرُ فِي النَّهَارِ^(٣)

إذا كانت نجوم السماء تبدوا ليلا فتبدد ظلمته، فإن المرأة السمراء نجمة بادية للعيان نهارا، إذ تمشي متبخترة متميزة عن أندادها من البيض فيحسن ذلك فيها، وقد أوحى إليه الطبيعة بمادتها، فأجاد التأليف بين جزئياتها حتى خرجت متسقة مستوية، وهذا يدل على حسن خلق تدرع به، إذ في هذا جبر لخاطر النساء من ذوات البشرة السمراء.

وقد تواردت الأشعار على تفضيل البياض على السمار وتغنى الشعراء ببياض الحبيبة فوصفوا وجهها بالبدر وبالشمس ووصفوها ككل بالبيضة، ولكن "الخضر" بحسه الأدبي، وخلق الرفيع، صور سمار المرأة بصورة جميلة يتشوف إليها الجميع.

ومن استدلالاته المنطقية أيضا والتي تؤكد قدرة الشاعر الفنية في الجمع بين المتناقضات، وتدل على قوة ملكة التخيل عنده ومهارته في تحليل المواقف قوله: ^(٤)

وَأفْتِ تَسْأَلُنِي وَلَمْ تَسْتَفْتِنِي مِنْ قَبْلِ فِي فَنِ النَّسِيبِ سَوْوُلُ
قَالَتْ: يَقُولُ أَبُو فِرَاسٍ فِي الهَوَى "حَلَوٌ وَمَرٌّ" هَلْ لَدَيْكَ دَلِيلُ
قَلْبِ المَحْبَةِ فِي فَوَادِي جَدْوَةٍ إِنْ لَمْ يَجِدْ لِي بِاللِّقَاءِ خَلِيلُ
وَإِذِ التَّقِينَا فَالمَحْبَبَةُ زَهْرَةٌ يَذُكُو شَذَاهَا وَالنَّسِيمُ عَلِيلُ

والأبيات تفسير لقول علاء الدين بن الكلامي المعروف بابن الرئيس^(٥):

(١) نفسه ص ١١١.

(٢) القُبَّةُ الزَّرْقَاءُ أو الخضراء: السَّمَاءُ.

(٣) حَامُ هو حَامُ بن نوح، أَبُو البَرَابِرِ والقَيْبُطِ والسُّودَانِ. ينظر كتاب: الأنساب = أنساب العرب = تاريخ العوتبي المؤلف: أبو المنذر سلمة بن مسلم بن إبراهيم الصحاري العوتبي الكتاب مرقم آليا غير موافق للمطبوع الأنساب للصحاري. ص ٢٢.

(٤) الديوان، ص ١٩٠.

(٥) الوافي بالوفيات / صلاح الدين خليل بن أبيك الصفيدي تحقيق/ جلال الدين السيوطي ج ١٧ ص ٢٤، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، وتكر صاحب أعلام الأبناء والشعراء، أن البيت لعلي بن الجهم. ينظر: علي بن الجهم حياته وشعره ج ٧٣ من سلسلة أعلام الأبناء والشعراء حسن جعفر نور ط دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٨٩م.

خَيْلِي مَا أَحْلَى الْهَوَى وَأَمْرُهُ وَأَعْلَمِي بِالْحَلْوِ مِنْهُ وَبِالْمَرِّ

- البديهة والارتجال

للخضر قدرة جيدة للقول على البديهة ، فقد أحصيت له أكثر من عشرين مقطوعة في ستين صحيفة متتالية قالها على البديهة (١)، وهذا بلا شك دليل الشاعرية وكثرة الماء، والبديهة فيها إعمال فكر بخلاف الارتجال كما ذكر ابن رشيقي، فقد أفرد في البديهة والارتجال بابا بين فيه أنّ البديهة ليست هي الارتجال (٢) لأن البديهة فيها الفكرة والتأيد ، والارتجال ما كان انهماراً وتدفعاً لا يتوقف فيه قائله،

من جميل قوله على البديهة وقد رأى شخصاً أخذته هزة طرب عند سماعه قصيدة رائعة يشدها نو صوت جميل (٣):

هَذَا الْفَتَى نَمِلُّ فُقُلَ لِنَدِيمِهِ هَاتِ الْأَذِي رَقَّتْ حَوَائِثِي طَبْعِهِ
هَاتِ الْأَذِي رَقَّتْ حَوَائِثِي طَبْعِهِ تَأْخُذُهُ نَشْوَةٌ طَافِحٌ مِنْ خَمْرَةٍ
تَأْخُذُهُ نَشْوَةٌ طَافِحٌ مِنْ خَمْرَةٍ وَلَزِبَتْهَا أَبْصَارُهُ مُتَرَجِّحًا
وَلَزِبَتْهَا أَبْصَارُهُ مُتَرَجِّحًا وَمُصَفِّقًا أَعْيَا اللَّهُاءَ هُتَافًا

ويقول - على البديهة - مصوراً مجلساً ضم بعض الأدباء بتونس وقد جرى فيه نكر العاذل والرقيب (٥):

أَيُّهَا عَيْشِي وَيَحْأُو الْهَوَى وَلِي عَازِلٌ وَعَلَيْكُمْ رَقِيبٌ
فَيَا لَيْتَ فِي فَمِ هَذَا الَّذِي يَمْجُجُ الْمَلَامَ حَصَّي لا يَدُوبُ
وَفِي عَيْنِ ذَلِكَ الرَّقِيبِ قَدَى يُلِمُّ بِهَا وَيَحَارُ الطَّيِّبُ

- كثرة المشاهد القصصية

كثرت المشاهد القصصية في تجربة الخضر كثرة ملفتة ، حتى إنها لتمثل ظاهرة من أبرز الظواهر الأسلوبية في شعره ، فلا تكاد تخلو صفحة من صفحات ديوانه من تصوير مشهد أو أكثر من أحد المشاهد التي مرّ بها واستوقفته ربة الشعر ليعبر عنها ، وهذا يؤكد تمكن الخضر من الشاعرية وتمتعه ببديهة حاضرة، وأن له عينا لاقطة تعينه على تشخيص المواقف، وتصوير المشاهد تصويراً حياً

(١) ينظر على سبيل المثال ص ١٠٦، ١٠٨، ١٢١، ١٣٠، ١٤٧، ١٤٩، ١٥٤، ١٦١، ١٦٢، ١٦٨، ١٧٠.

(٢) العمدة. في محاسن الشعر ونقده، ابن رشيقي القيرواني ص ١٨٩، ج ١، دار الجيل بيروت، لبنان.

(٣) الديوان ص ١٤٧.

(٤) القحاف: جمع القحف: الفلقة من فلق القصة أو الفدح .

(٥) الديوان ص ٣٧.

يضفي عليه الكثير من الحركة والحياة، فيجعل المتلقي يقرأ المشهد وكأنه عاينه بنفسه ، ولا شك أن الصورة المعتمدة على الحكي والقص تساعد الشعراء في "الابتعاد عن سطحية المباشرة من جهة والإيغال في الغموض من جهة أخرى كما أنها تبعث الحيوية والتشويق في القصيدة" (١)

ومشاهد الخضر القصصية تعكس رؤيته في الحياة و الأحياء من حوله ،وتصور موقفه من كثير من القضايا و المشكلات، التي تعج بها الساحة من الفقر والجهل والسفور، وتصور الكثير من الأمراض الاجتماعية والآفات التي تقتك بالفرد والجماعة كالرياء والنفاق والكذب وغيرها .

فهي تحمل في طياتها معالجات نافعة ورؤى واضحة وتعكس فكرا سليما مستقيما يتمتع به الشاعر .

يقول في قصيدته الرجاء أساس كل نجاح مصورا سلطان الغواية وسطوة الغواة: (٢)

سحب الفتى البدوي ذيل مراح	يزهني بسرح في فلا ومراح
ألف البطولة والسماح فما له	شغف بغير بطولة وسماح
للبدو فيما كنت أدري الفضل في	نشء النفوس على مثال صلاح
لا راح غير عصير مزن رائق	لا ناي غير البلبل الصداح (٣)
ما زال يستهويه حتى انحط في	أرض الحضارة بالهوى الملحاح
قواد النجائب والحقائب ملؤها	ذهب ، دنانير ، وحلي ملاح
ألقى بمصر رحله إذ أدبرت	شمس الأصيل بوجهها اللماح (٤)
بهرت لواظمه المصابيح التي	تغني إضاءتها عن الإصباح
واحتل صرحا شامخا وحديقة	حليت بزهر بنفسج وأقاحي (٥)
لم يدر أهل النبيل أين مزاره	ودراه أهل بطالته وطلاح
فتهافتوا يتصيدون فؤاده	بتملق وخلاصة ومزاح
صرفوه عن وجه الرشاد فتاه في	واد من اللهو الأثيم براح (٦)
ظل الفتى في سكره وثرأوه	ينهار بين مزاهر وقداح
حتى تبدد تبره ولجينه	ككثيب رمل في مهب رياح
وانفض من حول الفقير رفاقه	وجزوه عن إقباله بظماح (٧)

(١) عن بناء القصيدة الحديثة د. علي عشري زايد ص ٢٢٠ القاهرة دار الفصحى للطباعة والنشر ١٩٧٧م

(٢) الديوان من ص ٦١ : ٦٣

(٣) الناي : آلة من آلات الطرب والجمع نايات.

(٤) اللماح : اللامع

(٥) الصرح: القصر، كل بناء عال

(٦) البراح : متسع من الأرض لازرع بها ولا شجر.

(٧) ظماح: الكبر والفخر.

لا درهم يغنيه من جوع ولا

إلف يخفف لوعة الأتراح

ويحكي حوارا دار بينه وبين زوجه في مرضه قائلا: (١)

تُسائلني هل في صحابك شاعرٌ
فقلت لها: لا همّ لي بعد موتي
وما الشعر بالمغني فتبلى عن امرئٍ
وإن أحظ بالرحمى فما لي من هوى
فخلي فعولن فاعلات تقال في
وإن شئت تأبيني فدعوة ساجد

إذا متّ قال الشعر وهو حزينٌ
سوى أن أرى أخراي كيف تكون
يلاقني جزاءً والجزاء مهين
سواها، وأهواء النفوس شجون
أناس لهم فوق التراب شؤون
له بين أحناء الضلوع حنين

ويقول في الانتصار لعلم الشريعة: (٢)

أغاظ الحسود الخب أن بت مقبلا
وأوجس خوفا أن أزيد به علا
فغض من العلم الذي خضت بحره
يحاول كيّدا أن يثبط همّة
فعاد وما في كفه غير خيبة

بفكري على علم بديع المباحث
وذاك لدى الحساد إحدى الكوارث
ولقب من يرتاده باسم عابث
تسامت فكان الكيد بعض البواعث
كما أخفقت في الحج آمال رافث

وقد حوت مشاهداته القصصية العديد من المغازي والعبير، وصورت انطباعاته تجاه حدث ما، أو موقف ما، أو رحلة ما، فكانت قالباً مناسباً لإفراغ ما في الناس من شجون وأحزان.

فكانت هذه المشاهدات معراجاً للتنفيس عما في النفس، يقول مصورا انطباعاته عن الشام وأهلها: (٣)

قصدتُ إلى الشام ولسنت أدري
وللإفرنج في بيروت عينٌ
وصلت إلى طرابلس وحيّدا
يشين قبابها علماً غريب
هلم حقيبتني لأحطّ رحلي

أيقسو أم يلين بها زماني
يسمى من يساجلهم بجاني
أعاني بالتنكر ما أعاني
وذاك علامة الوطن المهان
فنفح زهور جأق في تداني

(١) الديوان ص ٢٢٤

(٢) الديوان ص ٥٣

(٣) الديوان ص ٢٢٧ وينظر كذلك ص ٥٩ و ٦٠ و ٦٦ و ٦٧ و ٧٨ و ٨١ و ٨٨ و ٨٤ و ٢٠٧ و ٢٤٥.

فَخُضَّ بِبِي أَيُّهَا الْحَادِي رَبَاهَا
 حَلَلْتِ بِهَا وَلَمْ أَفْقَدْ نَدَامِي
 وَأَلْقَ عَصَا التَّرْحَلِ غَيْرَ وَأَنِي
 عَلَيَّ أَدَبٌ وَعَيْشَاءُ فِي لِيَانِ
 وَطَوَيْتُ عَلَيَّ الْحَدِيثَ بِهَا لِسَانِي
 وَلِلْأَقْدَارِ فِي الدُّنْيَا صُرُوفٌ

ب- المعاني والأفكار.

لاشك أن الفكر عنصر حيوي وهام في بناء التجربة ، ويقصد به تلك المعاني العقلية المصاحبة للتعبير عن التجربة، والفكر وليد العقل ولحمته فليست كل عناصر التجربة مشاعر وأحاسيس، ففيها أيضاً العقل والفكر.

والفكر من أهم عناصر التجربة إذ هو الذي يشرف على الأحاسيس وينظمها ولولاه لكانت خليطاً مضطرباً لا يسوده نظام فهو الذي يؤلف شتاتها ويجمع بين منثورها ويكون بناءها^(١).

وتعد تجربة الاستعمار على رأس التجارب التي ألهمت مشاعر الخضر بالعديد من الأفكار الصحيحة والمعاني المستقيمة، التي بها قوام الوحدة والاستقلال والتخلص من شبح الاستعمار.

وأهم ما اتسمت به الفكرة في تجربة الخضر:

١- **لوضوح** هذا الوضوح البادي في التعبير عن رأيه، وما يؤمن به وما يعتقده، وإذا كانت العاطفة هي المحرك الأول للشاعر والداعي إلى التفاعل والتجاوب مع الحدث فإن العمل الأدبي الذي لا يحمل فكراً صحيحاً يُعدُّ خواء لا طائل وراءه.

وإذا كانت المعاني الشعرية هي خواطر المرء وآراؤه وتجاربه في الحياة وأحوال نفسه ، فإن معاني الخضر - في مجملها - واضحة صريحة، بعيدة عن الغموض والالتواء، تلوط بالنفس لأول وهله، ووضوح معانيه مبعثه، حرصه على استخدام الكلمة في معناها الدقيق ، وسريانها وفق القواعد النحوية المشهورة، واستمدادها من طبعه، ومن ثم تتداعى إليه المعاني من الطبيعة تارة، ومن حبه لوطنه وأصدقائه تارة، ومن الكون من حوله أخرى ، وهو في كل ذلك يدع نفسه على سجيته غير مقهور بأوزان الصنعة .

- الصحة والاستقامة

وإذا عرضنا معاني الخضر على مقاييس نقد المعنى ، وما يطلبه النقاد في صحته^(٢) ، نجد أن معانيه صحيحة لا خطأ فيها من ناحية المعنى اللغوي، أو بالقياس إلى واقع الحياة ، ولا عجب فشاعرنا على دراية بحقيقة ما يورده من معان ، ولم لا وقد مارس اللغة تعلماً و تعليماً، وثقف فنونها ثقافة واسعة منذ أن شب عن الطوق، وقد تردد في شعره الكثير من المعاني الإسلامية ، والأصداء الدينية .

(١) في النقد الأدبي، شوقي ضيف ص ١٤٨ .

(٢) أسس النقد الأدبي عند العرب، ص ٣٦٨ .

ويتبعنا لمعاني الخضر نجد أنه قد اهتدى إلى بعض المعاني الطريفة، ولعل من المعاني المبتكرة التي لم أقف عليها عند غيره، قوله في تصوير الفرق بين التواضع والكبر.^(١)

أرى مُثْمِرَ الأغصان يدنو من الثرى وعاطلها يبغى بهامته الشّعري
فأذكرُ إذ يهوى الهُمامُ تواضعا ويرفع مسلوبُ العلاء أنفه كبرا

ومن المعاني الطريفة أيضا قوله مصورا طبيعة أسفاره:^(٢)

أرى سَفْرِي شعرا ولكن بيوتهه مفصّلةً في غير بحر وفي بحر
ومقطع عودي من بدائعها ألا ترى عَجْزا قد ردّ فيه على صدري

ويقول أيضا في كِبَرِ الهمة:^(٣)

يرمي الهُمامُ وما غير العلاء هدفا ولا يباكر إلا الرّوضة الأنفا
والناسُ كالشعر إن وافيت تنقذه ألفت سبك القوافي منه مُختلفا
كم بين شهم يدوس الصعب في شمم وخامل بات في مهد الهوى دِنفا

كما ظهر أثر ثقافته فيما يورده من معان وأفكار، إذ نجدها تتصل اتصالا مباشرا بالمثل الإسلامية ، والثقافة العربية، وما في تجربته من أشعار يؤكد ذلك، و الأبيات السابقة فيها أشار إلى بيوت الشعر وبحوره وصدوره وأعجازه .

ومن ذلك أيضا قوله عن فضل البداوة على الحاضرة:^(٤)

جَرَى سَمْرٌ يَوْمَ اعْتَقَلْنَا بِفُنْدُقِ ضَحَانًا بِهِ لَيْلٌ وَسَامِرُنَا رَمْسُ
فَقَالَ رَفِيقِي فِي شَقَا الْحَبْسِ: إِنَّ فِي الدِّ حَضَارَةَ أَنْسَا لَا يُقَاسُ بِهِ أَنْسُ
فَقُلْتُ لَهُ: فَضْلُ الْبَدَاوَةِ رَاجِحٌ وَحَسْبُكَ أَنَّ الْبَدْوَ لَيْسَ بِهِ حَبْسُ

(١) الديوان ص ١٠٧.

(٢) الديوان ص ١٠٨.

(٣) الديوان ص ١٤٦.

(٤) الديوان ص ١٢١.

وبعد .

فأفكار الخضر ومعانيه، صحيحة مستقيمة ، بناءة ، نمائية إذا عرضها المرء على الواقع المعاش - يجد أنها تضع معالم وأضحة يغذيها الفكر الإسلامي الصحيح ،معالم من شأنها أن تحيي في النفس الكثير من الفضائل الإسلامية ، كالتواضع ولين الجانب ، والأخذ بيد الضفعاء ، وجهاد الأعداء والمعتدين، والضرب على أيديهم ضربة لازب.

- الصور والأخيلة

الصورة الأدبية هي المرآة المصقولة التي تعكس خواطر الشاعر وأحاسيسه ووجداناته بلا زيف أو مواربة ، وغالبًا ما نجده يفضل "الصورة" في التعبير عن تجاربه لما تتيحه من القدر الوافر من التخيل والتشخيص حتى تتبلور التجربة وتتضح معالمها للتعبير عن خواطره.

" والصورة هي أقدر الوسائل على نقل الأفكار العميقة، والمشاعر الكثيفة في أقصر وقت، وأوجز عبارة وأضيق حيز، فكلما أمعن الناظر فيها استقطب أفكارًا جديدة ومشاعر متجددة"^(١).

والشاعر يتغيا من الصورة ، إبراز تجربته في صورة حية ناضجة، ونمط روحي مؤثر لأنها تنتج من معامل التجربة الإنسانية في الشاعر فكانت مولوده الحي، الذي فيه بقاء شخصه، وفي ذاته استمرار حياته ، فقد مرت من خلال وسط ينبض بالحياة ويموج بالشعور والخواطر والأحاسيس والعواطف، فيسرى في الصورة سحرها، وتنتشر الروح في أجزائها^(٢).

و للخيال تلك الملكة الخلاقة القدرة على التأليف بين الأشياء حتى المتناقضات، وتجمع شتات ما وعته الذاكرة من حقائق قديمة وحديثة، وتبرزه في صورة جديدة مبتكرة، وهذا سرّ الجاذبية فيها " لأن الخيال إذا كان عمله وتأليفه لصورة جديدة اختيرت عناصرها من بين الحقائق والمشاهدات المبعثرة المخزنة في الذاكرة، وألفت تأليفًا جديدًا سمي خيالاً قديمًا"^(٣). وبالخيال نستطيع أن نقف على ما تكنه النفس من المشاعر .

إذا كانت الحقيقة لغة العقل والفكر فإن الخيال لغة العاطفة وهما متلازمان في الكشف عن جوهر الحقيقة ولبيها^(٤).

و لشاعرنا ولع شديد بالخيال، فقد أكثر من استخدامه كثرة ملفتة، حتى إنه يعد على رأس الظواهر التعبيرية في شعره، ويكفي المطلع على ديوانه صفحة واحدة ليقف على صحة الاستنتاج، وكان للاستعارة المكنية النصيب الأوفر منها، فكثيرا ما شخّص وجسّم وألقى على الجماد روح الحياة، واستنطقه وحاوره

(١) البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر د/ علي صباح، ص ٢٢٥، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ١٩٩٦م

(٢) المرجع نفسه.

(٣) ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان د/ محمد عبد المنعم خفاجي ص ٣٠٢، دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع،

١٩٥٨م.

(٤) دراسات في النقد الأدبي الدكتور / محمد عبد المنعم خفاجي ص ٣٩، دار الطباعة المحمدية بالأزهر، الطبعة الأولى.

وحملته رسائل، واستمع إليه.

ولا غرو فهو صاحب كتاب "الخيال الشعري" الذي أعلى فيه من شأن الخيال، إذ يرى "أن الروح التي يعد بها الكلام المنظوم في قبيل الشعر، إنما هي التشابيه والاستعارات والأمثال، وغيرها من التصرفات التي يدخل لها الشاعر من باب التخيل، وليس الوزن سوى خاصة من خواص اللفظ المنظور إليها في مفهوم الشعر بحيث لا يسميه العرب شعرا إلا عند تحقيقه، وإطلاقه على الكلام الموزون إذا خلا من معنى تستطرفه النفس، لا يصح إلا كما يصح لك أن تسمي جثة الميت إنساناً أو تمثال الحيوان المفترس أسداً^(١).

"وإطلاق لفظ التخيل أو الخيال في صدد الحديث عن المعاني الصادقة، والتصورات المعقولة، لا يحط من قيمتها أو يمس حرمتها بنقيصة فإن علماء البلاغة أنفسهم قد أطلقوه على ما يأتي به البليغ في الاستعارة المكنية من الأمور الخاصة بالمشبه به، ويثبته للمشبه فقالوا: الأظفار أو إضافتها في قولك: "أنشبت المنية أظفارها" تخييل أو استعارة تخيلية^(٢).

وقد كثرت في تجربة شاعرنا التشبيهات البديعة والاستعارات المبتكرة و التوليدات الكلامية الأخاذة. فليده المقدرة الفائقة في التأليف بين الأجزاء، وخلق صور شعرية رائعة بما يضيفه عليها من إحساسه ومشاعره، وبما تحمله من حقائق وفكر صحيح مستقيم،

(١) الخيال في الشعر العربي، شيخ الجامع الأزهر وعلامة المغرب العربي، الخضر حسين، اعتنى به، على الرضا الحسيني ص ٦، دار الأنوار - سورية- لبنان- دمشق، الأولى ١٤٣١هـ | ٢٠١٠م

(٢) المرجع نفسه ص ٩ وقد تناول في هذا الكتاب الحديث عن الدواعي النفسية ودورها في تجاذب المعاني واستدعائها وأسباب جودة الخيال فقال " إن الدواعي والعواطف النفسية لها مدخل في تجاذب المعاني، واسترسالها على الخيال، فالطمع أو الحاجة أو الرهبة -مثلاً- تستدعي المعاني العائدة إلى المديح أو الاستعطاف، والكآبة والأسف يستدعيان معاني الرثاء أو الشكوى، والسرور يستدعي المعاني اللائقة بالتهنئة. الثاني: ما يتفق للإنسان وطرز حياته، وهو حال المحيط الذي يتقلب فيه، فيتوالى على خاطر الناشئ في النعيم والترف ما لا يتوالى على خاطر الناشئ في حال عسرة وبؤس.

ويبين أسباب جودة الخيال ويرى أن منها أ - الفطرة ، ب- تردد النظر في مظاهر المدنية فإن امتلاء حافظه الشاعر من المناظر المختلفة والصور التي لا تدخل تحت حصر تجعله أغزر مادةً وأوسع مجالاً وبالتالي تكون مخيلته أكثر عملاً في إنشاء المعاني وإبداعها، وكثرة العمل مما تترشح به هذه القوة النفسية.

الحرية- إذ لا شبهة أن الاستبداد الأعمى الذي يطبع الناس على الجبن، ويلقي في أفئدتهم رهبة تحملهم على أن يجعلوا بينهم وبين الأقوال التي تسخط لها الحكومة القاسية حاجزاً لا يدنون منه، فيضيق بذلك مجال الشاعر، وربما تتكبد الخوض في الاجتماعيات، حذر الوقوع في السياسيات، ومن ذا يُنكر أن الخيال الذي يسخره صاحبه في كل غرض، ويطلق له العنان في كل حلبة، يكون أبعد مرمى وأحكم صنغاً من خيال الشاعر الذي حصرته السياسة في دائرة، ورسمت له خطة لا يفوتها.

ومن أمثلة استعاراته قوله معللاً نضوب قريحته: (١)

يضئ كما ضاءت الجوزاء في الأفق
يجود بالنفس الأقصى من الرمق
أثارة كبقايا الشمس في الأفق

لا عتب أن ضاق باعي في القريض فلم
فإن إحساسي الشعري أوشك أن
لم تبق لي حادثات الدهر منه سوى

وقوله- أيضا - في رثاء والدته: (٢)

وانثضى الخطبُ فما قلت سلاماً
دهرُ رُزءاً يملأ العينَ ظلاماً
مهجتي نارا ومُنكيها ضراماً

قطب الدهرُ فأبدت ابتساماً
لست أدري أن في كفيك يا
لست أدري أنك القاذفُ في

يقول مصوراً كيف أن حفيف الأشجار قد يكون مثار لذة ونشوة:

كما يهزُّ بنانُ الغادة الوترا
تراه يحثو على أدراجِه دُرا

هزَّ النسيم غصونَ الرّوض في سحرٍ
لذَّ الحفيف على سمع الغمام أما

فالبيت الأول حوى تشبيها تركيبيا جميلا ، والثاني حوى استعارة مكنية،

وقد ألف الشاعر بين أجزاء الصورة، ورسم فيها بريشته الدقيقة صورة مبتكرة مبتدعة ، تحمل الكثير من صور الإقناع، فقد صور غصون الروض وإحداثها حفيفاً خفيفاً، وصوتا رقيقاً، والذي كان له وقع جميل على السحاب فاهتز طرباً محدثاً مطراً خفيفاً يتساقط على أدواح هذا الروض بتلك الغادة التي تهز بأناملها الناعمة أوتار العود محدثة صوتاً عذباً ، ، وإذ حللنا أجزاء الصورة من نسيم وغصون، وغادة ووتر، وغمام ودرر، نجد أن هذه العناصر المكونة للصورة عناصر توجد بحقائقها وأشكالها بيد أن الخضر بشاعريته الجيدة وذوقه السليم، استطاع أن يؤلف بين هذه الجزئيات بصور شعرية مبتكرة، وأغلب صوره من هذا الخيال والمسمى بالخيال الابتكاري(٣).

وغالبًا ما تأتي الصورة التشبيهية عنده لتوضيح المعنوي فتلحقه بشيء حسي وليس العكس، فمن تشبياته قوله مبينا ما قد يلحق المعلم من أذى من بعض تلاميذه(٤).

(١) الديوان ص ١٥٧.

(٢) الديوان ص ١٩٩، ٢٠٠.

(٣) الخيال الابتكاري يتضح في الصورة الجديدة التي تتركب من عناصر لومه.

(٤) الديوان ص ١٤٦.

بَسَطَتْ شُعَاعَ عِلْمِكَ فِي نَفُوسٍ تسوقُ إليك ما استطاعت حُتُوفًا
كَذَا الْأَقْمَارُ تَكْسُو الْأَرْضَ نُورًا ولولا الأرض ما لقيت حُسُوفًا

وإذا كان الشاعر أجاد في تشبيهه الحسيات، إذ كانت الصورة في المشبه به أوضح وأدق منها في المشبه، فقد كان أكثر إجادة في تشبيه المعنويات وكانت قوة تخيله، ورهافة حسه روافد ثرية نفحته بروائع الصور، والشاعر يقصد إلى تشبيهه الحسي بالمعنوي ويتعمده تعمدًا، لما يجده من أن الصورة في المشبه غير واضحة كما هي في المشبه به.

اسمعه يقول (١).

كأن منارًا لاح في فحمة الدُجى ومنظره المُمَمَّرُ يبدو ويختفي
حشا تقذفُ الأشواق فيه بجذوة وآونة يرجو الوصال فتتطفئ

فالشاعر شبه الضوء المنبعث في ظلمة الليل والذي يظهر مرة ويختفي أخرى، بحشا تلتهب شوقًا، وتقذف بجمر ملتهب، فإذا أملت وصلًا خبت وخدمت، والطبعي في الصورة أن تشبه الحشا بالشهب، والتشبيه في الصورة تشبيه تركيبى.

ومن تشبيه الحسي بالمعنوي أيضا قوله: (٢).

كأن شُعَاعَ الصبح ينساب في الثرى ويطوي بساطا مَدَّةَ الليل أسودا
سنا حُجبةً يسطو على قلبٍ جاحدٍ فيأخذه بعد الضلال إلى الهدى

ويصور شدة معاناته وكثرة أسفاره، وندمه على تركه دمشق قائلًا: (٣)

كأنني دينارٌ وجأقٌ راحةً تنافسُ في الإنفاقِ راحةً حاتمٍ
فكم سمحت بي للرحيل وليتني ضربتُ بها الأوتاد ضربةً لازم

ويصور ما يميل إليه بعض الجلساء من هذيان في مجالس أهل الأدب وذوي المروءة قائلًا (٤):

أتى زيدٌ فأسرف في هُذاءٍ تضيقُ به صدور السامرنا

(١) الديوان ص ١٤٩.

(٢) الديوان ص ٧٩.

(٣) الديوان ص ٢٠٤.

(٤) ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان د. خفاجي ص ٤٤.

يحدثنا فلا يروي غريباً
كمثل رحي تججع طول ليل
ولا يبدي لنا رأياً رصيناً
ولا تلقي على ثفل طحينا

وهو تصوير للمثل القائل: " اسمع جعجة ولا أرى طحنا"^(١).

والصورة متأثر فيها الشاعر - إلى حد كبير - بالقديم ف"الرحى و الثفل " كلمات قديمة، حتى إن الصورة ككل تذكرنا بمعلقة " عمرو بن كلثوم " فقد اتفقتا وزناً وروياً.

ومن أمثلة تأثره أيضاً قوله :

كفى جسمي نحولا أن تخا
لوه كالطيف خيالاً لا حقيقة

فالبيت متأثر فيه بقول المتنبي^(٢)

كفى بجسمي نحولا أنني رجل
لولا مخاطبتى إياك لم ترني

ومن ذلك أيضاً قوله:

وإن ساورت بعض القلوب ضغينة
فقد يستفيقُ الصب من سكرة الهوى
وعادت من البغضاء كالحشف البال
وتخضل أزهار الربى بعد إحمال

فالحشف البالي وهو التمر اليابس الرديء شبه به أمرؤ القيس قلوب الطير اليابسة في قوله: ^(٣)

كأن قلوب الطير رطباً ويابسا
لدى وكرها العناب والحشف البالي

ولعل من أهم سمات التشبيه عند الخضر اعتماده - بالدرجة الأولى - على الحسيات وعلى حاسة البصر - خاصة - اسمعه يقول: ^(٤)

من بديع الكون أيدي غرست
دوحة في تربة طاب ثراها

(١) مجمع الأمثال للميداني، أحمد بن محمد الميداني، تحقيق، محمد محيي الدين عبد الحميد المجلد الأول ص ٢١٣ ، ، نشر ١٩٩٠م.

(٢) شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، لأبي العلاء المعري، المسمى ب معجز أحمد، تحقيق، د/عبد المجيد دياب، الجزء الأول ، ص، ١١، دار المعارف ، الثانية ، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

(٣) ديوان امرئ القيس، ضبطه وصححه الأستاذ مصطفى عبد الشافي، ص ١٢٩، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ٤٠٠٤م.

(٤) الديوان ص ٢٣٦.

أَنْ تَجَلَّتْ كَعَرُوسٍ فِي حُلَاهَا
بِالثَّرِيَا وَهِيَ تُزْهِى فِي دُحَاهَا
يَرشِفُ المَتَرَفُ مِنْ شَهْدِ لَمَاهَا

تتَحَسَّى لِبِنِ المُنْزَنِ إِلَى
تُرْسَلُ العُنُقُودُ مَا أَشْبَهَهُ
يَرشِفُ البَنَائِسُ فِي القُومِ كَمَا

يقول مبيناً طبيعة الزجاج وأنه يصلح للتشكيل فيما ينفع ويضر^(١).

يَبِيَّتِ الحَلِيمِ مِنْهَا سَفِيهَا
لِيَصِيرَ الجَهْوَلُ حَبْرًا نَبِيهَا
ثُمَّ يَأْتِي بِمَا يَزُوقُ الفَقِيهَا

إِنَّ هَذَا الزَّجَاجَ يَصْنَعُ كَأَسَا
وَيَصُوغُ الدَّوَاةَ مِنْ بَعْدِ كَأَسِ
فَهُوَ كَالْفَيْلسُوفِ يَنْفِثُ غِيَا

فالزجاج قد يكون كأساً للراح ودواة للكتابة.

وكقوله:

صَفَا ذُوقَهُ وَتَسَامَى حِجَاهُ

أَحْبَبَكَ حَبَّ الأَدِيْبِ الذِّي

ويقول في مدح النبي ﷺ^(٢):

لَيْلٍ جَهْلٍ وَضَلَالٍ وَمَجُونٍ
نَدَّتْ لَيْلِ الغِيِّ عَنِ صَبْحِ اليَقِينِ

جِئْتُ يَا مُخْتَارُ العَالَمِ فِي
فمَحْوَتِ الهَزْلِ بِالْجِدِّ كَمَا

كما يمتاز التشبيه عنده بالدقة فتجده يستقصي كل أطراف الصورة و يضيف على تشبيهاته روح الحياة والحيوية ويلقي عليها ظلالاً من حسه وروحه، وينفث فيها من إحساساته ومشاعره، لذا فهي تعكس جانباً كبيراً من حياته وأحاسيسه ومشاعره القلقة وحالة الاغتراب التي لازمته وهو بمنأى عن وطنه وما ينتابه من اكتئاب بين الحين والآخر.

فيصور كثرة أسفاره وضجره منها قائلاً^(٣).

والمطايَا تَطُوفُ بِبِي كَالسَّقَاةِ
بَيْنَ كَفِّ تَدِيرِهَا وَاللهَاةِ

أَنَا كَأَسِ الكَرِيمِ والأَرْضِ نَادٍ
كَمْ كَوُوسِ هَوْتِ إِلَى الأَرْضِ صَزَعِي

(١) الديوان ص ٢٣٧.

(٢) الديوان ص ٢١٦.

(٣) الديوان ص ٤٩، ٥٠.

فاسمحي يا حياة بي لبخيل جفن ساقيه طافح بسبات

أما عن منابع الصورة الخيالية عند الخضر فكثيرة ومتنوعة ولعل أهمها: التراث الشعري القديم وما حواه من صور، والقرآن الكريم والسنة النبوية ، ، ومشاهداته اليومية وملاحظاته الدقيقة في الكون والحياة، وطبائع الناس وأحوالهم ، وما تقع عليه عينه من مظاهر الطبيعة، كل ذلك كان منبعًا ثريًا استمد الخضر منه صورته.

اسمعه يقول متأثرًا بقراءته في الشعر القديم^(١):

ولقد ذكرتك في الدجى والجند قد
وقضاة حرب أرهفوا أسماعهم
والمدعي يغري القضاة بمصرعي
أتروع أهوال المنون متيمًا
ضربوا على دار القضاء نطاقا
وصدورهم تغلي علي حناقا^(٢)
ويرى معاناتي الدفاع سياقا^(٣)
جرّعته بعد الوصال فراقا

ومن صورته التشبيهية أيضا التي تأثر فيها بالقديم قوله :^(٤)

لا خير فيمن جفّ طبعًا واشتري
والشعر كالبيداء هذا مهمه
بلطائف الأدباء كأس مُدام
قفزُ وهذا مرتع الأرام

فالصورة تتسم بالحياة، جمع الشاعر من الوسائل ما يضمن لها الحياة والحركة والحيوية ويلاحظ أن الاستعارة تتخلل كل بيت من أبيات المقطوعة.

ويقول وقد ودعه أحد أصدقائه:

قلت إذ همّ صاحبي برحيل
أنت ريحانة الحياة إذا ما
فابعد للأنس واترك البين يحدو
أذيق الحشا عذاب الحريق
غبت عن ناظري غصت بريقي
بالأعادي إلى مكان سحيق

فالصورة في الأبيات تأثر فيها الشاعر بالقرآن الكريم، فعذاب الحريق، الريحان، والمكان السحيق انعكاس لثقافة إسلامية شرب منها الشاعر حتى الثمالة، فقد كان حافظًا لكتاب الله تعالى، شديد الاستيعاب لسنة النبي ﷺ.

(١) الديوان ص ١٥٤.

(٢) قضاة حرب: يعني الحكام العسكريون الذين حاكموا الشاعر في عهد جمال باشا بدمشق.

(٣) المدعي: ممثل النيابة: السياق نزع الروح.

(٤) الديوان ص ٢٠٢.

"ومن المعاني الطريفة أيضا قوله^(١)

لَجَّ القَطَازُ بنا والنَّارُ تسحبه
وما بين رائق أشجار وأنهار
ومن عجائب ما تدريه في سفر
قوم يُقادون للجَنَّات بالنَّار

وتنوعت أنماط الصورة في تجربة الخضر ما بين بصرية ولونية وسمعية وذوقية وحركية ولمسية. واحتلت الصورة المرئية من بين أنماط الصورة عند الخضر مساحة واسعة، فكان لها حضورا بينا في تجربته، ولعل ذلك يعود إلى كون حاسة البصر أسرع الحواس تجاوبا مع الواقع المحيط بالأديب وأدقها حساسية^(٢) فوق ما للعين الباصرة من قدرة على تحديد الأبعاد وانعكاسها على مرآة النفس، وعلى التقاط أشياء معنوية وأمور نفسه يتعذر على غيرها من الحواس الأخرى التقاطها، وهي بهذه المزجة أوفق معين على تصوير التجربة.

وبما أن الصورة المرئية تتشكل بواسطة حاسة البصر فهي فرع منها، والخضر في اتكائه على الصورة البصرية لا يكتفي بتوصيف الأشياء، بل كثيرا ما يحورها بما يعكس حالته النفسية، ويخفي رؤية خاصة به، وهو بهذا لا يرصد صورا موجودة بالطبيعة قد تواطأ على رصدها وتصويرها الكثير من الشعراء.

ولا شك أن "المسافة عظيمة بين شاعر يصف لك ما قد رآه كما تراه المرأة وشاعر يصف لك ما رآه ويشعر به وتخيله وأجاله من روعه وجعله جزءا من حياته"^(٣). فعندما يصور ظاهرة ولوج النهار في الليل والتي صورها القرآن بعملية دخول أحدهما في الآخر نجد شاعرنا يصورها تصويرا خاصا مغايرا للمفهوم الجمعي، هذا التصوير يعكس نفسية شاعر اجتوى بنار الاستعمار واصطلى بنار الغربة فكان تصويره سوداويا يقول: ^(٤)

هذا الدُّجى اغتال النهار ودسَّه
تحت التراب مدرجا بدمائِه
ما حمرة الشفق التي تبدو سوى
لَطخٍ من الدم طار نحو رِدائِه

فالصورة البصرية أكثر حضورا في الأبيات من خلال رصد عناصرها كالدجى والنهار والدماء وحمرة الشفق ولطخ الدماء، وهذه العناصر تدرك - بلا شك - إدراكا بصريا، بيد أن هناك عناصر أخرى أسهمت في حيوية الصورة وفي تحريك عناصرها لتتشكل منها الصورة البشرية مثل اغتيال، دسه، مدرجا. وفي الصورة تتمازج الأنماط اللونية والبصرية وكان اللون الأحمر أكثر طغيانا في الصورة.

(١) الديوان ص ١٠٨.

(٢) الصورة الفنية في شعر الطائيين بين الافتعال والحس/ وحيد صبحي كبابية، ص ٩٢، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، الأولى ١٩٩٩م.

(٣) ابن الرومي حياته من شعره، عباس محمود العقاد، دار الكتاب العربي، ص ٢٦٤، ط/ السادسة بيروت ١٩٦٧م.

(٤) الديوان ص ١٩.

وقريب من هذه الصورة قوله: (١)

يعيدُ الشتاءَ الحي ميتاً ألا ترى
وثرَجع أيام الربيع حياتَه
به الروض في كفن من الثلج مدرجا
وتكسوه بردا بالزهور مدبجا

والألوان في الصورة الشعرية لها وظيفتها ودلالاتها، كدالاتها في الرسم تماما "وذلك لأنها تتحول إلى دلالات إيحائية حينما توضع في سياق لغوي لما تمتلكه من فاعلية بصرية تخاطب الوجدان والشعور ولما لها من دلالة في تركيب الجمل الشعرية وتتجدد الصورة اللونية كما تتجدد الصور الأخرى من خلال عناصر بلاغية كالتشبيه والاستعارة" (٢)

وتتكرر في تجربة الخضر ألوان بعينها، ولا شك أن تلك الألوان تعكس رؤيته وتسفر عن نظرته في الحياة التي تمتلئ بالمتناقضات، ولعل أكثر الألوان دورانا في صورته هما اللونان الأسود والأبيض (٣)، ولعل شيوع اللونين الأسود والأبيض في الصورة لدى الخضر لما يراه الشاعر من تناقض واضح في كل ما حوله، فهذا دخيل يغلب أصحاب الأرض وجاهل يغلب عالما، وهذا يعكس مشاعر متباينة لدى الشاعر ملؤها الأسى والحزن لهذا الحال.

كما وظف الخضر النمط السمعي توظيفا دقيقا، فقد اتكأ في كثير من صورته على السمع وانعكاس الأصوات على نفسه أولا ونفسية المتلقي ثانيا، تبعا لانعكاسها على نفسية المنشئ، فضلا عن الإيقاع " إذ تعمل هذه الصورة على توظيف كل ما يتعلق بحاسة السمع ورسم الصورة عن طريق أصوات الألفاظ ووقعها في الأداء الشعري سواء كانت مفردة أو مع حاسة أخرى مع توظيف الإيقاع الشعري الداخلي والخارجي" (٤)

يقول مصورا صوت " جرس الباب" واختلاف نغمته باختلاف علاقة الزائر بالمزور، وباختلاف أدب الزائر في استخدامه لهذا الجرس: (٥)

جـرْسٌ يَصيح كحاجب
حينما ينوح كموجع
والآن رن كمزهـر
زار الصديق فهـزّه
ظلق اللسان مُعربـد
من لطممة المتعمد
جسسته أنمـل مـعـبـد
من بعد ضفطة جلمـد

(١) الديوان ص ٥٥.

(٢) البناء الفني في شعر ابن جابر الأندلسي، د/ سلام علي حمادي الفلاحي، ص ٢٣١، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن ٢٠١٣ م.

(٣) ينظر على سبيل المثال ص ١، ١٩، ١٠٤، ١٠٦، ١٠٧، ١٥٤، ١٦٩.

(٤) الصورة السمعية في الشعر العربي قبل الإسلام، صاحب خليل إبراهيم ص ١٩، اتحاد كتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٠م.

(٥) الديوان ص ٧٨.

والود يسكنُ في الحشا لكن يُحسُّ من اليد

فالصورة على بساطتها عكست شعورا متباينا لدى الشاعر، منبعثا من مصدر واحد هو هذا المفتاح الكهربائي، وكيف أن هذا الجرس يعكس أدب الزائر، ويبين عن أخلاقه، وكيف أن دقة الجرس البسيطة قد تكون مصدر سعادة وسرور للزائر، أو نذير حزن وشجون له أيضا، وكل هذه المشاعر تعكسها تلك الرنة التي أمازها صاحب البيت، مما أثر ذلك بالضرورة على نفسية المزور، فأحيانا يكون إيقاعه عاليا صاخبا كصوت حاجب الوزير أو الأمير مثلا، وحينما تسمع لهذا الجرس نواحا كنواح المستغيث من طول الضغطة على زره، والذي شبهه الشاعر في البيت الثاني بلطمة المتعمد والتي تكون قوية موجعة، وحينما تسمع رنة رقيقة هادئة كما يجس معبد بأنمله المزهر^(١)، فتمتع السامع، ولم لا وتلك هي رنة الصديق المهذب الذي يراعي شعور أهل البيت فيرن برفق رنة تسمع ولا تؤذي، رنة تعكس طباعا مستقيمة فالنمط السمعي كان أكثر حضورا من غيره في الصورة، وهو يعكس نفسية أديب شديد الحساسية مرهف الحس، يحب الهدوء والأمن والسكينة .

والخضر إنسان أديب، ليس بجاف الطبع، فرغم اضطراب ظروف وطنه وإحساسه بالاغتراب، يحب الجمال وتأسره الطبيعة، ويتجاوب مع أصدائها فتتسيه - ولو لوقت - هذا الإحساس المقلق والداعي إلى قلة الطمأنينة، يقول مصورا صوت المطر على الروضة سحرا.^(٢)

هزَّ النسيمُ غصونَ الروضِ في سَحَرٍ كما يهز بنان الغادة الوَترا
لذَّ الحفيفُ على سمعِ الغمامِ أما تراهُ يحثُّو أدواجِه دُرَّرا

فجعل للغمام سمعا واتكأ على هذه الاستعارة ليؤلف صورته، فحفيف الغصون لذَّ على سمع الغمام، فالتذ لهذا الصوت الخفيف فما كان منه إلا أن ألقى على وجهه دررا مكافأة له على هذا النغم الرائع، وهذا الصوت الندي، فالجانب السمعي عند الخضر كان له حضور بارز في الصورة والتي شكلتها الطاقة الذهنية والعقلية لديه، فأعاد صياغتها وفقا لتصوراته وانفعالاته بالأصوات.

والصورة السمعية في الأبيات تعكس نفسا تحب الجمال وتعشق الأمن وتهفو إلى السلام، فهي لم

(١) هو معبد بن وهب، أبو عبَّاد المدني، نابغة الغناء العربي في العصر الأموي، كان مولى ابن قطن وهم موالى بني مخزوم، نشأ بالمدينة، أخذ الغناء عن سائب خاثر، وجميلة المغنية، تعلم على يديه الكثير من الجواني، كظبية المغنية، وسلامة القس، مات بدمشق سنة ١٢٦هـ خلافة الوليد بن عبد الملك، ينظر الأغاني، ج ٩ ص ٤٠، ط دار الكتب العلمية بيروت ط ١٩٩٢م.

(٢) الديوان ص ١٠٨ .

تخلق قلقة، لم تكن بطبيعتها حزينة، لم تعش الاغتراب قبل الاستلا، لم تؤثر الهجرة قبل الحبس والتضييق، وهذا يؤكد إنسانيتها .

إن شاعرية الخضر وخياله الخصب استطاعا أن يبثا في الجماد الحياة، ويجعلا منه أشخاصا تتحرك، وألسنة تنطق وعقولاً تفكر، فترى الفكرة البسيطة قد شكلها في صورة جميلة أخاذة ، وألبسها ثوب الحياة ، وأبرزها في صورة مشخصة تراها العين، وتلمسها اليد، فتدخل إلى العقل من أضيق منافذه يقول على لسان قلم^(١):

سَفَكَتْ يَدِي فِي الطَّرْسِ أَنْمُلُ كَاتِبٍ وَطَوْتَنِي الْمِبْرَأَةَ إِلَّا مَا تَرَى
 نَاضَلْتُ عَنْ حَقِّ يُحَاوِلُ دُو هَوَى تَصْوِيرَهُ لِلنَّاسِ شَيْئًا مُنْكَرًا
 لَا تَضْرِبُوا وَجْهَ النَّزْرِ بِبَقِيَّةِ مِئِّي كَمَا تُرْمِي النَّوَاءُ وَتُزْدِرِي
 فَخَزَائَةَ الْأُسْتَاذِ نَيْمُورَ أَزْدَهَتْ بَجَلَى مِنْ الْعِرْفَانِ تُبْهِرُ مَنْظَرًا
 فَأَنَا الشَّهِيدُ وَتِلْكَ جَنَاتُ الْهُدَى لَا أَبْتَغِي بِسِوَى ذُرَاهَا مَظْهَرًا

ورغم بساطة موضوع التجربة فقد استطاع الشاعر أن يبرزه في صورة مشخصة تمتلئ بالحيوية والحياة، واستنطاق الجماد يسهم في حيوية الصورة وديمومتها كذلك، وإذا يمنا وجهتنا نحو الصورة الكلية في المقطوعة فأهم ما يميزها هذا التناسق التام بين جزئياتها والإحكام الدقيق بين أجزائها.

وكان للصورة الجزئية الدور البارز في جلاء التجربة وبلورتها ولعل أبرز عناصرها - هنا - هذا التشخيص^(٢) الذي ساد جميع الأبيات فقد جعل للقلم يدًا تُسْفِكُ ولسانا يناضل، ويأمر وينهى ، كما عكس التشبيه في البيت الأخير في قوله " فأنا الشهيد "مكانة هذا القلم ودوره البارز في إحقاق الحق ، لذا صار بمنزلة الشهيد فكما أن للشهيد حياة في الجنة خالدًا مخلدًا فيها ، فللقلم هذه الخزانة العتيقة، والتشبيه في حقيقته يعكس نفسية الرجل وصبره على إحقاق الحق ، فرغم وجوده في بلد غير بلده ، ورغم مكانة د "طه حسين " ورغم الحالة السياسية المضطربة ، فإنه صدع بالحق ، ولم تأخذه فيه لومة لائم ، وهو بهذا كالشهيد في بسالته ودفاعه عن الحق .

وإذا كانت المقطوعة تتغيا تصوير فكرة رئيسة هي بيان قيمة العمل الذي ختم به بحثه القيم "

(١) هذا القلم كان آخر الأقلام التي استخدمها الشاعر في تأليف كتابه " نقض كتاب في الشعر الجاهلي " والذي رد فيه الشاعر على طه حسين ونقض آراءه. وقد أهديت بقية القلم إلى خزانة المرحوم أحمد تيمور بالقاهرة.

ينظر الديوان ص ١٠٥

(٢) التشخيص بمعناه العام" هو ارتفاع الأشياء إلى مرتبة الانسان مستعيرة صفاته ومشاعره ، والتشخيص والتجسيد والتجسيم تدخل جميعا في إطار ما يعرف في البلاغة بالاستعارة المكنية ، وهي الاستعارة التي حذف فيها المشبه به وذكرت لازمة من لوازمه".

عناصر القصة في الشعر العباسي ، منتصر عبد القادر الغضنفر، ص ١٠٧، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع ، عمان الأردن ، الأولى ، ٢٠١١م: ٢٠١٢م، نقلا عن الصورة الفنية في شعر أبي تمام ، ص ١٦٧.

نقض كتاب في الشعر الجاهلي"، فهناك أفكار ثانوية هامة عبرت عنها الأبيات لعل أهمها:

- نضال الشاعر عن الحق ودحض الباطل بالرأي الصحيح

- فضل الشيء يكمن في دوره المعنوي وليس الحسيّ المادي.
- التتويه بفضل خزانة الأستاذ أحمد تيمور وما تحويه من النوادر والذخائر.
- تلخيص رأيه في كتاب طه حسين " الشعر الجاهلي".

وإذا نظرنا إلى الألفاظ في الصورة نجدها قد أدت دورها المنوط بها أحسن أداء وأوفاه، فعبر الشاعر عن تلاشي القلم في الكتابة بالشخص المقتول: وكذلك المبراة بحركتها الدائرية قد أنهكته وطوقته وأخذت منه الكثير، ثم التعبير بلفظة " ناضلت" والتي تعكس الدور الحيوي الذي قام به ، وكلمة "حق" التي بلورت رؤية الشاعر في الشعر الجاهلي، وما يحمله من موروث أصيل وصحيح، وتعبيره " بزوي هوى" عكس تلك المآرب الشخصية لبعض ذوي الأقلام ، والتي تحيف على الحقيقة، وتتنزع إلى الضلال أحياناً، كما عكست كلمة " ازدهت" في البيت الثالث هذه النفائس النادرة والتي حوتها الخزانة.

وفي تشبيهه "القلم" بالشهيد إنعكاس - لرؤية الشاعر في كتابته لهذا البحث، فما دونه من حقائق، وما أبرزه من أدلة تعضد رؤيته وتناصر قضيته، ما هو إلا شهادة حق يبتغي بها وجه الله. و يعكس مشهد تصويري آخر نفسه الملتاعة لفراق حبيبته، تصويراً يعبر عن مشاعر فياضة ملؤها الشوق والحنين ، فيقول مصوراً إحدى الغارات على تونس:

ولقد ذكرتك في ظلامٍ آذنت	بخطوبِهِ صَفَاةُ الْإِنْدَارِ
والطائرات تحوم فوق رؤوسنا	ترمي الخُتوفَ بيمينَةٍ ويسارِ
ولو اطلعت على الشظايا خلتها	شَرَرَ الْجَحِيمِ يَطِيرُ كُلَّ مَطَارِ
فعلمت أن نواك أروع للحشا	مِن هَوْلِ مُحْرِقَةِ الْجُسُومِ بِنَارِ

ومفجر ينبوع التجربة - كما بينا - ما يمارسه العدو من عدوان على تونس، عدوانا في البر والبحر والجو، فالطائرات تحوم على ربوع تونس الخضراء، ترّوع الأمنين، وتقتل الأبرياء من المدنيين بما ترميه من قذائف وما ينتج عنها من نيران وشظايا محرقة ما إن تصيب أحداً إلا أهلكته، وتجميع خيوط الصورة وعناصرها المكونة لها نجدها قد تأزرت لترجمة خواطر الشاعر، وعكست إحساساته تجاه هذا الحدث المروع واستدعى ذلك تذكر زوجته ورفيقة دربه وهو في هذه المحنة.

فاللفظ الفصيح بما يحمله من دلالة نفسية فوق دلالاته المعجمية، والخيال الخلاب والموسيقى والعاطفة " التي تنتقي ألوان الصورة فتركز الأصباغ أو تمزج الألوان، أو تبعث الأضواء وسط الظلام ؛

لأن عصاها سحرية لا تبقى ولا تذر^(١) كل هذه الأشياء أسهمت في ثراء الصورة وحيويتها.

ولو حاولنا تطبيق أنماط الصورة على المشهد القصصي الذي معنا سنجد تأزرا واضحا وانسجاما بينا بين عناصرها، فالصورة المرئية يعكسها لفظ الظلام بما يستدعيه من القتامة والسواد الذي يحول دون الرؤيا، وهو ليس ظلما مصحوبا بأمن وسكينة بل ظلام مصحوب بخوف وفزع، لما يتوقعه الإنسان من مباغاة الخطوب في أي لحظة، فقد يلقى المرء وأسرته حنقه بين عشية وضحاها.

وكتف من حال الروع هذا، تلك الأصوات الصاخبة الصادرة عن صفارات الإنذار هي نذير المصائب والشدائد.

ولم يكن الظلام وصفارات الإنذار هما مبعث الفزع المروع وحسب، فمن عل الطائرات بصوتها الصاخب وبما تُذفقه من شظايا مهلكة، فالصورة المرئية، والصورة السمعية، والصورة الحركية، والمتمثلة في حركة الطائرات ذهابا وإيابا قد تآزرت لتعكس المشهد برمته، وقد ذكر الشاعر هذا الحال المروع بمحبوبته ووقع النوى عليه فبين أن فراقه لمحبوبته أشد وقعًا مما هو فيه.

ورغم أن الصورة حسية بالدرجة الأولى، فقد نجحت في نقل مشاعر الخُصِر وأحاسيسه تجاه المشهد وتجاه زوجته بصورة دقيقة أخاذة.

فالصورة البصرية في البيت الأول والمتمثلة في هذا المشهد السوداوي قد تآزرت مع الصورة السمعية في الشطر الثاني والمتمثلة في ذلك الصوت الصاخب والتي تصدره "صفارة الإنذار" مع ما يحمله من دلالة مروعة، وكذلك الصورة الحركية في البيت الثاني وما تعكسه من سيطرة العدو على المدينة في قوله: "والطائرات تحوم فوق رؤوسنا" والتي توحى باستبعاد النجاة في تلك الحالة، كما كثف التشبيه في البيت الثالث من وقع الحدث فالشظايا لعظمها وشدة انصهارها كأنها "شرر الجحيم".

فالشاعر قد شبه هذه الشظايا بشرر الجحيم لما استقر في الوجدان الإنساني عن شررها من الضخامة والعظم اتكاء على ما أخبر به القرآن عن جهنم في قوله: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾^(٢) وهذا يجعل الفكر يتمثل هذا الشرر في حجمه وقوته وشدة لهيبه، والصورة كما نرى متأثر فيها الشاعر بالقرآن الكريم، وهي تعكس حالة الفزع التي مرّ بها الشاعر ونفسه القلقة جراء هذا الهجوم، وهذا ما عكسه أفعال التفضيل في بيته.

فَعَلِمْتُ أَنْ نَوَاكٍ أُرْوَعُ لِلْحَشَا
مِنْ هَوْلٍ مَحْرِقَةِ الْجِسْمِ بِنَارِ

والصورة تتم عن تجربة صادقة، إذ الشاعر قد عاناها بنفسه، ونقلت إحساساته، وعكست مشاعر الحب لزوجته - فقد ذكرها في هذا المشهد المفزع محدثاً نفسه، ماذا لو كُتِبَ عليّ الموت؟ ماذا لو أصبْتُ،

(١) الصورة الأدبية تاريخ ونقد/ علي علي صبح، ص ١٦٤، ١٦٥، دار احياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي - القاهرة - بدون تاريخ.

(٢) سورة المرسلات آية ٣٢.

ولخص الموقف في كلمة "ولقد ذكرك" وترك المتلقي يذهب بعقله فيه كل مذهب.

ومن الصور الحركية قوله وقد رأى شخصا أخذته هزة طرب عند سماع قصيدة.^(١)

هَذَا الْفَتَى نَمِلُ فُقُلَ لِنَدِيمِهِ أَتَلَوْتَ شِعْرًا أَمْ أَدْرَتِ سُؤْلًا
هَاتِ الَّذِي رَقَّتِ حَوَاشِي طَبْعِهِ وَأَدِرْ مِنَ الشِّعْرِ الْأَنْيَقِ قُحَافًا^(٢)
تَأْخُذُهُ نَشْوَةٌ طَافِحٍ مِنْ خَمْرَةٍ تَدْعُ الرِّوَايَةَ كَالرِّيَاشِ خِفَافًا
وَلِرَبِّمَا أَبْصَرْتَهُ مُتَرَبِّحًا وَمُصَافِقًا أَعْيَا اللَّهَاءَ هُنَافًا

فكلمة "مثل" تعكس حركة السكران التي تتميز بكثرة الترنح وقلّة الاتزان ، وأوضح هذه الهيئة في البيتين الثالث والرابع ، فهذا المعجب بالشعر ، تأخذه الخفة والطرب عند سماعه ، وقد تراه مترنحا متمائلا يملأ الدنيا تصفيقا وهتافا ، فالنمط الحركي هو الغالب على الصورة وإن شاركه فيها النمط البصري .

ويبين في تجربة أخرى الصفات التي ينشدها فيمن يودّ صداقته فيقول^(٣).

أُرِيدُ أَحَا كَالْمَاءِ يَجْرِي عَلَى الصِّفَا نَقِيًّا فَيَصْفُو لِي عَلَى الْقُرْبِ وَالْبَعْدِ
وَأُرْسَلْتُ لِحِظِّ الْفِكْرِ فِي الْقَوْمِ نَاقِدَا وَأَوْصِيَّتَهُ أَلَا يَبَالِغُ فِي النِّقْدِ
فَلَا ضَيْرَ فِي وَدِّ تَغَاضِيَّتِ فِيهِ عَن لَوَادِعِ يَأْتِيهَا الصِّدِيقُ بِلَا عَمْدِ
فَعَادَ وَكَمْ لَاقَى لِسَانًا مَمَالِقَا وَمَنْ خَلْفَهُ قَلْبٌ نَقِيٌّ مِنَ الْوَدِّ
وَلَوْلَا ارْتِيَا حِي لِلنُّضَالِ عَنِ الْهَدَى لَفَتَشْتِ عَنْ وَادِ أَعْيَشَ بِهِ وَحَدِي

وقد عبّرت الصورة عن مشاعر ووجدان الخضر ورؤيته الواضحة في الصداقة، وجمال الصورة مبعثه صدق الشاعر ووضوح فكرته، وتشبع نفسه بها، ثم هذا التجسيم والتشخيص، الذي أكسب الصورة حياة بما أضفاه عليها من الحيوية، فجعل للفكر وهو "الشيء المعنوي" لحظة ينظر ويعي ما يقال، ويتقبل ما يُملَى عليه من الأوامر، وقد عكست الصورة نفساً نقية تحب الصدق وتتشد الصراحة.

وإذا كان التشبيه في البيت الأول قد لخص ما يتغياها الشاعر في الصديق، فقد أوضح البيت الرابع نتيجة مطلبه، إذ فتش الفكر عن تلك الصفات، فلم يجد إلا لساناً ممالقاً وقلباً لا يحمل ودًا لصديق، ولولا ما أوجبه الشاعر على نفسه من دفاعه عن الحق لكانت العزلة هي الخيار الأنجع ، وفي الحقيقة أن الصورة تصوير لمشهد آني وموقف مؤلم مرّ به الشاعر مع بعض الأشخاص ، فهي تعكس

(١) الديوان ص ١٤٧.

(٢) القحاف : جمع القحفُ : الفلقَةُ من فلقِ القَصْعَةِ أو الفَدْحِ .

(٣) الديوان ص ٧٧.

حالة نفسية سببتها خيبة أمل فيمن كان يثق به ويظن فيه إخلاصا ووفاء ، إذ التجربة التي نحن بصدد دراستها تؤكد حب الرجل لأصدقائه ، وشغفه بالصحبه وتغنيه بشمائل أصحابه وأساه لأساهم . (١)

وكثيراً ما يتغيا الشاعر من تجربته تصوير خوالج النفس وإظهار لواعجها ، وما يحدثه النوى بصاحبه من جوى واغتراب مما يكون مبعث إثارة وتأثير في المتلقي بما أودعه فيها من صور معبرة..

يقول في مقدمة قصيدة ألقاها في مؤتمر افتتاح المجمع اللغوي بالقاهرة في ديسمبر ١٩٤١ هـ : (٢)

نَهَضَ الْقَطَارُ فَأَوْمَأُوا بِسَلَامٍ	وَجَرَى بِهِمْ طَلْقًا بِغَيْرِ زَمَامٍ
بَانُوا فَمَا بَالِي فَقَدْتُ حُشَاشَتِي	أَمْضَى بِهَا فِي الرِّكْبِ فِرْطُ هِيَامٍ
عَجَبًا لِرُوحٍ فَارَقَتْ جَسَدَ امْرِئٍ	يَقْظَانُ لِمَ يُرْشِقُ بِسَهْمِ حَمَامٍ
طَوَتِ النُّوَى عَهْدًا يَطُوفُ سُقَاتُهُ	بِكُؤُوسٍ أَنْسٍ لَا كُؤُوسِ مُدَامٍ

وقد أثر الخَصِرُ الصورة الحسية في نقل شعوره، فقد أشاروا بأيديهم وقد نهض القطار بهم طلقاً ، وفي البيت الرابع يصور مجالس الأُنس التي تضم الصحاب بوطنه والتي كان يغذيها الود والمحبة.

فالصورة في هذه التجربة قد خامرت عقل الشاعر وتشبعت بها نفسه، مما كان له أكبر الأثر في حيويتها فقد بثت الروح في المشهد كله ، ونقلته إلى المتلقي حياً يفيض بالمشاعر والأحاسيس.

ونجد أثر القرآن واضحا وبارزا في كثير من صورته فكثيرا ما استقى منه تجاربه ، فالعيد الذي هو مدعاة للبهجة والسُرور ، لم يجد فيه الشاعر - وهو في برلين - ما ينشرح به صدره ، فيقول : (٣).

هَذِهِ طَلْعَةُ الْهَلَالِ وَمَالِي	لَمْ أَجِدْ فِي الْفَوَادِ بَعْضَ انْبِسَاطِي
يَوْمٌ عِيدٍ وَمَا تَفْتَقُ كِمْ	عَنْ أَنْسٍ وَلَوْ كَسَمَّ الْخِيَاطُ

وواضح أن التشبيه في البيت الثاني قد تأثر فيه بقول الله تعالى عن الكفار " «ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سمِّ الخياط» (٤)

التصوير الحقيقي ومكانته من الصورة عند الخَصِر:

لا شك أن للحقيقة أثر لا يستهان به في الصور الأدبية بل لا يقل أثرها في بعض الصور عن أثر

(١) ينظر مبحث الصداقة ضمن موضوعات التجربة، الفصل الأول.

(٢) الديوان ص ١٩٦.

(٣) الديوان ص ١٢٧.

(٤) الأعراف الآية ٤٠.

الخيال بأنواعه من مجاز واستعارة وكناية" (١).

فكثيراً ما صاغ الخضر تجربته في صورة تعتمد على الحقيقية أكثر من اعتمادها على الخيال، ومع ذلك نراها أخاذة تؤثر في النفس بجمالها وصدق انفعالها، من ذلك ما صوره من الأثرة بين الأصدقاء في قوله (٢):

ساييرتُ خلاً في الهجير فحاد عن	ظليلٍ وأثرني ببـرد هوائه
فأبيت أن أرد الظلال وصاحبي	يلقى وهيج الشمس في غلوائه (٣)
ولو احتسى الماء الزعاق حسوته	عباً ولو جاء الفرات بمائه (٤)
والود إن شابته يوماً أثرة	ضلت معالم صدقه وصفائه (٥)

فالصورة رغم اعتمادها على الحقيقة، قد اتسمت بالحيوية، وقد عكست مشاعر صادقة ونقلت شعوراً حقيقياً تجاه الصديق، و تتغيا مبعث هذا الأثر فلا تجده إلا في هذا النظم الجيد، والتركيب الجميل، وهذه العاطفة الصادقة التي أمدت الصورة بالكثير من المشاعر التي ردها الإخلاص.

وفي صورة أخرى نجده يتخذ من الاستدلال المنطقي أداة لثراء الصورة وحيويتها وبلورة المعنى وحسن أدائه.

يقول مصوراً حواراً دار بينه وبين حائك ثيابه وقد لامه على أن خاط ثوبه دون أن يصنع له جيباً (٦).

أيا من خاط لي ثوباً قشيباً	وقد ملئت صحائف من ذنوبي
أصنعه بلا جيبٍ وهذا	يعدُّ لدى الرجال من العيوب؟
فقال: الست في الموتى، ومن ذا	رأى الأكفان تُصنع بالجيوب

وقد أسهم الاستقهام التقريري في البيت الثالث بدور حيوي في ثراء الصورة، ورغم طرافة الصورة وصحة التعليل فيها فقد قلل من جمالها نكر الموت الذي هو داعية الحزن والكآبة.

ومن صورته الجمالية ما عبر عنه فيما ينشده في الصديق فيقول:

أيصفو لي من الأصحاب خلاً	له أدبٌ أرقُّ من السُّلافِ
أهيم به الحياة وما هيامي	بغير الأعمية والعفافِ

(١) ينظر البناء الفني في الصورة الأدبية د/ علي صبح ص ٨٢.

(٢) الديوان ص ٢٠.

(٣) الغلواء: أول الشباب والمراد به هنا نشاط هذا الوهيج وسرعته.

(٤) الزعاق: الماء المر الذي لا يطاق شربه، الفرات: الماء شديد العذوبة.

(٥) معنى الأثرة: الأنانية وحبّ النفس، وتطلق على ما لا يهدف إلا إلى نفعه الخاص، عكسها الإيثار..

(٦) الديوان ص ١١٥ و.

يناقشُ أو يُخالف بعض رأبي فابهجُ بالنقاش وبـالخلاف
وأوثر أن أكونَ مُحِبُّ حُرِّ فحُرُّ الرأبي أمثُلُ من تصافي

وجمال الصورة يكمن في أمور عدة أهمها: هذا الاستفهام الذي خرج من معناه الحقيقي إلى الطلب في البيت الأول، وكذلك أفعل التفضيل في البيت نفسه " له أدبٌ أرق من السُلاف " فقد عكس نفسية المنشئ وما ينشده في خليله من طبع رقيق ، وهذا دليل على رقة طبعه، وفي تصوير رغبته في اصطفاء هذا الخليل بالفعل المضارع "أهيم" دليل على شدة حاجته إلى هذا الخليل، وهو لا يتغيا فيه رقة الطبع فحسب بل شدة الذكاء والألمعية أيضًا ، وفي إثارة أفعل التفضيل "أبهج بالنقاش وبـالخلاف" دليل آخر على حسن خُلقه ورقة طبعه فهو لا يتعصب لرأبي ولا تروقه السفسطة والمحاجة انتصارًا لباطل، ومثل هذه الصور تدل على أنه صادق الود مخلص في الصداقة،

وبعد فقد رسم الشاعر - كما نرى - بعواطفه ومشاعره وإحساساته المرهفة، وحبه للجمال، وفتنته بالطبيعة، مع خصوبة ذهنه وقوة خياله، ونضج ملكاته، وتنوع ثقافته مع ترف الحضارة التي غمرت البيئته التي عاش فيها، و استلهم منه الكثير من صور الخيال، ويلتقط من الطبيعة شتى الصور والأشكال، كل هذه المرفدات وسواها نمت في نفسه ملكة التخيل والتصوير، ونفحته بروائع الصور وجيد التشبيهات. وقد استمد صورته من الإنسان والطبيعة من حوله، ومن الثقافة ومن الموروث الشعري، وكانت جل صورته معبرة تعبيرًا صادقًا عن مشاعر نفس قلقة تشعر بالوحدة وتعيش الأسى تتجرع مرارته .

- الموسيقى:

الموسيقى - كما قال ابن طباطبا^(١) - أحد أركان الشعر الأربعة، والشعر دون إيقاع موسيقي لا يسمى شعرًا، يقول: " الشعر - أسعدك الله - كلام منظوم، بائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم، بما خص من النظم الذي إن عدل به عن جهته مجّته الأسماع، وفسد على الذوق". "ونثر الكلام قد يشتمل على نوع من الموسيقى نراها في صعود الصوت وهبوطه ... إلا أن (الوزن) يمثل جزء الشعر الذي بدونه يفقد قوامه، فموسيقى الشعر أساس جماله وكماله " ^(٢) فهي التي تضيف إلى الكلمات، وهي التي تصل بمعاني الشعر إلى قلوبنا بمجرد سماعه، وكل هذا يثير فينا الرغبة في قراءته وإنشاده. وتتمثل موسيقى الشعر في نوعين أساسيين، الموسيقى الخارجية، والتي يضبطها علم العروض (الوزن والقافية)، والموسيقى الداخلية ويكتنفها نوعان هما الموسيقى الظاهرة (الجناس، حسن التقسيم والتوازن بين الألفاظ والجمل،

(١) عيار الشعر، شرح وتحقيق، عباس عبد الساتر، مراجعة، نعيم زرزور، ص ٩، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،، الأولى ١٩٨٢م.

(٢) في النقد الأدبي / عبد العزيز عتيق ، ص ١٧ ط. دار النهضة العربية - بيروت - الثانية ١٣٩١ هـ ١٩٧٢م ط. الثانية.

جرس الحروف) والموسيقى الخفية وهي: (روحية تتبع من جو التجربة والتفاعل والانسجام بين العناصر الفنية^(١)) والتمثلة في الإيقاع المنبعث من تناغم الوحدات داخل البيت وإيقاع العبارات والجمل.

وما دام هناك تناسباً بيناً بين الوزن وبين ما يحمله من سمات تميزه عن غيره، فهذا يؤكد صلة الوزن بالمعنى - وقد فطن حازم إلى هذا التناسب وأن هناك صلة وثيقة بين الوزن والمعنى فبينهما علاقة احتواء تقوم على التناسب، فأصبح لكل وزن من الأوزان مجال يختص به وغرض لا يفارقه^(٢).

وقد فصل مزايا كل بحر قائلاً: " فإن بحر الكامل له جزالة وحسن اطراد، والبسيط له بساطة وطلاوة، والطويل له بهاء وقوة، وفي الوافر الذي يوازيه بالكامل ويلحقه بالأبحر الثلاثة الأولى، والمديد المشتهر رقة ولينا ورشاقة، والمنسرح يغلب عليه الاضطراب، والتقليل ..."^(٣).

وأول ما يلاحظ على التجربة عند شاعرنا - فيما يخص جانب الموسيقى - عنايته بموسيقاه وبما يحقق لتجربته قدرًا كبيراً من الإفضاء والتعبير عن الخواطر والمشاعر.

وقد نظم الخضر تجربته الشعرية في إطار القوالب الفنية الموروثة، وصاغها على ثمانية بحور عروضية، تفاوت دورانها عنده قلة وكثرة، ويمكن تصنيفها من حيث استخدامها في تجربته إلى ثلاثة مجموعات:

الأولى: بحور كثيرة الاستعمال: كالرمل، والكامل، والطويل، والوافر.

الثانية: بحور متوسطة الاستعمال: كاليسيط، والخفيف.

الثالثة: بحور قليلة الاستعمال: كالسريع والمتقارب.

وبعد الحصر والاستقصاء لديوان شاعرنا أمكن عمل إحصائية تقريبية توضح - بالنسبة المئوية

إجمالي أبيات الديوان واستخدامه للبحور الشعرية وهي كالاتي:

النسبة المئوية	عدد الأبيات	البحر العروضي
٢٨%	٥١٠	الرمل
٢٥%	٤٦١	الكامل
١٦%	٢٩٠	الطويل
١٣%	٢٣٣	الوافر
١٠%	١٧٩	البسيط
٧%	١٣١	الخفيف
١%	١٨	المتقارب

(١) أوزان الشعر العربي وموسيقاه مع تطبيق على مدارس الشعر العربي في العصر الحديث ومحاولات التجديد العروضي

د/ محمد أحمد فايد هيكل، ص، ١٢، الضحى للطباعة النشر طبعة، ٢٠١٨م.

(٢) السابق نقلاً عن حازم القرطاجني.

(٣) حازم القرطاجني: حياته ومنهجه البلاغي، عمر إدريس عبد المطلب، ص ٥٩، دار الجنادرية للنشر والتوزيع السعودية، ٢٠٠٩م.

النسبة المئوية	عدد الأبيات	البحر العروضي
٠.٣%	٥	السريع

من خلال هذه الحصر وهذه الإحصائية، تبين أن بحر الرمل قد احتل المرتبة الأولى من بين بحور الشعر المعروفة عند الشاعر.

ولعل ما في بحري " المديد، والرمل " - كما قال د. جابر عصفور - من اللين كانا أليق بالرتاء وما جرى مجراه منهما وغير ذلك من الأغراض^(١)، وقد نقل رأي حازم القرطاجني في مناسبة المديد والرمل للحالات التي تتطلب إفراغ شحنة من الألم والشجن قائلاً: " وانتهى حازم إلى أن المديد والرمل - مثلاً - أليق الأوزان بالرتاء وأنسب لإظهار الشجو والاكنتاب، ومحاكاة الأحوال الشاجية لما فيها من اللين"^(٢). ومن هنا كثر استخدام الخضر للرمل، لأن أغلب أشعاره ماهي إلا زفرة مكظوم وأنة مكلوم، وأسف على الفضيلة التي عقرت في دارها، ونعي للعروبة والإسلام لما استباح من حماهما.

يقول في قصيدته "أعمار زائفة" من الرمل^(٣):

وَأَرْتَجِّعُ الْعُمُرَ مَا لَا يُسْتَتَاعُ	نَفَدَ الْعُمُرُ وَفِي الْقَلْبِ ارْتِيَاعُ
يَا كَيْ لِي فِيهِ نُهْوضٌ وَارْتِفَاعُ	مَثَلِي لَمَّا انْقَضَى دَهْرٌ وَلَمْ
دَأْبُهُ إِلَّا جُؤْمٌ وَاضْطِجَاعُ	طَائِرٌ هَيْضَ جَنَاحَاهُ فَمَا
تُعْرَضُ الْأَعْمَارُ فِيهَا وَثَبَاعُ	مُرَّ يَا سَائِقُ بِالسُّوقِ الَّتِي
مِنْهُ بِالْإِحْسَانِ أَعْوَامٌ وَسَاعُ	عَلَّيْ أَبْتَاعُ عُمُرًا أُفْعِمَت

* * *

سَاحَةُ الْفَسِيحِ زُرُوعٌ وَرِبَاعُ	قِيلَ: هَذَا عُمُرٌ مَثْرٌ عَمَرَتْ
سَعِدَتْ فِيهِ عُرَاةٌ وَجِيَاعُ	قَلْتُ: عَمُرٌ مِلْؤُهُ الْبِرُّ وَكَم
مَا لِهَذَا الْعُمُرِ فِي الْإِحْسَانِ بَاعُ	فَإِذَا الْإِمْسَاكُ يَوْحِي حَوْلَهُ

وإذا كان الخضر قد وفق في اختيار البحر الشعري الذي يسمح بتصوير شدة الأسف والندم على ماضى من عمره، فقد وفق في اختيار القافية المقيدة التي عبرت عن ضيق صدره ويلي الرمل في تجربة الخضر بحر الكامل، ويلي الطويل: وهذا البحر يصلح لمقاصد الجد كالفخر

(١) ينظر مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي، جابر عصفور ص ٣٢٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب - الخامسة

سنة ١٩٩٥م.

(٢) السابق ص ٣٨٢.

(٣) الديوان ص ١٣١.

ونحوه ، كما أنه من البحور كثيرة الاستخدام في الشعر العربي، وله شهرة واسعة، إذ فيه جرس واعتدال وطول نفس ، وهو بحر الجلالة والناבלه والجد والعمق ، كما أن البسيط هو أخو الطويل في الجلالة والروعة، إلا أن الطويل أعدل مزاجًا منه ، ففيه قوة وعنف، ويصلح لرقيق الكلام^(١).

يقول مبيّنًا كيف أن عين الرضا عن كل عيب كليله من الطويل^(٢).

غلا في امتداحي ملهج بمحبتني
يدس أخو الحقد المزايا ورُبّما
وللحبّ عَيْنُ أبتني البيت من حصي
رويدك زَنُّ بالقسط ما رقمت يدي
وأسرف في ذمي المصر على حقد
طلاها بأصباغ الذنوب على عمد
فتبصره ذرًا على القرب والبعد
على ورقٍ تخُبر حقيقة ما عندي

ويقول مصورًا حسن العهد بين الأصدقاء^(٣).

رعى الله حسن العهد هزّ قريحة
وما الكلم الفصحى سوى دُرِّ إذا
وربّ قصيدٍ هاج ذكرى تثير من
قصيد بدا من أفق أرضٍ نشأت في

حمذنا سراكم يوم وافيت قادمًا
طلعت علينا واشتياقي لتونس
فأهديت طاقات من الأانس طالما
لقيت بلقياك الأريب الذي حكى
على الطائر الميمون للحج قاصدا
يقلبُ جمرا بين جنبي وإقدا
بكرت لها بين الخمائل ناشدا
بسيرته الحسناء جدًا ووالدا

فالأبيات تفيض رقة وعضوبة وتعكس صدق الود، وصيانة العهد.

من الجدير بالذكر أن الخضر وإن ساغ معظم تجربته على النظام الخليلي المعهود الذي يتميز

(١) الصورة الفنية في شعر دعبل الخزاعي د/ علي إبراهيم أبو زيد ص ٣٩٢ دار المعارف - الثانية ١٩٨٢م.

(٢) الديوان ص ٨٤.

(٣) السابق ص ٨٥ : ٨٧، وينظر على سبيل المثال مقطوعة التواضع والكبر ص ١٠٧ ، تحية المقام النبوي ومناجاة

الرسول ص ١٣٥ وما بعدها والتي مطلعها:

كأنني أحدو بالسلام مُودَعًا

أحيك والأماق ترسل مدمعا

والأبيات من ص ١٣٩ ... الخ.

بوحدة الوزن والقافية، فإن بعضها جاء على صور من صور التجديد كالموشح^(١)، والمربع^(٢). ولعل ميل شاعرنا إلى النسيج على نظام الموشح،، لتمايز هذا النوع عن غيره بالتنوع والتآلف بين القوافي مما يعطي الأبيات إيقاعا موسيقيا واضحا بحيث تبدو الموشحة وكأنها معزوفة موسيقية تتجاوب الأنغام فيما بينها من ناحية أخرى^(٣). ورغبته في إظهار موهبته، وإيضاح أن بإمكانه النظم على ما نظم عليه أسلافه من ناحية. ومن نماذج الموشح عند الخضر قوله في مطلع موشحته صقر قریش^(٤):

خَلَّ نَفْسَ الْحَرِّ تَصَلِّيَ النَّوْبَا	لا تُبَالِي
لَيْسَتْ الْأَخْطَارُ إِلَّا سَبَبًا	لِلْمَعَالِي
يَا مَكْبَا بَيْنَ ظَبْيِي أَدْعَا	وَمَهَابَا
إِنَّمَا الْهَمَّةُ فِي حِجْرِ الْحِجَا	كَالذَّبَابَا
أَفْلا تَبْذُلُ إِذَا تَقْضَى الدُّجَى	فِي سَبَابَا
فَإِذَا بَتَ تَجَارِي الْكُوكْبَا	فِي مَجَالَا
كُنْتَ كَالضَّرْغَامِ يَمْشِي الْهَيْدَبِي	لِلنَّزَالَا
مَا لَهْذِي السَّمْهَرِيَاتِ فَخَارَا	فِي الْحِرَابَا
غَيْرَ عَزَمَ هَزَهُ حَامِي الذَّمَارَا	بِالْتِهَابَا
أَتَرَى الرَّامِحَ ذَا قَلْبٍ يَغَا	فِيهِ هَابَا
جَرَّ فِي الْأَفَاقِ رَمَحًا سَاهَبَا	بِاخْتِيَالَا
وَهُوَ كَالْأَعْزَلِ لَا يَلْقَى الظُّبَا	وَالْعَوَالِي

ومن أمثله المربع قوله في مربعته " تحية الوطن " ^(٥):

(١) الموشح - كما عرفه ابن سناء الملك " كلام منظوم على وزن مخصوص ، وهو يتألف في الأكثر من ستة أفعال وخمسة أبيات ويقال له التام ، وفي الأقل من خمسة أفعال وخمسة أبيات، ويقال له الأفرع . فالتام ما ابتدئ فيه بالأفعال، والأفرع ما ابتدئ فيه بالأبيات.

دار الطراز في عمل الموشحات ، تحقيق، د/ جودة الركابي، ص ٢٥، دمشق ١٩٤٩م

(٢) أما المربع: فيتحقق في أن تتحد كل أربعة أبيات أو أشطار في قافية واحدة، تختلف هذه القافية عما قبلها، وما بعدها وهناك من المربع ما تتفق فيه قافية البيت الرابع أو الشطر الرابع في كل مربعة بحيث تذكر هذه القافية في البيت الرابع حتى نهاية القصيدة . ينظر: موسيقى الشعر العربي حسني عبد الجليل - الجزء الثاني ص ٣٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩م.

(٣) المرجع نفسه ، ص ٥٠ .

(٤) الديوان ص ١٧٣ .

(٥) الديوان ص ١٨٦ .

حَيَّا رَبِّي تَوْنِسَ ذَاتِ الزُّهُورِ	عَهْدُ الشُّرُورِ
وافتَرَّ في طلعة تلك القصورِ	أُنْسُ البُودِورِ
ما الأُنْسُ في أقداح راحِ تدورِ	ما بَيْنَ حُورِ
أَنَّ التي تَلْفَحْنَا في الصدورِ	نَارُ الغُيُورِ
يا شاطئِ المرَسِي إلامِ الهُجُودِ	فَكَّ القِيُودِ
وكن كما كُنْتَ لعهدِ الجدودِ	غِيْلَ الأَسُودِ
يمرح فيك العِزُّ بين الجنودِ	ضَافِي البُرُودِ
فَأَنْتِ لا تُزْهِي بتلحينِ حُودِ	ونقِرِ عودِ

ونجد عند الخضر ميل إلى تشطير الأبيات ^(١): وقد حوى ديوانه العديد من النماذج من هذا اللون العروضي من ذلك قوله في تشطير بيتين لأحد شعراء العراق ^(٢):

(سَيِّدِ الرِّسْلِ وَمَنْ بَعَثْتَهُ)	سَطَّعَتْ فَاثْقَابُ اللَّيْلِ نَهَارًا
سَلَبْتَ أَمْتِكَ العِزَّ وَكَمْ	(كسبت الكون بهاءً وفخاراً)
(قم إلى النور الذي جئت به)	والورى في غسق الجهل حيارى
تلق نار الغيِّ تسطو حوله	(أفترضى أن يصير النور ناراً)

ومن ذلك قوله: وكان أحد أدباء تونس قد بعث ببيتين إلى الشاعر مقترحاً تشطيرهما فأجاب اقتراحه وهذان البيتان مع التشطير هما ^(٣):

(وختبرهم وأنت بهم خبيرٌ)	بما فعلته جاليهة اليهود
وذكر آل يعرب أين كانوا	(بأن الذلَّ شنشنة العبيد)
(وأن نفوس هذا الخلق تأبى)	حياة تحت سيطرة المسود
وإن خَصَّعت لها فقد استحلَّت	(لغير إلهها ذلَّ السجود)

(١) التشطير هو: أن يعمد الشاعر إلى أبياتٍ لغيره فيضمُّ إلى كل شطرٍ منها شطرًا يزيدُه عليه عجزاً لصدر ، وصدرًا لعجز ، ينظر ، ميزان الذهب في صناعة شعر العرب ، السيد أحمد الهاشمي ، ص ١٤٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ١٩٧٩م.

(٢) الديوان ص ١٠٠.

(٣) الديوان ص ٩٢.

- القافية:

للقافية ارتباط قوي بالمعنى الذي يحاكيه الوزن بالصوت ، فهي مركز ثقل في البيت، وفوق ذلك تعد بمثابة حوافر الشعر ومواقفه، إن صحت استقام الوزن وحسنت مواقفه ونهايته^(١). ولها دور في تأكيد المعنى باعتبارها النهاية البارزة للوزن في البيت وينبغي على الشاعر أن يعني بقافيته وما يقع فيها ، ويتعد في قوافيه عما لا يكون له وقع في النفس بحسب الغرض من ناحية، وبحسب تناسب الوزن من ناحية أخرى، فينبغي أن يتحرز فيها من قطع الكلام على لفظ كريبه أو معنى منفر للنفس عما قصدت إمالته إليه، أم ميل لها إلى ما قصدت أن تنفرها عنه^(٢).

وحرف الروي أهم حروف القافية، فهو الذي تبنى عليه القصيدة، فيقال ميمية أو رائية أو دالية... إلخ. ويرى الأستاذ/ أحمد الشايب أنّ "هناك حروف تصلح للروي فتكون جميلة الجرس لذيدة النغم، سهلة التناول وبخاصة إذا كانت القافية مطلقة، من ذلك الهزمة والباء والداد والراء والعين، واللام بخلاف نحو الناء والذال والشين والضاد والغين فإنها غريبة ثقيلة الكلمات، فكان اختيار الروي من مقاييس الشعر الدقيقة ولا يخالف الجميل المألوف إلا سقيم الذوق أو متصنع"^(٣).

وبما أن للقافية هذه الأهمية فقد أولاها الخضر عناية كبيرة، وحرص على أن يحقق لها قدرًا كبيرًا من العذوبة التي تطرب الأذن وتلذذ السمع، فقد أحكمها وعني بتناسبها وانضباطها وحرص على اطرادها، حتى يحقق لها وقعا وتأثيرا تستلذه الأذن،

وأمكن حصر حروف القافية في ديوان شاعرنا، وعدد مرات استخدامها ونسبتها المئوية في الجدول التالي:

حرف القافية	عدد الأبيات	النسبة المئوية
الذال	٢١٧	١٠.٦٨%
الميم	١٩٧	٩.٦٩%
النون	١٧٢	٨.٤٦%
الراء	١٦٩	٨.٣٢%
الباء	١٥٥	٧.٦٣%
اللام	١٥٠	٧.٣٨%
الهاء	١١٦	٥.٧١%
القاف	١١٢	٥.٥١%

(١) مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي - جابر عصفور ص ٣٢٩.

(٢) السابق ص ٢٣٠ نقلاً عن منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب ابن الحوجة - دار الكتب الشرقية - تونس ١٩٦٦ ص ٢٨٥

(٣) أصول النقد الأدبي، الأستاذ / أحمد الشايب، ص ٣٢٥، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٤م.

حرف القافية	عدد الأبيات	النسبة المئوية
الألف	١٠١	%٤.١٧
الحاء	١٠٥	%٥.١٧
الكاف	٩٠	%٤.٤٣
العين	٨٥	%٤.١٨
التاء	٨٣	%٤.١٠
الفاء	٧٠	%٣.٤٤
الياء	٥٦	%٢.٧٦
السين	٤٣	%٢.١٢
الصاد	٢٢	%١.١٠
الجيم	١٧	%٠.٨٤
الطاء	١٤	%٠.٦٩
الطاء	١٢	%٠.٥٩
الغين	١٢	%٠.٥٩
الواو	٨	%٠.٣٩
الثاء	٥	%٠.٢٥
الشين	٥	%٠.٢٥
الخاء	٤	%٠.١٩
الذال	٤	%٠.١٩
الزاي	٤	%٠.١٩
الضاد	٤	%٠.١٩

وقد أسفرت دراسة القافية عند الشاعر عن عدة سمات لها من أهمها

- التزام الشاعر فيها النظام الاتباعي القديم من وحدة القافية .
- هناك اختلاف في نسبة شيوع القافية في ديوانه ، وأمكن ضبط استعماله لحروف قوافيه على النحو

التالي:

- حروف كثيرة الشيع وهي على الترتيب : الدال والميم والنون والراء، حيث تبين أن مجموع هذه الحروف في قوافيه تمثل نسبة عالية بالنسبة لغيرها كما هو موضح بالجدول السابق .
- وحروف الروى " الراء والميم والنون" من حروف الذلاقة التي تتميز بقدرتها على الانطلاق دون تعثر

في تلفظها ، ولمرونتها وسهولة النطق بها كثرت في أبنية الكلام^(١).

ولعل ميل كثير من الشعراء إلى استعمال هذه الحروف يعود إلى كونها من الألفاظ المجهورة^(٢).

إذ لولا ذلك لفقدت اللغة أهم عنصر فيها وهو تنغيمها وموسيقيتها ورنينها الخاص الذي يميز به الكلام من الصمت^(٣).

كما وظف الشاعر الأصوات الشديدة الانفجارية ومنها " الباء والتاء والجيم والداد والقاف" توظيفا جيدا ، في كثير من قصائده ومقطعاته.

وتأسيسًا على ما سبق تبين أن شاعرنا سار على نهج سابقه في البناء الصوتي لقوافيه في جل قصائده ومقطعاته ، وهذا يبرهن على امتلاكه لأدوات بها قوام الشعاعية، من مادة لغوية غزيرة مكنته من التصرف في قوافيه ، و حسن اختياره للأوفق و الأنسب من القوافي.

وتتنوع قوافي الخضر بين الإطلاق والتقييد، تبعًا للغرض الذي يعالجه والسبب الذي دفعه إلى القول فيه.

وإذا كان الخضر قد نوع في قوافيه، فإن القافية المطلقة كانت أكثر شيوعًا ودورانًا من المقيدة، ويرى د/ إبراهيم أنيس أن " قريب من ٩٠% من الشعر العربي جاءت قوافيه مطلقة لأن القافية المطلقة أوضح في السمع، والأذان قد ألفت أن تسمع بعد الروي شيئاً آخر"^(٤).

وقد عالجت قوافيه موضوعات كثيرة ، كالرثاء، والمدح، والعتاب ، والشعر الوطني ، وشعر الطبيعة و النصيحة والعظة. وقد وفق الخضر - إلى حد كبير - في خلق تجربة شعرية معادلة لتجربته الحياتية وهو يبدأ ويعيد في بيان موقفه من الاحتلال، وما ينبغي على المسلمين حياله، وبيان ما يحكيه الغرب للإسلام والمسلمين في شتى البقاع، وما ينشده في جيل حاد عن الهداية إلى الغواية ، وطالما حذر وأنذر ونصح ووعظ، وكثيرًا ما عبر عن حزنه واغترابه خاصة في الفترة التي قضاها في مصر.

يقول في بائيته في افتتاح جلسات " المجمع اللغوي" بالقاهرة^(٥):

ما زلت تقتنص المنى أسرابا	وتدير من خمير الصفا أكوابا
يُزهى فناؤك بالرمال كراحه	لبست من الذهب المُذاب خضابا
فعلام تشكو الدهر شكوى قاطن	خطفت يد الترحال منه صحابا

.....

.....

(١) معجم العين ج ١ ص ٥٨.

(٢) والحروف المجهورة هي التي تتقبض عن النطق بها فتحة المزمار فيقترب الوتران الصوتيان أحدهما من الآخر. فقه اللغة وخصائصها ص ٢٤٤، والأصوات اللغوية ص ٢٠.

(٣) فقه اللغة ص ٢٤٤.

(٤) موسيقى الشعر. د/إبراهيم أنيس. مكتبة الأنجلو المصرية - الطبعة الخامسة، ص ٢٥٨.

(٥) الديوان ص ٢٣ وما بعدها.

آه تصدع ما بناه الشَّرقُ من
عفت الحياة وكدت من أسفي على
من ذا ينبئني بلهجة ملهم
أنرى المياه القُثمَ تحت سمائنا

مَجْدٍ وأوشك أن يصير يباباً^(١)
مجدٍ تصدع لا أسيعُ شراباً
نبأ يزيج عن الحشا أوصاباً
شفافة ونرى الثماد عباباً^(٢)

فحرف الروي الباء غني بالرنين، إذ هو حرف شديد الانفجار، يجد الشاعر فيه متنفساً للموقف النفسي العنيف والذي يرغب فيه إيصال صوته إلى من يريد إيصاله إليه، وقد دخل الـرَدَف^(٣) هذه القصيدة وهو -هنا- حرف الألف ووجود حرف المد في القافية سبب في وضوحها و شدة ظهور إيقاع الروي، كما أن إطالة الوقوف في نهاية البيت الشعري يساعد على إخراج كامل الطاقة النفسية والشعورية للمنشئ، وهذا من شأنه أن يحدث تناغماً مع المعاني التي يريد الشاعر آداءها والجو النفسي الذي يسيطر عليه.

ويكاد يخلو ديوان الخضر من العيوب المخلة بجمال القافية واستوائها، إذا استثنينا " التضمين " الذي وقع فيه الشاعر كثيراً، ولا غرو فشاعرنا أديب أريب عانى الشعر منذ صغره ووقف على عيوبه وما يستجاد منه وما يستهجن.

ومن نماذج تضميناته قوله^(٤):

وما الحادي بشعر أبي فراس
بأعذب من صدى قلم تهادى

وقد حبست أنامله الرِّباباً^(٥)
على طرسٍ يخط به كتاباً

(١) اليبابُ : الخراب و اليبابُ: الخالي لا شيء فيه.

(٢) القتم: جمع الأقم: وهو الأسود. الثماد: الماء القليل لا مادة له.

(٣) الـرَدَف هو : أن يسبق حرف الروي حرف من حروف المد ، (الألف ،الواو ، الباء) وفي معجم المعاني الجامع الـرَدْفُ (في الشعر) : حرف لين ومدّ يقع قبل الروي متصلاً به والجمع : أرذاف ،

(٤) الديوان ص ٣١.

(٥) المقصود به : أبو فراس الحمَداني الحارث بن سعيد الحمداني التغلبي الرِّبَعي، (٣٢٠ - ٣٥٧ هـ / ٩٣٢ - ٩٦٨ م).

شاعر وقائد عسكري حمداني، ابن عم سيف الدولة الحمداني أمير الدولة الحمدانية التي شملت أجزاء من شمالي سوريا والعراق وكانت عاصمتها حلب في القرن العاشر للميلاد. أُسر في إحدى المعارك مع الروم امتاز شعره في الأسر بروميته ، مات قتيلاً في صدده قتله أحد أتباع سعد الدولة بن سيف الدولة. ينظر معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى سنة ٢٠٠٢م، كامل سلمان الجابوري، ج٢، ص٦، منشورات دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، و ويكيبيديا الموسوعة الحرة. الرباب: آلةٌ موسيقيةٌ من العائلة الوترية، وهي عبارةٌ عن صندوقٍ مجوّفٍ، له إطارٌ خشبيٌّ، عليه قطعةٌ من الجلدِ، في أعلاه مفتاحٌ واحدٌ، ويتّصمّنُ وترًا واحدًا يُغزفُ على الرِّبابِ

وقوله^(١):

لو لم أخف وخز تثريب يصول به
لقلت: لا شعر إلا في قريحه مَنْ
عليّ ناقد شعري من بني مُضَر
بييتٌ من شقوة الأوطان في سَهَر

وقد يحتاج تمام المعنى عنده إلى أكثر من بيت وبهذا يقع التضمن عنده في ثلاث أبيات أو يزيد، من ذلك قوله^(٢):

أَسْرَبَ القَطَا والبَيْنُ أَقصى مغانينا
أَجِنُّ إلى المغنى الأنيسِ وأَيْقِي
أعرني جناحًا فالمسالكِ وِغْرَة
تمليت أنسا في رباها لياليا
تجوبُ لملقاه القري والفيافيا
وأخفاف تلك العيس أمست دواميا

هذا وإن جاءت بعض تضميناته معيبة لحاجة البيت إلى البيت الذي يليه حتى يتم المعنى الذي أراده الشاعر ، فكثير منها ليس كذلك، إذ قد يكون البيت الأول قائمًا بذاته بيد أنه يحتاج إلى تفسير أو توضيح يقوم به البيت الثاني ، فيكون الثاني في اقتضائه الأول كاقضاء الأول له، وما يقع من هذا النوع لا يعد عيباً^(٣).
ومن ذلك قوله^(٤):

لا تـرْجُ من غـادِةٍ فتاة
ما كنت تلقاه من فتاة
تبنني عليها وأنت شـيخُ
وللشباب الغـريض شـرخ

وقوله^(٥):

وليس الشعر بالصمصام يلوي
بل الشعر الحكيم ثقاف سُمرِ
شعورٌ فائتلاف فاتحـادٌ
ذراعي من يضبُّ الهون بحتا^(٦)
تسميها القلوب إذا نطقتا
فعزمٌ يسحُّ الإرهاق سَحْتا^(٧)

- الموسيقى الداخلية:

(١) الديوان ص ١١٣، وينظر ص ٢٣، ١٣١، ١٣٥.

(٢) الديوان ص ٢٤٦، ٢٤٧.

(٣) أوزان الشعر العربي وموسيقاه د/ محمد أحمد فايد هيكل ص ٩٦، ٩٧،

(٤) الديوان ص ٦٩.

(٥) الديوان ص ٤٣.

(٦) يقال: رَجُلٌ صَمِّصَامٌ: مُصَمِّمٌ، ماضٍ في الأمر بعزيمة ثابتة

(٧) سحت الشيء : استأصله

تبين من دراسة الألفاظ عند الخضر، حرصه على اختيار الألفاظ التي تعكس شعوره بما تحمله من دلالة معنوية فوق ما تحمله من دلالة معجمية.

ونقول - هنا- إن شاعرنا - بما أوتي من حاسة فنية وأذن موسيقية - يتخير من الألفاظ أشدها تلاؤماً ، ومن الحروف والحركات أكثرها تناغمًا.

فالموسيقى الداخلية بما تشتمل عليه من موسيقى ظاهرة منبعثة من جرس الحروف و متمثلة في التكرار و الجناس وحسن التقسيم ، والتصريع، الخ ، وموسيقى خفية ، تتبع من جو التجربة نفسه، ومن التفاعل والانسجام بين العناصر وما يحدث من حسن اختيار الشاعر لكلماته ، وما بينهما من تلاؤم في الحروف والحركات ،وكأن للشاعر أدناً داخلية وراء أذنه الظاهرة، تسمع كل مشكلة وكل حرف وحركة بوضوح تام وبهذه الموسيقى الخفية يتفاضل الشعراء^(١).

، ومن صورالموسيقى الداخلية عنده والتي كثر دورانها في تجربته،

- التقفية والتصريع في مطالع قصائده^(٢)، خاصة الطويلة منها، وكذلك المرسله منه إلى أحد أصدقائه، و تلك التي ألقاها في مناسبات خاصة، كذكرى المولد النبوي، وافتتاح المجمع اللغوي بالقاهرة ، أو في تقرّظ قصيدة أو ديوان أو نحو ذلك.

يقول مقفيا في مطلع قصيدته الحائية " مهنئاً صديقه محمد الطاهر بن عاشور بولايته القضاء، بتونس سنة ١٣٣٢ هـ^(٣).

بَسَطَ الْهِنَاءُ عَلَى الْقُلُوبِ جَنَاحًا
فَأَعَادَ مُسَوِّدَ الْحَيَاةِ صَبَاحًا
إِيَّاهُ مَحِيَا الدَّهْرَ إِنَّكَ مَوْئِسٌ
مَا افْتَرَّ ثَغْرَكَ بِاسْمَا وَضَّاحَا

ويقول أيضا في مطلع قصيدته " أى فلسطين" مقفيا:

نصب البغاة على ذراك لواء
وكسوا مرابعك الحسان دماء

(١) في النقد الأدبي/ شوقي ضيف ٩٧ ، ط التاسعة- دار المعارف.

(٢) وتتحقق التقفية في الشعر إذا كان الشطران معتدلان أما التصريع إذا كان الشطران ليسا معتدلين فالأول كقول الشاعر قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل والثاني كقول امرئ القيس

قفا نيك من ذكرى حبيب وعرفان ورسم غفت آياته منذ أزمان

(٣) الديوان ص ٥٦، وينظر أيضًا: ص ٩، ١٣، ٢١، ٢٩.

ويقول مصرعاً^(١):

هما السهما يشتهيان مرمى وما كل السهام يصيد عمرا

ويقول أيضا مصرعاً: ^(٢)

كل امرئٍ برسول الموت موعودٌ وكل أنس بذات البين محدودٌ

ولعل وقوف الشاعر على ما يحدثه كل من التقفية والتصريع من تناغم وتناسب موسيقي بين عروض البيت وضربه، من أثر في نفس المتلقي، كان وراء حرصه عليهما . ورغم كثرة التقفية والتصريع في مطالع قصائده، فإنه جاء طيعاً عفويًا، خالياً من الصنعة والكلفة.

- التكرار:

يعد التكرار من أبرز صور الموسيقى في تجربة "الخضر" فتجده يكرر اللفظ بصيغته أو بصيغ مختلفة، ولا شك أن التكرار له دلالة نفسية فوق دلالاته الصوتية، وفوق هاتين الداليتين يعد مدداً للصورة، ونبعاً فياضاً لخصوبتها، ومولداً للفكرة التي يريد بها الشاعر .

اسمعه يقول^(٣):

قَطَاةٌ غَدَتِ تَطْوِي الفَلَاةَ خَمِيصَةً
رَعَتِ كَلًّا رَطْبًا حَسَتْ مَاءَ مُزْنَةٍ
وعادت تشق الجو وهي تطل من
رَمَى النَّابِلُ مِنْهَا قَوَادِمًا
أَلَمَّ بِهَا هَمُّ اغْتِرَابٍ وَأَذْنَتْ
وَمَرَّ بِهَا سِرْبٌ مِنَ الأُنْسِ طَائِرٌ
أَنَاشِدُكُمْ مَنْ ذَا يُعِيرُ جَنَاحَهُ
أَطِيرُ إِلَى زُغَبِ الحَوَاصِلِ إِنَّهَا
ولا تذكروا الصبّ الذي استمنح القطا

إلى روضةٍ طابّت وطاب صباؤها
ربا بين أحناء الضلوع ارتياحها^(٤)
علاها على بيداء لانت رياحها
ولم يدر رامي النبل أين مطأحها^(٥)
نكباءً بترحالٍ فطال نواحها
فصاحت وقد أجدى عليها صياحها
مطوحةً في القفر قد جناحها^(٦)
خماصٌ وأخشى أن يحين اجتياحها^(٧)
جناحًا فأنذال الطيور شاحها

(١) الديوان ص ٩٩ .

(٢) الديوان ص ٧٦ .

(٣) الديوان ص ٦٠ .

(٤) المزنة: المطرة - ريا : زاد ونما .

(٥) النابل : صانع النبال - مطأحها: مكان السقوط .

(٦) مطوحة : التي طوح بها في الأرض أي ذهب بها .

(٧) زغب : جمع أزغب وهو صغير الريش والشعر .

فمَدَّ إِلَيْهَا السِّرْبُ رَاحَةً مُسْعِدٍ وَطَارَ بِهَا حَتَّى حَمَاهَا مَرَاخِهَا

نلاحظ في الصورة أن الشاعر كرر الكثير من الألفاظ كلفظتي " طابت وطاب" في البيت الأول، و" النابل والنبل" في البيت الرابع "وصاحت وصياحها" في البيت السادس "وجناح وجناحها" في البيت السابع، ولا شك أن للكلمة المكررة وقعها في البيت، ولها مدلولها في الصورة الكلية بحيث لو حذفنا لحيف على المعنى وجار على تمام الصورة التي يتغياها الشاعر، فطابت في البيت الأول تعكس جمال الروضة وغنائها مما كان له أكبر الأثر في إغراء هذه القطاة مما كان سببا في انشغالها عن زغب الحواصل.

وفي تكرار النابل في البيت الرابع، ووصفه بالختل والخداع دليل على حقارة المطلب ودناءة الطبع، كما عكست لفظة "صاحت" في البيت السادس الهم الذي أطبق على هذه القطاة، والصياح فوق ما يعكسه من طلب الاستغاثة وانعدام الحيلة وانشغال البال يعكس مشاعر العوز والحاجة.

ولفظ "جناح" في البيت السابع يعكس ما يعنيه الجناح لقطاة ضعيفة كسيرة، ولو حذف أحد هذه الكلمات المكررة لضعفت الصورة وعجزت عن أداء ما في النفس من مشاعر وأحاسيس.

وقد أثر هذا التكرار على الصورة الكلية وما يتغياها الشاعر منها، فالتكرار أسهم بشكل فاعل في تصوير الموقف برمته، وهول الحدث وشدة وقعه على هذا الطائر الكسير الضعيف كما يحدث أحيانا من حالة الهذيان الذي يهذي بها مظلوم أو مفجوع فتراه يردد ألفاظا مكررة أو متشابهة تعكس ما بداخله من فوران نفسي وغلجان فيخفف من غلوئه بهذا التكرار.

وفي قصيدته "بعض أمراضنا الاجتماعية" كرر لفظتي قالوا وقلنا ثلاث مرات ليعقد خلالها حوارا حيويا بينه وبين من يرون صحة الواقع الآني وخطأ رأيه ورأي من يرى رأيه فيحض خلال هذا الحوار حججه الواهيه يقول فيها: (1)

أيعودُ للشرقِ الحماسَةُ والإبَاء فتعود عزته وبيتهج العلاء؟
قالوا استقام الشَّرق وهو يسير في نهج الفلاح وفي عزيمته مضاء
ولشدَّ ما خضنا الخطوب ولم نرد إلا العلاء وجرت بوادينا دمَاء

قالوا دواء قضاتنا قانون با ريزِ وقانون الإله هو الدواء
سُسنا به الأقوام فانتظمت لنا في الشرق والغرب العدالة والدَّهَاء

قالوا: حوائينا غريب ربِّما يبدي رغائب قد تُعارض ما نشاء

(1) ينظر الديوان ص ١٣: ١٧ .

قننا: الرئيس الحر لا يثنيه عن إصلاح شأن الشعب خوفًا أو رجاء

كما كرر لقب صديقه " السعيد أبا بكر " في مراسلة له ، أربع مرات، يجري من خلالها حوار ، ويبيدي فيها عن رأيه في " ديوانه السعديات. (١)

وفي قصيدته " المعارف والصنائع " كرر لفظة " كنا " أربع مرات ليعكس خلالها أسفا ممضا وتحسرا على ماض زاهر مشرق عزّ عودته، يقول: (٢)

كنا بني الإسلام أصدق لهجة وأصحّ عهدا بالوفاء يؤكد

.....

كنا بدور هداية ما من سني إلا ومن أنوارها يستوقد

.....

كنا بحور معارف ما من جلى إلا ومن أغوارها يتصيد

.....

كنا جلاء للصدور من القذى ولواؤنا بيد السعادة يُعقد

- والجناس:

ومن مجانساته والتي أتى بها في بيتين قوله: (٣)

تدير على الرفاق كؤوس خمر وإن عضوا الأنامل بعد صحو
وتدعوهم بمجلسك الندامى فإن الله يغفر للندامى

ومن جناساته أيضًا قوله في رثاء زوجته (٤):

وهيهات لا أنسى مواطن كنت لي مسالية لا أنسى إلا بمغناك

(١) الديوان ص ٤٢ .

(٢) ينظر الديوان ص ٨٩ .

(٣) الديوان ص ٢٠٨ . ، قد يأتي الجناس بين كلمات في بيت أو بيتين ،

(٤) الديوان ص ١٧١ .

ويتفرع عن الموسيقى الداخلية - كما نكر من قبل - موسيقى خفية تُظهر مدى تفاعل الشاعر بالحدث، وتكون هذه الموسيقى أظهر ما تكون في تصوير التجارب التي تتبع عن أسي ممض ويرفدها الغضب. يقول في الغواية وغلبة الهوى على النفس، وقد رأى قومًا يقبلون على صاحب الوفر والغنى^(١).

رَأُوا فِي كَفِّهِ ذَهَبًا فَطَاشُوا
كَأَنَّ النَّبْرَ نَارًا فِي ظِلَامِ
يَدَارِ الْغِيِّ بَيْنَ يَدَيْهِ صِرْفًا
وَإِنَّ مَرَّ الرَّشَادِ بِهِ تَثَنَّتْ
لِحَا اللَّهِ الْغَوَايَةَ مِنْ طَرِيقِ
إِلَيْهِ وَطَالَ بَيْنَهُمُ الْهَرَّاشُ
وَهُمْ مِنْ حَوْلِ صَفْرَتِهِ فَرَّاشُ
فَتَغْمَزُ الْبِشَاشَةَ وَالْهَشَّاشُ
وَكَشَّتْ تَحْتَ بَرْدَتِهِ رَقَّاشُ
يُنَالُ بِهِ طَعَامٌ، أَوْ رِيَّاشُ

فالقطة تعكس مدى أسف الشاعر وعجبه من مسلك البعض، ممن يجذبون نحو ذوي الثراء ويهشون للقائه، و يزهدون في مجالسة الأتقياء ويرغبون عن يرشدهم إلى طريق الله طريق الرشاد والهداية، طريق السداد والاستقامة، فكلمة " طاشوا " تصور مشهد هؤلاء وما هم عليه من نزق وخفة حين رأوا هذا الغني وما بحوزته من مال، وكلمة " الهراش " تعكس حالة التخاصم بين هؤلاء القوم لرغبة كل منهم أن يكون له السهم المعلى مما في جيب هذا الغني، وشبه حال هؤلاء بالفراش الذي يلتف حول النار.

فكلمات المقطوعة تعكس - وحدها - حال هؤلاء، أما وقد أضاف إلي حسن اختيار الألفاظ هذا التشبيه الذي أنطقه به المشهد واستدعاه الحال، فحال هؤلاء المفتونين كحال الفراش يهفوا إلى النار ليلاً. والبيت الرابع جَسَمَ الغواية والرشاد فكأن الغواية كأس خمر يهفو إليها الولوع بها ويهش إليها ويبدو عليه سيم الارتياح، وكأن الرشاد عبد أبق يستوجب التنكيل والإهانة، وإذا أضفنا إيثار الشاعر لبحر الوافر والذي هو " ألين بحور الشعر يشد إذا أريد منه الشدة، ويرق إذا أريد منه الرقة والعذوبة". ولعل سهوله التعبير - والتي تكفلها موسيقى هذا البحر - هي التي حدت بشاعرنا إلى أن ينظم نغماته في انسيابية وانسجام، وأن يؤثره على غيره، وإذا جاوزنا توفيق الشاعر في ملاءمته بين الوزن العروضي وطبيعة التجربة إلى قافية الأبيات، نجده قد وفق -أيضا- في اختيار حرف الشين رويًا، وهو من الحروف التي قل استعمالها رويًا لتقل موسيقاه، ولعل ذلك يعكس ثقل مسلك هؤلاء على نفس الشاعر، وقلة ارتياحه له، فكان حرف الشين - وهو الحرف الذي من صفاته التقشي والانتشار^(٢) - أنسب الحروف رويًا، إذ

(١) الديوان ص ١٢٢.

(٢) والتقشي: هو " انتشار الريح " الهواء " داخل الفم" وتدفق الهواء الحامل للصوت بين وسط اللسان بغار الحنك وانتشاره في الفم حتى يصل إلي مقدمته . ينظر الجامع الكبير في علم التجويد، ابن علي، نبيل بن عبد الحميد، المجلد الثاني ص ٣٩١، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر ٢٠٠٥ م .

يعكس ما عليه شريحة كبيرة من أبناء مجتمعه، وتفشي هذا المسلك الوبيل فيهم ، فبدل أن يسعى الإنسان جاهدا في تحصيل رزقه بطرق مشروعة، يتملق الغير ويلتف حول ذوي الثراء والجاه رغبة فيما في أيديهم.

وبالنظر في ألفاظ القافية في المقطوعة والتي هي على الترتيب: هراش، فراش، هشاش، رقاش، رياش، نجد أنها عكست المشهد القصصي بتراتبه الزمني وبما يحمله الرجل من دعوة ضمنية إلى الابتعاد عن مجالس اللهو والضلالة، فكلمه هراش في البيت الأول تعكس - كما سبق أن ذكر - التخاصم بين هؤلاء الغواة، وكلمة فراش في البيت الثاني تعكس مشهد التعلق والالتفاف حول الغني، ولفظتي البشاشة والهراش في البيت الثالث عكستا حالة الارتياح التي يعيشها هذا الغوي. كما عكست كلمتي كشت، وراقش في البيت الرابع حالة الضجر وقلة الارتياح لداعي الله، ولفظتي طعام ورياش في البيت الأخير عكستا - كما سبق أن بينا - تقاهة الغرض وخسة المطلب فيما يتهارشون لأجله إذ هو في حقيقته لا يتعدى طعمة أو أكلة.

وقد أجاد الشاعر حين أحسن توظيف إمكانيات اللغة الرمزية مثل تكرار حروف مهموسة كالسين والشين والزاي والصاد التي توحى بالحزن والتألم، ولعل معايشة الشاعر للحدث ورؤيته لأمثال هؤلاء وهم بين إقبال وإدبار كان أحد الوسائل التي ساعدته على حسن الأداء وجودة التصوير.

- البنية الإيقاعية

إن البنية الإيقاعية باعتبارها مدرك صوتي ذات أهمية عظيمة في بث الحالة النفسية التي تكون قد غاصت في مدركات صوتية. (١) ويقصد بالإيقاع (٢) " انتظام النص الشعري بجميع أجزائه في سياق كلي، أو سياقات جزئية تلتزم في سياق كلي جامع يجعل منها نظاما محسوسا أو مدركا، ظاهرا أو خفيا يتصل بغيره من بني النص الأساسية والجزئية، ويعبر عنها كما يتجلى فيها " والايقاع في أصل معناه التدفق والجريان، وهو التواتر بين حالتني الصوت والصمت

والبنية الإيقاعية في تجربة الخضر، لها وجود ظاهر، وقد عكست ما يتعاور الشاعر من هموم وآلام، وأفراح وأتراح وعبرت عن إحساساته ، بالحروف والكلمات .

ومن النماذج التي تتميز بجمال إيقاعها في تجربة الشاعر، وتوفيقه في إيجاد شيء من التواتر والتدفق في بنية النص قوله. (٣)

أَيْهَأُ عَيْشِي وَيَحْلُو هَوَى
فَيَأْتِي فِي فَمِ هَذَا الَّذِي
وَلِي عَازِلٌ وَعَلَيْكُمْ رَقِيبٌ
يُمِجُّ الْمَلَامَ حَصَى لَا يَدُوبُ

(١) رماد الشعر، عبد الكريم راضي جعفر ، ص ٣٠٩، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، ١٩٩٨.

(٢) فلسفة الإيقاع في الشعر العربي، د علوي الهاشمي، ص ٥٣، الأولى ٢٠٠٦م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان .

(٣) الديوان ص ٣٧.

وَفِي عَيْنِ ذَاكَ الرَّقِيبِ قَدَى يُلِمُّ بِهَا وَيَحَارُ الطَّبِيبُ

فجرس ألفاظه وتواترها، أحدث إيقاعا جميلا ومحبا إلى النفس.

ويقول محذرا من تقلب الزمان (١)

لا تغفل في مـرح إذا بتلقاه بتجأ د
بسم الزمان ورحبنا مهمما جفناك وقطبنا

هو إن تصفه مشبها: كالمنجنون تقابا

ويقول أيضا: (٢)

قال العذولُ وقد محضتُ مودتي من يزدهي في نخوة وألفتُ قربه
أحبه وقد ازدهاه تعظُم؟ فأجبتُه لولا التعظم لم أحبه

ويصور شدة ألمه لمرض صديقه قائلا: (٣)

نبئتُ أنك مـوجعٌ فارتعاب قلبي وانقبض
ما ضرَّ لو كُنتُ المري ض وزال عن خلي المرض
وجع القلوب أشد من وجع الجسم إذا عرض
لا خـل إلا من يبيت إذا مرضت على مضض

الوحدة العضوية في الصورة في تجربة الخضر:

الصورة الشعرية في التجربة الأدبية عند الخضر تختلف باختلاف طول القصيدة وقصرها من ناحية، واشتمالها على غرض واحد أو عدة أغراض من ناحية أخرى، " وقد وفق الشاعر في الوصل بين القصائد المتعددة الأغراض وأحسن فيها الانتقال من غرض إلى غرض، و من معنى إلى آخر، ومرد ذلك، قدرة الشاعر الفنية، وعمق فكرته، وتشبع نفسه بها، وامتلاكها أقطاب نفسه، ووقوفه على أدق الملابس التي تربط بين الأغراض. (٤)

(١) الديوان ص ٣٩.

(٢) الديوان ص ٢٣٧. ينظر أيضا ص ٤٢، ١٢٦، ٢٠٨، ٢٣٩.

(٣) الديوان ص ١٢٦.

(٤) د. علي صبح البناء الفني للصورة ص ١٠٥.

فقصيدته في افتتاح جلسات "المجمع اللغوي" بالقاهرة وعدتها، سبعة وخمسون بيتاً قد احتوت على أكثر من غرض شعري، ومع ذلك يشعر القارئ بسريان وحدة فنية في القصيدة بعامتها، فقد استهلها بشكوى الدهر، وتصوير موقف الوداع، وحنينه إلى وطنه، ثم انتقل منه إلى تصوير مكانة مكة المكرمة، والتناء على عرب الحجاز، ودور السيف والقلم في الجهاد ونصرة الحق، ثم الدخول إلى الغرض الأساسي وهو دور المجمع اللغوي في الحفاظ على اللغة العربية، بتمهيد لطيف فيقول^(١):

ما زلت تفتنني المنى أسراباً
يزهى فناؤك بالرمال كراخه
فعلام تشكو الدهر شكوى قاطن
أوجست رعباً إذ رأيت ركائباً
وتدير من خمير الصفا أكواباً
لبست من الذهب المذاب خضاباً
خطفت يد الترحال منه صاحباً؟
حملت إلى مرسى السفين عباباً
.....

صفر المنتبه للرحيل وليتهم
شيعت بالطرف السفينة شاخصاً
هذا الأسى تذكيره نكري رامة
أسلو البقاع سوى تهامة إنها
هي هالة العزب الأولى شادوا على
وأمدهم وحي السماء بحكمة
عرج على التاريخ يمل عليك من
تلقي منابر في صدور محافل
عفت الحياة وكدت من أسفي على
من ذا ينبئني بلهجة ملهم

سموا وغي هذا الصفير نعباً
حتى توارث بالعباب فآباً^(٢)
وتزيده نكري العقيق لهاباً^(٣)
كانت إذا خبروا اليبلاء ألباباً
هام النجوم الزاهرات قباباً^(٤)
ساسوا بها الأجسام والألباباً
خطرات هاتيك النفوس عجاباً
تجري بها نهر البيان عذاباً
مجد تصدع لا أصيغ شراباً
نبأ يذبح عن الحشا أوصاباً

ويمهد - كما قلنا - لغرضه الأساسي فيأخذ في بيان فضل العلم قائلاً:

رمنا السعادة في الحياة فلم نجد
والعلم كاللبن الغريض يطيب إن
لا خير في علم وعثه نقيبته
غير المعارف للسعادة باباً
أنقيت أقداحاً له ووظاباً
كشفت عن الطبع الذميم نقاباً

(١) الديوان ص ٢١ وما بعدها.

(٢) العباب: الموج

(٣) رام: مكان في الطريق بين البصرة ومكة المكرمة - العقيق: واد بظاهر المدينة المنورة

(٤) هالة : الدارة حول القمر جمع هالات

الأمم الحبورَ وفتحوا الأبوابا
سادت تشق من الأسى أجيابا
فزكا جناها في اللغات وطابا
علماء تغزوا أوهدًا وهضابا^(١)
أن تُزدري بين اللغى وتعبا
لهجات قوم سايرته جنابا
في الدرس حرف الضاد والإعرابا
عزمًا يرد الراسيات هبابا

والعرب قدمًا مهدوا لحضارة ال
حضنوا العلوم وأنعشوها بعد أن
هي لجهة حظيت بنطق محمد
لكن عرتها غفوةً وقرائح ال
مسحت عن الجفن النعاس بروعها
ورأى رجال العلم كيف تكاملت
فاسـتتكفوا ألا يكون شعاعهم
نهضوا كما تبغي الكرامة وانتضوا

ووحدة الموضوع ووحدة المشاعر كما يقول د/ علي صبح وسائل جيدة لحسن الانتقال.

و يقول في تقريره ديوان السعديات للشاعر التونسي السعيد أبي بكر^(٢):

تسميها القلوب إذا نطقنا
فعزم يسحّ الإرهاق سحّنا
يروغ عن الهدى ويحوك بيتنا
وفاتته الحقائق وهي شتى
وينفث في مكان الرشد بُهتا
بها إن شئت رفقا واستطعنا
تزحزح عنه بعض القول بغّنا
وإبداع يضاهي الشهب نعنا
فنضب ماؤه واغبر نبأنا
يُمضُّ البابل الغريد مقتنا
ويشدو فوق أملود تمتى^(٣)
هوى فابغ الأناة إليه سمتنا
وسمّ الحزم والإقدام بخّنا

بل الشعر الحكيم ثقاف سُمر
شعورٌ فائتلاف فاتحاد
أبا بكرٍ أعيذك من خيالٍ
وفي الشعراء من ضاقت خطاه
فراح يخال لهو القول جدًا
وشعر العُرب ذو نظمٍ، فرققا
لعل الذوق لا يسلو نظامًا
وكان قريض تونس في صفاء
فلاقى من صروف الدهر عُسقًا
أيزهى بابلٍ في كف طفلٍ
وما هو كالطليق يمس تيهها
أبا بكر أخذت تعيدُ مجدًا
وخلّ البخت يسعى للكسالى

(١) أوهدا: جمع وهده وهي الأرض المنخفضة

(٢) الديوان ص ٤٢.

السعيد أبو بكر: أديب تونسي، ولد في مكنين بالساحل التونسي وتوفى بالعاصمة تونس سنة ١٣٦٧هـ، أصدر مجلة تونس المصورة، له ديوان السعديات مطبوع ومؤلفات أخرى.

(٣) يميمس: يتبخر - أملود: الناعم من الناس والغصون - تمتى: تمطى

فالقصيدة تحققت فيها الوحدة العضوية ، بما تهيأ لها من أسباب، فأسلوبها سلس يجري في عذوبة وتحرر، ويخلو من الجمود، كما فيها اتساق وترابط بين الكلمة وأختها، و أفكارها مترابطة وهذا يدل على قدرة الشاعر الفنية والتي مكنته من الوصل بين الأفكار .

وتبين من خلال القصيدة، رأي الشاعر في الشعر والشاعرية ، ومناط الحكم عليه بالجودة أو الرداءة، والمنهج الصحيح لقرضه، وأثر الحالة السياسية والاجتماعية على الشاعر ونتاجه الشعري، ورأيه في الخيال، كل هذه أسئلة أجاب عنها الخضر من خلال تقريظه لبعض القصائد المبعوثة إليه من أصدقائه عن طريق المراسلات.

فالشعر الجيد - في نظره- هو ما وافق عمود الشعر، ويرى أنه لزاماً على من ينشد الجودة لشعره ألا يتعجل القول - فعليه أن يدير الفكرة في نفسه مراراً حتى تختمر في نفسه، ويتشبع بها فكره، وتملك عليه جميع مشاعره وحواسه، ثم يتخير لها من الألفاظ أدلها على أداء المعنى، ثم يفرغها في صورة محكمة موائمة لحالته ومشاعره.

ويطلب الخضر من الشعراء البعد عن الخيال المجنح، وعليهم أيضاً الحرص على صحة المعنى واستقامته . والبعد كل البعد عن العبث فلا يتخذوا الشعر مطية الهوى والضلال.
يقول مصوراً ذلك (١).

وليس الشعر بالصمصام يلوي	ذراعي من يصبُّ الهون بختا
بل الشعر الحكيم ثقاف سُمر	تسميها القلوب إذا نطقتا
شعور فائتلاف فاتحاد	فعزم يسحت الإرهاق سحتا

وقد بين الشاعر في القصيدة - كما ذكرنا سلفاً - أثر العامل السياسي والاجتماعي على الشعر والشعراء، فرأى أن جودة الشعر واستقامته تتأثر بشكل كبير بالناحية السياسية وما عليها من استقرار أو اضطراب، ومن أمن أو خوف، حتى الفكر السائد في المجتمع حول الشعر ومقاييس جودته، كل ذلك يؤثر في عملية الإبداع وربط الشاعر ذلك بحالة الشعر في تونس قديماً وحديثاً.

فإذا كان الشعر التونسي القديم أهم ما يميزه، الرصانة، والصحة والاستقامة والسير على منهج الأوائل، فإنه في الحديث، قد جافى هذا المنهج، فتدنى نوق الشعراء، وكان لسياسة الاستعمار - القائمة على التطبيع - دور هام في اندحار اللغة العربية وبالتالي اندحار الشعر وارتداده خطوات عن منهج الأوائل.

والشاعر كان صادقاً مع نفسه فقد نقل تجربته في صورة دقيقة معبرة تتميز بتدفق المعاني وتحدرها

(١) الديوان ص ٤٣ .

واختيار أدق الألفاظ لأداء معانيه فقد وصف شعر صديقه السعيد أبي بكر بأنه رصين جزل قوي يذكرنا بشعر القدماء من أمثال بشر بن عوانه العبدي^(١).

فالشاعر يأوى إلى ركن شديد في الفن الشعري ويميل إلى الجزالة والقوة والرصانة، وعكست كلمتي عبوساً ورسينا ما يوصف به الشعر من القوة والرصانة.
وقد عكس قوله:

تجاهد في سبيل يبتغيها غريبٌ غاشمٌ عوجاً وأمتاً^(٢)
تكافحه وقد طفحت يده بعُنفٍ يملأ الأفواه صمماً

ما يُعنيه صديقه في عملية الإبداع فهو يجاهد في طريق ملأها المستعمر صخرًا وحصى، إذ يحاول بسياسته الغاشمة طمس معالم العربية في القطر التونسي، وتأمل ما تعكسه كلمتي، تجاهد وتكافح، مما يعانیه الشاعر من صعوبة النظم الصحيح والقول المستقيم، والقصيدة دفقة شعورية وتجربة حية عكست آراءه في الشعر والشاعرية .

ومن الصور المرابطة الأجزاء التي ينتظم فيها القول انتظاماً وتتسق فيها أجزاء الكلام اتساقاً، قوله مصوراً لوعة الفراق، وخرق الوجد، لفراق وطنه قسراً^(٣):

قف بنا يا حادي الركب مليا فالصبا أهدت لنا أطيّب ريباً^(٤)
قف ملياً هو ذا الرّبع الذي كنت قد أودعته قلباً شجياً
لسئت أدري أرعوا بعد النّوى عهداً أم أحدثوا في العهد شيئاً
قف عسى أن أجنّي الأنس الذي كنت أجنّيه غدواً وعشيّاً
حسبنا في العيش أنا لا نرى بيننا قلباً من الودّ خليّاً
وأحاديثُ هي السراخُ التي مجها في الدن عنقود الثريا

(١) بشر بن عوانه: هو بشر بن عوانة الذي أتى على ذكره بديع الزمان الهمزاني في المقامة البشرية، والذي --- عرض له أسد وهو يبتغي مهراً لابنة عمه، فثبت له وقتله.

والسنبتي: هو النمر

(٢) يقال به اعوجاج أى: التواء، وإنحناء، و الأمت: الضعف والوهن .

(٣) الديوان ص ٢٤٣.

(٤) لملي: الزمان الطويل، : مدة أو زماناً واسعاً، مضى ملي من النهار أو الليل: ما بين أوله إلى ثلثه، أو قطعة منه لا تُحدّ..

رَوَّعَ الْبَنِينَ فَوَادًا لَا يَرَى
وَبَدَا الصَّبْحُ عَبْوسًا بَعْدَمَا
قِيلَ لِي الطَّيْفُ أَنْيْسِي قَلْتُ مَا
عَلِمُوا التَّمَثَالَ يَنْكِي فِي الْحَشَا
لَيْسَ لِي مِنْ سَلْوَةٍ عَنْهُمْ وَلَوْ
فَزَعًا يَوْمَ يَلْقَى الْمَشْرِفِيَا^(١)
كُنْتُ أَلْقَى لَيْلَهُمْ طَلَقَ الْمُحْيَا^(٢)
تَرَكَ الْوَجْدَ كَرَى فِي مَقَلَّتِيَا
لَوْعَةَ الشُّوقِ فَأَهْدُوهُ إِلَيَا
بِتَ طَوَّلِ اللَّيْلِ لِلْبَدْرِ نَجِيَا

وقد وفق الشاعر في تصوير ما يحمله لوطنه من حب وما يكنه من أسى، وما يكابده من شوق ، وقد صور التجربة تصويرًا حيا وجمع لها الكثير من الأدوات التي تعكس الفكرة بوضوح، وأول ما يلقانا في الصورة ، هذا التكرار في صدر البيت " قف بنا" والذي كرره الشاعر ثلاث مرات في الأربعة أبيات الأولى بمادته ، وهذا التكرار لم يأت به الشاعر عبثًا ، بل جاء ليعكس توجعه وشدة أساه ، كما كان مرفدًا قويًا للصورة، ونبغًا لخصوبتها، وثراء لإتقانها وإحكامها.

فالتكرار: يعكس مشاعر حانية من الذكرى، وشوقًا جارفًا لملاعب صباه، ولا يخفف من غلواء هذه المشاعر إلا هذا الوقوف الطويل، الذي يسمح باستعادة الذكرى الجميلة التي يحملها لوطنه وأهله وذويه ف (الصبا) أهدت له عبغًا طيبًا من جهة وطنه يعرف سمته وما يتميز به من رائحة.

وإذا كانت صورة الوقوف على المربع صورة قديمة طالما ردها الشعراء، فقد أضفى عليها شاعرنا من أحاسيسه وما تحمله نفسه من أسى وجوى بين جوانحه ما يجعلها جديدة مشوقة مؤثرة.

فهذا أبو تمام يصور وقوفه الطويل على طلل محبوبته قائلاً^(٣):

طَلَّلٌ عَكْفَتْ عَلَيْهِ أَسْأَلُهُ إِلَى
وَوَظَلَّلْتُ أَنْشِدُهُ وَأَنْشِدُ أَهْلَهُ
أَنْ كَادَ يُصْبِحُ رَبْعُهُ لِي مَسْجِدَا
وَالْحُزْنَ خِدْنِي نَاشِدَا أَوْ مُنْشِدَا

وهذا التكرار من لوازم الصورة في القصيدة بحيث لا تكتمل بدونه، ولا يكون لها نفس التأثير إذا استغنى عنه الشاعر . فجملة " قف بنا" المكررة عكست في البيت الأول شدة حاجته لهذا الوقوف ، كما عكست في البيت الثاني مشاعره تجاه هذه الريح الطيبة، وما تحمله من عبق الذكرى لوطنه، وما أهاجته من مشاعر، فقد أحييت في نفسه هذا الجمال الحسي والمعنوي الذي يتمتع به وطنه، فلا زال يعرف شذاه ويقف على سماته وأسراره.

(١) المَشْرِفِيُّ : سيفٌ يجلب من المشارف، منسوب إليها..

(٢) طَلَّقَ الْمُحْيَا: متهلل ومشرق، باش.

(٣) ديوان أبي تمام، شرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزام،: ص ١٠١، المجلد الثاني ، الطبعة الرابعة، دار المعارف.

كما عكس التكرار في البيت الرابع، شدة الحاجة إلى الرّي، والذي أحسه الشاعر عقب رحيله عن وطنه والذي ولّده النوى.

كما عكس التجريد في صدر القصيدة هذا الإحساس بالوحدة، والذي يحاول الشاعر أن يخفف من غلوائها. والاستفهام في البيت الثاني - لست أدري - يعكس حالة من الحيرة والوله، فإذا كان هذا حاله مع الشوق واللوعة، فهل أحبته يحملون له نفس ما يحمل، ويئون لبعده كما يئن؟ والتكرار على ما بيّنا أقدر الوسائل على نقل ما يحمله الشاعر من أسي، وأقصر طريق لنقل هذه الشحنة الكبيرة من الحزن على فراق مرابع صباه.

والخضِر قد وزّع عناصر الصورة من الحركة والرائحة والحجم والشكل ومن طرق أخرى أشرفت بالصورة على الغاية من الجمال والتمام، فحالة الوقوف تشكل أسي ووجداء، وكأن هذه الذكرى أحدثت لونا من التحجر والرغبة للزوم المكان، مما أدى إلى عدم قدرته على السير ومغادرة المكان. والرائحة في تصوير الأحاديث التي خففت من غلواء البعد بالخمير العبقة، وفعّلها الذي يُخامر الجسم فيحدث به خدرًا ولو موقوتا.

والشكل في تصوير الصبح، كالحا عبوسًا مقطب الجبين، بعد أن كان يراه في وطنه باشًا ضاحكًا طلق المحيا. ونلاحظ تلاحمًا قويًا بين أجزاء الصورة، وإحكامًا وثيقًا بين أجزائها، ولعل امتلاء نفس الخضر بالمشاعر الفياضة لوطنه، وامتلاكه لأدوات الصناعة الجيدة كان وراء هذا التلاحم.

أما الصورة القصيرة والمتمثلة عند الشاعر في المقطوعة - غالبًا - فتكاد لا تخلو منها مقطوعة، إذ المقطوعة غالبًا ما تحمل خاطرة واحدة أو فكرة عابرة لا تتطلب الوقوف عندها مليًا، ولا تسمح بترجمة عواطف كثيرة، بل هي لمحة عابرة وتصوير خاطف لفكرة ما، لذا فإن ترجمة المشاعر في هذه الحالة تكون أسهل تمثيلًا وتصويرًا، وإذا كان الخضر لديه قدرة على الوصل بين المعاني في القصيدة الطويلة فهو في المقطوعة أكثر قدرة وأكثر توفيقًا.

ومن أمثلة الوحدة في مقطّعاته قوله مصورًا شعوره تجاه من تشامخ عليه و تكبر^(١):

وإذا تلاقينا وطرّفك طامح	إلى عرّة أطرقت طرّفني تواضعًا
وإن تلقني يومًا وأنفك شامح	رأيت فتى بين السماكين طالعًا ^(٢)
وما ذقت طعام الذلّ لكن أعافه	كما عفت سُمًا في فم الصلّ ناقعًا
ولا أرتدي الكبر أسحب ذيله	ولو جاء في أسمى الأمانيّ طائعًا

(١) الديوان ص ١٣٩.

(٢) السّماكان: نجمان نيران أحدهما السّمّاك الأعزل والآخر السّمّاك الرامح، ويقال إنهما رجلا الأسد.

والصورة في التجربة تعكس نفساً أبيضاً تعافي الكبر، ولا ترضى المذلة، فرغم تواضعه يتعالى ويتشامخ على من تعالى عليه، ويلبس له رداء العزّة والكبرياء، والصورة فيها من العناصر ما يضمن لها الجودة والدقة، فالشكل في البيتين الأول والثاني والذي يعكس نظرة العين وهيئة الوجه في حالتي الكبر والتواضع، والطعم في البيت الثالث والذي نجح الشاعر في إبرازه باستعانه بالاستعارة المكنية في البيت، وهيئة والشكل في البيت الرابع أيضا قد أسهما في وضوح الصورة، وحيويتها من ناحية، وتصوير صدق المشاعر من ناحية أخرى.

وبعد

فالتجربة الشعرية لدى شاعرنا بما تحمل من تصوير المعاناة، تؤكد أن أدب الخضر أدب إسلامي بما يحمله من رسالة إصلاحية" لمجتمع تشعبت به الدروب وتكالبت عليه الذئاب، من ذلك إلا بالرجوع إلى تعاليم ديننا واتباع هدي نبينا ﷺ وصحابته من بعده، وهذا ما ظل يدعو إليه خلال تجربته فالأدب الإسلامي كما قال نجيب الكيلاني: " ليس أدب نحيب وبكاء وتعبد للألم، لكنه تصوير لهذا الأسي النفسي تصويرا يرتبط بمعاني المعاناة والتطهر والثورة على أسباب العذاب، والمعاناة نقطة تحريض وانطلاق إلى أفق الانشراح والابتسام والسعادة^(١).

البناء الفني للقصيدة في تجربة الخضر: (٢).

يعد البناء الفني أساسا تشكليا وجماليا من أسس العمل الأدبي، وكل عمل أدبي له خصوصية بنائية معينة ومحددة تتلاءم وطبيعة هذا العمل^(٣).

وينقسم البناء الفني في العمل الأدبي إلى البناء الهيكلي، أو الشكلي، أو ما يسمونه، البناء المنجز، ويندرج تحته: تطور القصيدة الشكلي،: أرجوزة، مقطوعة، قصيدة، موشح... الخ، وأجزاء القصيدة: مطلع، مقدمة، تخلص، موضوع، خاتمة. وإلى البناء الداخلي، الذي يشتمل على معالجة عدة قضايا أهمها: توصيف اللغة الشعرية، الألفاظ، التراكيب، الأساليب، والإيقاع الخارجي، الداخلي، والصورة الفنية، عناصرها، أنواعها، التشخيص، التجسيد، التجسيم، وتوصيف الرموز، والأفكار، والعواطف، والأخيلة^(٤).

وإذا كان البناء الفني قوامه عناصر يؤازر بعضها بعضاً على نحو يُنمي الغرض ويتم المعنى حتى

(١) الإسلامية والمذاهب الأدبية أ / نجيب الكيلاني ط. مؤسسة الرسالة، بيروت، ص ٧٣. طبعة، ١٩٨٧م ،

(٢) يفرق بعض النقاد بين البناء الفني للقصيدة وبين هيكلها فيقولون بأن هيكل القصيدة هو ما يخص المقدمة والخاتمة أما البناء فيتحقق بتأزر الشكل مع المضمون .

(٣) مستويات البناء الشعري عند محمد إبراهيم أبو سنة ، أ/ شكري التوانسي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الأولى، ١٩٩٨م .

(٤) المرجع نفسه .

يتم للشاعر تصوير تجربته فإن هذه العناصر وإن بدت لنا متعددة فهي في الحقيقة عالم متماسك متجانس تتلاقى فيه الأفكار وتتعاقب في حركة نامية متطورة^(١).

وتبين من خلال الدراسة أن لدى الخضر قصائد طوال ومتوسطة الطول وقصيرة، كما أن له مقطعات ومنتف ، فله قصيدة بلغ عدد أبياتها ثنتان وثمانين بيتاً، وهي قصيدته: "مشاهداتي في الحجاز" ، وله موشحة بلغ عدد أبياتها مائة واثنين وعشرين بيتاً وهي موشحته: "صقر قريش" "عبد الرحمن الداخل" ، نشرت هذه الموشحة في مجلة البدر التونسية ثم أعيد نشرها في مجلة الهداية، ونسأل بدورنا عن هذه الموشحة فنقول هل كان نظمه لهذه الموشحة لينعى العرب في مجدهم الزائل، ويحيي فيهم روح الفداء والتضحية والصمود من أجل الدين ورفعة شأنه، أم نظمه لها جاء مصادفة؟ أعمد إلى هذا القالب ليذكر المسلمين بحضارة بناها سلفهم، وأثمرت وآتت أكلها وهدمها الخلف بتفريطهم وانشغالهم بأمور شخصية؟، فقد راج هذا الفن في الأندلس بل هناك آراء تؤكد أنه وليد هذه التربة من أرض الإسلام.

كما أن له تسع قصائد يربو عدد أبياتها على الخمس وثلاثين بيتاً، وتسع وأربعين قصيدة يتراوح عدد أبياتها ما بين التسعة أبيات إلى الأربعة والثلاثين بيتاً

كما تبين أن جل قصائده التي يتراوح عددها بين التسعة أبيات إلى الخمس وثلاثين بيتاً اكتنفها شعر المناسبات، كما في قصيدته في افتتاح المجمع اللغوي ١٩٤١م. وقصيدته تحية مجمع اللغة العربية والتي قيلت في افتتاح أولى جلساته، وقد بلغ عدد أبياتها سبع وخمسين بيتاً، وقصيدته خواطر في دمشق، والتي قالها في حفل وداع له من أهل الشام ١٣٦٣هـ وقد بلغ عدد أبياتها الأربعين بيتاً، وقصيدته في ذكرى المولد ١٣٥٩هـ فقد بلغت أبياتها تسع وثلاثين بيتاً

كما اتضح من خلال الحصر والاستقراء أن جل قصائد الخضر قيلت ما بين عامي ١٣٢٢هـ و١٣٧٢هـ فقد ولد عام ١٢٩٣ وتوفي عام ١٣٩٧هـ، ومعنى ذلك أنه قال الشعر وهو دون الثلاثين وظل عطاؤه الشعري قرابة الخمسين عاماً ، وهذا يؤكد غزارة مادته ، وخصب قريحته وأنها لم تنضب يوماً إلى أن وافته منيته.

وتأكد من خلال الدراسة، تمتع قصائده القصار ومقطعاته ومنتقه بقدر كبير من الانطباعية، وقوة العاطفة، وسهولة التعبير، وتماسكها في نفس الوقت، ولعل ذلك يعود إلى أن هذه الأشعار غالباً ما كانت وليدة الساعة، ومبعثها التأثر الآنيّ بمشهد معين أو حدث ما حرك مشاعره وأخذ بلبّته، فدفعه للقول، فالشاعر ليس مقيداً في هذا اللون من الشعر بما يحول بينه وبين حرية التعبير والافضاء بما في النفس . أما قصائده الطوال فمع أن الشاعر فيها مقيد بقيد المناسبة والموضوع الذي أخذ في معالجته، فإنها لا

(١) بناء القصيدة في النقد العربي القديم (في ضوء النقد الحديث) يوسف بكار، ص ٢٣، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٩٨٣م.

تخلو من النظرة الذاتية، والتعبير عما في النفس من خواطر، ف شعره الموضوعي هو في حقيقته تعبير عن رأيه الذاتي في الموضوع الذي أخذ في معالجته، لذا نجد على هذا الشعر مسحة من الجمال ، وتمتزج فيه النظرة الذاتية والموضوعية .

وإذا كان البناء الفني يتكون من عدة عناصر أهمها المقدمة والغرض أو (الموضوع) والخاتمة ، فإن لكل عنصر من هذه العناصر سمات تخصه ،ويحكم عليه من خلالها بجودته أو رداءته، لذا حسن الوقوف عند عناصره ومكوناته بشئ من التفصيل، ولنبدأ بالبناء الخارجي وأول ما ينبغي البدء به من عناصر القصيدة.

المقدمة:

ومقدمة القصيدة عند الخضر تختلف باختلاف الموضوع ، فإذا كان الغرض من القصيدة يمس جانباً اجتماعياً أو تربوياً ويتعرض لمشكلة تؤرقه أو سلوك غير مرض، فإن المباشر هي خياره الأوحده .

فمباشرة الموضوع تعد أبرز سمات البناء الفني عند الخضر، فغالباً ما يأخذ في معالجة موضوعه دون تمهيد أو تقديم، وغالباً ما تكون هذه المباشرة هي الأليق والأوفق لموضوعه، لأنها تعكس حالة شعورية جامحة لدى الشاعر، تتطلب الإفراغ وسكب لواعج النفس وهذه الحالة لا يستجاد معها تمهيد أو تقديم.

فتراه يعني الإنسان في سوء خلقه رغم ما حصَّله من معارف، وأحرزه من تقدم في الصناعات، والعلوم والمعارف، من طب وهندسة وفلك وغير ذلك ، فيقول متحسراً في قصيدته " أيها الإنسان"^(١):

حتى تقنَّصت آسادَ الشرى برُبِّي
فغصت تلقط ذراً تحتها رسبا
وبت ترصدُ منه السبعة الشُّهباً^(٢)
جياذ أو لقيت من سَيرها نصبا
ما يُمتعُ السَّمعُ منها أينما ذهب
صعدت في الجَو تحكي الطير والسُّحبا
طبَّ وحزبٍ فكننت البُرَّةَ والوصبا^(٣)
بحكمة البَحْثِ كنهة الأمر والسُّببا
أكملت في نَفْسِكَ الأخلاقَ والأدبا

أما كفاك ظباءً أو مهَّما برُبِّي
وما قنعت بما يطفو على أجاج
قأبت وجهك بعد الأرض في فلك
صغت الحديد مطايا إذ تلبثت ال
واشتقت نجوى أليف فاهتديت إلى
ما ضاقت الأرض يوماً عن خطاك لما
حُبَّ الحياة استثار العزم منك إلى
أرسلت في كُلى وإد رائداً فدرى
لكنني ما دريت اليوم أنك قد

(١) الديوان ص ٢٧.

(٢) شُهْبُ جمع شهاب وشهب الشُّهْر : ثلاثُ لَيالٍ من الشُّهْرِ القَمَرِيِّ تَكُونُ مِنَ الثَّالِثِ عَشَرَ إِلَى الخَامِسِ عَشَرَ مِنْهُ . ، وأراد بالشهب : الكواكب السبعة السيارة ، وسميت شهباً لضياؤها ، و واحدها ، على هذا القول ، أشهب . وقيل : شبهت بالنار في توقدها. ينظر آثار أبي العلاء المعري مجلد ٢ جزء ١ ص ٣٧ الناشر الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٤.

(٣) الوصب: المرض

وهذه المباشرة دليل الانطباعية والبعد عن التكلف، وكما قال ابن أخيه أ/ على الرضا الحسيني في مقدمة ديوانه: " لم يكن الشعر في نظره إلا دافعاً للشعوب التي تقاسي الاضطهاد ، وحماساً لها ضد الجور والظلم ... وإذ وصنع القريض نقدًا ، فالإصلاح غايته ومرماه"^(١).

ويقول في مطلع قصيدة مصورًا بعض أمراضنا الاجتماعية^(٢):

أيعود للشرق الحماسة والإباء	فتعود عزتُهُ وبيتهج العلاء
قالوا: استقام الشرق وهو يسير في	نهجُ الفلاح وفي عزيمته مضاء
ولشد ما خضنا الخطوب ولم نُرد	إلا العُلا وجرت بوادينا دماء
قلنا الدعارة لم تزل في أرضنا	ولرهِطها في كل حاضرة لواء
تلك الخمور تدار في غلنٍ ولا	لوم ينال المعلنين ولا جزاء
كم من مآذب في البلاد تقام في	رأد الضحى وعلى موائدها الطلاء

وإذا كان كثير من شعر الخضر عبارة عن مقطعات - والتي من طبيعتها المباشرة - فإن البعض منه سار فيه على المنهج التقليدي القديم ، فإذا كان القدامى قد استوقفوا الركب ليقضوا وطهرهم في استرجاع الذكرى التي تمثل لهم زمنًا حاليًا طالما سعدوا ونعموا في ظلّه بصحبة أحببتهم، فإنه استوقف الركب أيضا . يقول في مطلع قصيدته "لوعة الفراق"^(٣):

قف بنا يا حادي الركب مليًا	فالصبا أهدت لنا أطيّب ريًا
قف بنا هو ذا الربيع الذي	كنت قد أودعته قلبًا شجيا
لست أدري أروعوا بعد النوى	عهدًا أم أحدثوا في العهد شيا
قف عسى أن أجنّي الأنس الذي	كنت أجنّيه غدوا وعشيا

ومطلع القصيدة يحكي أحاسيس ومشاعر حانية تجاه ملاعب صباه ، وإذا كان بعض نقادنا المحدثين رأى أن وقوف الشاعر الحديث على ربع الأحبة ضربًا من التكلف والصنعة^(٤) - إذ ليس في البيئة الحديثة ربوع وأطلال - فإن شاعرنا وقف على ربوع الأحبه ، رغم وقوفه واستوقفاه كان صادقًا ، فبيئته التي هجرها

(١) الديوان ص ٣.

(٢) الديوان ص ١٤ وانظر على سبيل المثال قصيدته فلسطين ص ٩ وقصيدته العرب والسياسة ص ١٨ وقصيدته أيها

الإنسان ص ٢٧.

(٣) الديوان ص ٢٤٢.

(٤) الديوان ص ٢٤٢.

قسراً هي بالنسبة له ولكثير من أنداده ونظرائه ممن هجرو أوطانهم، ربغاً حالياً طالما تلبوا في نعمائه وتقيؤا ظلاله، أضف إلى ذلك أن "نقطة" مسقط رأس الخضر بلدة صحراوية في جنوب تونس، ذات واحات من النخيل، ومياه عذبة صافية، كما كانت مقراً للعلم وقبلة للعلماء وكانت تكنى بالكوفة الصغرى. (١) فهي أقرب إلى البداوة منها إلى الحضرة. ويقول "طامي دغليب" في مقاله ثقافة الطلل في النص الشعري المعاصر: "إن ما نريد أن نخلص إليه من هذا العرض أن المثاقفة بين النص الشعري المعاصر والنص الشعر التراثي، قد ولدت ثقافة جديدة في النص الشعري الجديد، تجلت في تخلي هذا النص عن المقدمات الطللية التقليدية في افتتاحيات النصوص، ولكن الشاعر المعاصر استحضرها معنى وطور من أبعادها ودلالاتها، من هنا يمكن القول إن الطلل ببُعده النفسي والصراعي بين الحياة والموت بقي قابلاً في القصيدة المعاصرة ولكن بتجليات مختلفة فرضتها طبيعة العصر الحديث وطبيعة الثقافة الحديثة" (٢).

ووقوف الشاعر واستوقافه هو في - حقيقته - إفرغ للواعج نفس تحمل من الذكرى الجميلة ما يشجها ويزيدها وجداً، فحضرها لا يزيد النفس إلا كآبة وحزناً، حاضرًا رتيبًا خانعة أناسه جنباء راضون بالهوان حالاً وبالذل مآلاً. فوقوف الشاعر واستوقاف غيره ما هو إلا شكوى الحال وحسرة على المآل. يقول وقد مرّت السفينة على أرض الأندلس وجبل طارق (٣).

أربان السفينة قف مليا	نوؤن فاتحا ثبت الجنان
كأن رياح هذا الصبح مرّت	بأرواح تنعم في الجنان
أرى جبلاً تسنمه قديماً	دعاه الحق والسُنن الحسان
وساسوا أرض أندلس بعدل	كما صنعوا بأرض القيروان
وما انقلبت إلى الإسبان إلا	على أيدي المزاهر والقيان

وانظر - إن شئت مطلع قصيدته ذكرى المولد النبوي ص ١٩٣ من ديوانه، والتي يقول فيها :

حي ذاك البدر بالزهر النظيم : واملأ الجفن بمراه الوسيم

الغرض:

الغرض الشعري هو العنصر الرئيس في القصيدة، إذ هو الباعث على القول، فما ساق الشاعر إلى نظم قصيدته إلا بواعث حركته، وأحزان أشجته، وأمر عن له، وهدف سعى لتحقيقه.

(١) ينظر التمهيد ص ١٣

(٢) ثقافة الطلل في النص الشعري المعاصر، مجلة الجزيرة الإلكترونية السعودية، الرياض، الجمعة ١/ يناير، ٢٠١٦م.

(٣) الديوان ص ٢٢٦.

وعلى هذا فالغرض أو الموضوع في القصيدة عنصر مهم من عناصر بنائها، ولا غرو أن نجد الموضوع في تجربة الخضر يحتل مساحة كبيرة من القصيدة، ولا غرو -أيضاً- أن نجده يوليه جل عنايته فقد جمع لغرضه من الأدلة الصحيحة ما يقنع المتلقي.

وقد اتكأ في معالجة موضوعه على المعين الإسلامي، يرفده أولاً القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وثانياً توظيف تلك الشخصيات التاريخية التي أحسن الشاعر استغلالها في البرهنة والتدليل على صحة قوله، وأخيراً ما ثقفه في الحياة وما خبره من التجارب الحياتية التي عاشها متنقلاً من قطر لآخر.

ولعل سيطرة "الموضوع" على فكر الخضر كان وراء اتساع مساحته في بنية قصيدته - فكما سبق - أن بينا - أن شاعرنا غالباً ما كان يباشر موضوعه، فلم يمهد له ولم يوطئ لغرضه، ولعل ما وقف عليه الشاعر من طبيعة العصر وما عليه أناسه من السامة والملل من الإطالة والرغبة في الإيجاز كان وراء هذه المباشرة.

يقول متعجباً من شأن من يعكفون على مجالس الشراب ظناً منهم أنها تذهب الهم وتنسي الحزن^(١).

طاف بالكأس على ندمانه	اغتيال الهم فيما زعما ^(٢)
لم يمت همّاً ولم يغتَلْ نُهي	ما بغاة الخمر إلى في عمى
فقدوا أحلامهم من قبل أن	يسفكوا من أكؤس الخمر دما
لو فحصرتم أنفساً همت بأنسنرى	تطفئ العقل رأيتم لَمما ^(٣)
فيها حلوماً عندما	نبصر الأحلام حلت في الدمي ^(٤)

الختام:

إذا كان الموضوع بوصفه عنصراً مهماً يتيح للشاعر الإفضاء والتعبير عن الفكرة التي يريد أداءها فإن ختام القصيدة صورة لنفس الشاعر يعبر فيها عن مراده وغرضه من قصيدته.

وختام القصيدة عند الخضر انعكاس لرؤيته، وغالباً ما يجيء لبث حكمة، أو تقرير حقيقة، أو تلخيص فكرة. ففي قصيدته "حياة اللغة العربية" وبعد أن بين جمالها، عبّر عن ضيق نفسه لبعدها عن الناطقين بها عن الأصول المرعية، وما أصابهم جراء ذلك من العي والحصر والتخلف^(٥):

(١) الديوان ص ٢٠٥، ٢٠٦.

(٢) الندمان: جمع النديم. وهو المنادم والمجالس على الشراب

(٣) اللمم: الجنون الخفيف أو طرف من الجنون.

(٤) الدمى: جمع الدمية: الصورة المنقوشة المزينة

(٥) الديوان ص ٩٩.

نـفـرـوا مـنـهـا لـوـاذا وإذا
 ما زكا تفاح لبنان على
 واستوى في نظر الأعشى ضحى
 جفّ طبع المرء لم تغن النذر^(١)
 حسك السعدان في ذوق منذر^(٢)
 زهر روض وهشيم المحتظر

ويختم قصيدته " طباب الشرق " بتوضيح سبيل الإصلاح قائلاً^(٣):

طباب الشرق في خطرات شهم
 وجمر حماسة في القلب ذاكى

ويقول أيضاً في ختام إحدى قصائده: ^(٤).

والود إن شابته يوماً أثرة
 ضلت معالم صدقه وصفائه

وختام قصيدة الخضر مرتبط أشد الارتباط بموضوع القصيدة. فإذا كانت القصيدة رثاء فالدعاء لختامها وكاء .

يقول في ختام مرثيته لزوجته وكانت بارة سالحة ^(٥).

تجرّعت مُرّ الصّبرِ علي أراه في
 فطوبى لكِ القُربى لدى الله منّة
 حسابي، وعقباي السليمة عقباك
 ونزل كريم في منازل نساك

والختام على هذا ختام تقليدي اتباعي درج عليه القدماء .

و يختم قصيدته " تدريس صناعة الإنشاء " بتلخيص رأيه ، مؤكداً أهمية موضوعه الذي أخذ في معالجته قائلاً ^(٦):

وما الحادي بشعر أبي فراس
 بأعذب من صدى قلم تهادي
 وقد جست أنامله الربابا
 على طرسٍ يخط به كتابا

(١) لوإذا: لاذ به لوإذا، استتر به واحتضن والتجأ— النذر: أنذر بالأمر نذرا أعلمه وحذر من عواقبه

(٢) زكا: نما وزاد - السعدان : نبت من أفضل مراعي الإبل له شوك يشبه به حلمة الثدي ، فيقال له السعدانة.

المذر: الفاسد الخبيث

(٣) الديوان ص ١٧٠.

(٤) الديوان ص ٢٠.

(٥) الديوان ص ١٧٢

(٦) الديوان ص ٢٩.

وقد يختم قصيدته بغير ما يشعر القارئ بختام، وتقف حينئذ على نفس شاعر ما زال في صدره الكثير من المعاني ، ولم تستوعب قصيدته كل ما يكنه من أحاسيس.

من ذلك قوله في ختام قصيدته " تهنئة بالقضاء " وفيها يهنئ صديقه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور على ولايته القضاء بتونس^(١).

أَسْلُو وَلَا أَسْلُو غُلَاكْ وَلَوْ أَتَتْ
لَبْنَانُ تُهْدِي نَرْجَسًا فَيَا حَا
أَوْلَمْ نَكْن كَالْفَرْقَدِينَ تَقَارِنَا
وَالصَّفْو يَمَلَأُ بَيْنَنَا أَقْدَا حَا

فهذا الختام يشعرك بأن الشاعر لم يفرغ بعد كل ما في نفسه ، ولعلي ألتمس له العذر في هذا الإنهاء المفتوح، فالرجل معني بالتأليف والتدريس ، والشعر عنده - كما قال - ليس مطلباً هاماً بقدر ما هو تصوير لخواطر سائحة لتهنئة صديق حميم أو طرق لجانب خلقي أو ليودعه صورة معنى لا أذكر أنني لمحتة فيما طالعته من المنشآت الشعرية أو النثرية^(٢).
ويقول أيضاً في ختام مقطوعته أبناء تونس^(٣).

هَاتِ الْحَدِيثَ فَإِنِّي أَصْبُو إِلَى
أَبْنَاءِ تُونِسٍ مِنْ صَمِيمِ الْقَلْبِ جَدًّا

- المعجم الشعري

المعجم الشعري كما يراه الشاعر/ أحمد الخطيب هو^(٤) البناء الدال على خصوصية النص الشعري،

(١) الديوان ص ٥٧.

(٢) الديوان ص ٧.

(٣) الديوان ص ٨٩.

(٤) ينظر مجلة ديوان العرب الإلكترونية ، تأسست عام ١٩٩٨ ، مقال بعنوان ، "المعجم الشعري" لشاعر، عمر أبو الهيجاء، مارس ٢٠١٥م ، ويرى- أيضا- أن الكلمات في معجم الشاعر ، تتوزع على قسمين، قسم يحمل الكلمات العادية التي نعرفها جميعا بدلالاتها الشائعة، وقسم يحمل الكلمات التي ترتبط بحياة الشاعر ارتباطا خاصا، وتلك هي الكلمات التي تعبر عن معجم الشاعر، وعلاقة الشاعر بالكلمات لا تتساوي، فهناك كلمات تلتحم بحياته التحاما كبيرا، حيث ترتبط باستخدامات ما، أو نكريات ما، أو تشكل مفاتيح لتجارب معينه أو وجهة نظر معينه في الحياة، تلك الكلمات قد تحمل قيمة موسيقية أو دلالية حيث- -- تمتلئ برمزية خاصة بالشاعر ، أو تحدد هويته، وثرء الشاعر من حيث وعيه بطبيعة الشعر ووعيه بالحياة عموما يتجلى في تلك الكلمات ، فالمعجم يمكن أن يشير إلى ضعف الشاعر كما يمكن أن يشير إلى قوته وتميزه، وتكرارها يؤكد على عمق وجودها في حياته، أو قدرتها الكبيرة على مد العون للشاعر وهو يصارع أثناء الكتابة، ومن الممكن استخراج تلك الكلمات واتخاذها محورا لدراسة تجربة الشاعر، والوقوف على تلك الكلمات المفاتيح يمكن بالفعل أن يقدم لنا رؤية عميقة لتجربة شاعر خاصة لو كانت كبيرة ، كما ينبغي في تقديري أن يهتم الشاعر نفسه بتلك الكلمات التي تتكرر في شعره، ويحرص على عدم استخدامها بنفس الدلالة.

وهذه الدلالة ليست دلالة لفظية يمارس معها قلقه في مواضع شتى، بل دلالة حصرية هو منزلها الأول في الجملة الشعرية، وهو أيضا ليس تكراراً للفظه هنا وهناك، بل الحرص على جيناتها النفاغية، والاحتفاظ بها بعيداً عن أعين القوالب الناسخة، كما أنّ المعجم لا يقاس بترحيل المفردات في النصوص، بل بإخفاء المادة الأولى للدلالة المعجمية، والاحتفاء بولاداتها الجديدة في كل نص، فالمعجم الشعري الذي يراه هو الوقوع على تربة تخصيب المفردات، ونشوء تراكيب فنية غير مستهلكة، وغير قابلة للتخاطر الذهني بين الشعراء، هو إعادة تدوير وتشكيل، وتخصيص مقامات عليا وجديدة للاستثناس التصويري والتخييلي للعلاقات.

ويرى غازي الذببة، أن المعجم الشعري لأي شاعر مرتبط بالتنشئة الثقافية والبيئة الجغرافية، وهو، أي المعجم، يتشكل ضمن هذا الأفق، لكن الشاعر البارح هو الذي يصوغ منظومة من المفردات التي ترسم بصمته الإبداعية في أي نص يكتبه، وهي علامته المميزة التي يخلق من خلالها عوالمه وصوره وآرائه، والمعجم الشعري بهذا يتجاوز المفردة إلى الصورة والرؤيا والمعنى والفكرة العامة للنص، بهذا يتميز الشعراء، والشاعر برأيي الذي لا يمتلك معجماً أو خواص إبداعية يفقد نصف إبداعه. (١)

وبالنظر في تجربة الخضر نلاحظ تكراراً لمجموعة من الكلمات بشكل لافت، والتكرار حين لا يقدم إضافة يمكن أن يفقد الكلمات جوهرها الحي ويحولها إلى قطعة جامدة

ففي قصيدة شاعرنا "بكاء على مجد ضائع" والتي قالها في دمشق عام ١٣٣٢ حين وجد للدولة العثمانية شيئاً من الضعف، نراه متحسراً - على حال الشرق الذي هاجر إليه ظناً منه أن يجده حراً طليقاً، يقف في وجه العدو مرفوع الهامة، مسموع الكلمة، إذ به يراه خنوعاً جبائناً مطأطأ الرأس - ومصوراً ما شاهده من ضعف الدولة العثمانية أمام قناصل الدول الأوروبية (٢):

تسـموا إلى أمـدٍ بـعيد	بـين الجـوانح هـمّة
والعـزم كالعـصفور الفـريد	نهضت كـما تبغـي العـلا
أقلام ترسـف في قيـود	أدمى فـؤادي أن أري أل
في قبضـة الخصـم العنيد	وأرى سياسـة أمتي
أنظرهم بيـت القصـيد	فهجرت قـومًا كنت في
يبرح على عهد الرشيد	وحسبت هذا الشرق لم
يقت البلاد على الجهود	يسع الجهود إذا تضـا
بعض الأسى: هل من مزيد؟	ويقول يوم أبثه
من ضيقه خُلق الوليد	فإذا المـجال كأنه

(١) المرجع نفسه.

(٢) الديوان ص ٧٥.

وإذا نظرنا في معجم الشاعر في القصيدة، نجد أن عدد الألفاظ التي تنتمي إلى: حقل دلالي، ست وعشرين كلمة، حقل تصوير "علو همته" عشر كلمات: الجوانح، همة، تسمو، أمد بعيد، نهضت، العلا، العزم، السيف الفريد، بيت القصيد.

حقل تصوير الأسي والمعاناة جراء الاستعمار ستة عشر كلمة: أدمى، فؤادي، الأقلام، ترسف، قيود، سياسة أمتي، قبضة الخصم، العنيد، الأسي، المجال، ضيقه، خلق الوليد، تصوير ظنه الحسن بالشرق ست كلمات: يبرح، عهد الرشيد، يسع، الجهود، تضايقت، البلاد، وإذا تعقبنا معجم الشاعر في هذه القصيدة، نجده يتفق وما يريد التعبير عنه، ففي الحقل الأول نلاحظ ثراء لغويا يعبر عن علو همته، تلك الهمة التي نهضت به، في تكوين فكره واتساع مداركه.

وفي الحقل الثاني نجد ثراء أيضا في تصوير الشاعر لقدر المعاناة والأسي الذي عاشه، على ما أصاب البلاد جراء الاستعمار الغاشم الذي هيمن على البلاد، وسام أهلها سوء العذاب، وفي الحقل الثالث تصوير ظنه الحسن بالشرق والذي كان ظنا في غير محله وإذا تعقبنا معجم الشاعر في قصيدة "عهد الشبيبة والمثيب" والتي بعث بها لشقيقه الشيخ زين العابدين حسين والتي يقول فيها (١)

دعوت إلى دمشق وفي فؤادي	لها شوق أحرّ من الهجير
تقول: حنا الربيع على رباها	وحاكّ طنّافس الزهر النضير (٢)
وهبّ نسيمها الفياح يهدي	إلى أرجائها أذكى عبير
هلمّ نعد عهدا مليئا	بما نهواه من عيش غرير
أزينّ العابدين لمحت مني	قصورا في اللقاء فكن عذيري
أثرت بمهجتي ذكرى ليال	قضيناها بدّمّر في حُبور (٣)
تملينا سلاف الأنس صرفا	ولا قدح سوى أدب السّمير
مضى عهد الشبيبة في صفاء	ورنق كأسنا عهد القتير (٤)
يضيق الباع عن همم حسام	فيا ويلي من الباع القصير (٥)
وفلّ الدهر عزمًا كان يسطو	على الأخطار مصقول الأثير
أعد لي يا زمان حسام عزم	يناهض صولة الخطب العسير

(١) الديوان ص ١٠٩، ١١٠.

(٢) الطنّافس: الواحدة طنّفسة وهي البساط - النضير: الذهب والفضة

(٣) دمر: منتزه في ضاحية غرب مدينة دمشق

(٤) رنق: كدر - القتير: أول ما يظهر من الشيب

(٥)

وخلّ سواي يستمتع بعيشٍ حلا بين الخورنق والسدير^(١)

نجد أن عدد مفردات القصيدة والتي يمكن انتظامها في حقول دلالية تسعين لفظة، أهم هذه الحقول، حقل الطبيعة، حقل المكان، حقل الزمان.

حوي حقل الطبيعة على سبيل المثال تسعة عشر لفظة: حنا الربيع، رباها، حاك طنافس الزهر، النضير، هب نسيم، الفياح، يهدي، أذكى عبير، سلاف، الأنس، صرفا، قدح، أدب السмир.

كما حوى حقل وصف الشوق إحدى عشر لفظة: شوق، أحر، هجير، نهوى، عيش، غرير

وحقل الزمان ثمانية ألفاظ: ، ذكرى ليالٍ، الربيع، عهدا، الشبيبة، القتير، الدهر، يسطو،

وحقل المكان سبعة ألفاظ ، دمشق، رباها، طنافس، دُمر، أرجائها، الخورنق، السدير

فمعجم الشاعر، يمتاز بالثراء والتنوع، وقد وفق في استغلال معجمه استغلالا جيدا، بدا ذلك في إيثاره أحسن الألفاظ وأدلها على أداء المعنى، وأكثرها إثارة، وتحمل دلالتها ورموزها مؤثرات بليغة، فقد احتوى على ألفاظ تحمل دلالات قوية، تصور علو همته وصبره على المشاق في سبيل بلوغ الغاية.

يميل في معجمه إلى اختيار الألفاظ التي تتميز بسحرها وتألقها، فتصبح مفردات ناصعة، غير مستهلكة .

وبعد.

فيرتكز معجم الخضر على تيارين أسهما في تشكيل ثقافته: تيار تقليدي يتمثل فيما لديه من موروث ثقافي والذي يؤكد أصالة الشاعر، وارتبط هذا الموروث بطور النشأة، وتيار تجديدي: يتمثل في تلك الألفاظ المستحدثة والتي اقتضتها ظروف العصر.

- معجم الخضر حوى العديد من ألفاظ الطبيعة، ومال فيه إلى استعمال الألفاظ المجازية المؤثرة، فمعجمه الشعري إذن ثري غني، وقد وظفه توظيفا جيدا ومن ثم منحه خصوصية ميزته عن باقي الشعراء فضمنت له الاستقلالية.

(١) الخورنق: موضع في العراق قرب النجف سكنه بنو إياد أقام فيه النعمان اللخمي قصرا أشاد بذكره شعراء الجاهلية - السدير: قصر في الحيرة قريب من الخورنق اتخذه النعمان لبعض ملوك العجم

الخاتمة

- الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، ياربنا لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما تحب ربنا وترضى، وبعد.
- فقد أسفرت دراسة التجربة في ديوان الشيخ الإمام ، محمد الخضر حسين عن عدة نتائج كان من أهمها:
- قدرة الشاعر على صياغة تجربة شعرية جيدة واضحة المعالم بينة القسومات تؤكد تمكنه من الشاعرية، وأن الملكة والموهبة الأدبية تسوق صاحبها قسراً إلى معاناة الشعر، والتعبير عن الكثير من خوالج النفس ورؤيتها تجاه الكون والوجود، وإن كان مبرزاً في الكتابة .
 - شعر الخضر شعر إسلامي ، بكل ما تعنيه اللفظة ، فقد عالج موضوعات تجربته برؤية إسلامية خالصة، مما يؤكد هذا الاتجاه الإسلامي عند الشاعر.
 - تؤكد الدراسة على دور الدربة والروية في صياغة تجربة جيدة تنأى بصاحبها عن التكلف والصنعة، فالموهبة وحدها لا تكفي لإنتاج شعر رائع يعلق بالقلوب، ويكتب له السيرورة ،
 - انعكست على مرآة تجربته صورة الرجل، وحياته ومشاعره، ورؤيته في الكون والحياة والأحياء من حوله ، انعكاساً تصويرياً حياً ، فبإمكان المطلع على ديوانه أن يقف على حياته من شعره، حياته في طفولته، وحين شب عن الطوق، وبعد أن صار شاباً يافعا في شبابه وشبيبته، حياته في وطنه الأم، حياته في وطنه الذي هاجر إليه، حياته في صحته وفي مرضه، حياته بين أصحابه وأهله ، ما يحب وما يكره ، ما يفرحه وما يحزبه، أماله وألامه ، أسفاره ورحلاته، وهذا يؤكد أن الرجل يحمل نفساً واضحة القسومات بينة المعالم ، نفساً سوية أبية ماتت دون تحقيق ما تصبو إليه من الحرية.
 - التزام الشاعر في تجربته بعمود الشعر العربي ، وبانطباعيته وبعده عن الصنعة والتكلف خليق بأن يضعه في مصاف أعلام العصر الحديث .
 - أكدت الدراسة أن التجربة الشعرية تتأثر بشكل كبير بالعوامل التي رافقتها، والظروف المختلفة التي أحاطت بصاحبها.
 - ضرورة الاستعانة بالمعجم الشعري للشاعر كأداة كاشفة عن لون تجربته، وشعوره النفسي، وتوجهه الأدبي، وما يصحب ذلك من أمراض وأدواء .
 - هجرة الوطن قد تولد الكثير من الأمراض النفسية و المشاعر الحزينة، كالكبت والانطواء والعزلة والاغتراب.
 - أكدت الدراسة أن الأزهر كان وسيظل - إن شاء الله- منارة العلم ومنبع الثقافة ، فقد تخرج منه فحول هم أساطين الدين والأدب والسياسة، وربى أجيالاً ما عرفوا يوماً التعصب لجنس أو لعرق، وشاعرنا دليل أكد على ما نقول، فقد تقلد مشيخة الأزهر وهو جزائري الأصل تونسي المولد والنشأة.

- تجربة الخضر الشعرية وجدانية بالدرجة الأولى، يمزج فيها الشاعر بين العقل والقلب خضوعاً للرؤية الإسلامية .

أكدت الدراسة على شدة حب الشاعر للغته، وغيرته الشديدة على دينه ومقدساته وشاهدنا على ذلك قاموسه اللغوي الأصيل وعموده الشعري التقليدي - في معظمه وصوره التي تمتد بجذورها نحو الماضي بأصالته وقوته، ودعواته الصراح للتمسك بحبل الله المتين، وبتعاليم ديننا القويم ، والذب عن حياضه ومقدساته .

- إن الخضر مع ما عرف عنه من ميل إلى الكتابة فله تجربة شعرية جيدة تستحق مزيداً من البحث والدراسة.

هذا وأسأل الله عونا وسداً دائماً، وأحمده سبحانه على آلائه ونعمه، والحمد لله أولاً وأبداً .

ثبت المصادر والمراجع

م	أولا المصادر:
١	موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، اعتنى بها / على الرضا الحسيني - دار الأنوار. "سورية، لبنان، الكويت، ١٤٣١ هـ ٢٠١٠ م ومنها: -
٢	الإرث الفكري للإمام محمد الخضر.
٣	الخيال في الشعر العربي ودراسات أدبية.
٤	ديوان الشاعر "خواطر الحياة" .
٥	القاديانية والبهائية، محمد الخضر حسين.
٦	ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر.
٧	ثانيا المراجع
٨	الإسلام في الأدب العربي المعاصر، د/ إبراهيم عوضين، مطبعة السعادة ، القاهرة، ١٩٨٧/١٤٠٨ هـ
٩	الإسلامية والمذاهب الأدبية أ / نجيب الكيلاني ط. مؤسسة الرسالة، بيروت، طبعة، ١٩٨٧ م
١٠	الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة الإسلامية. / مصطفى حلمي، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، الأولى: ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.
١١	آثار أبي العلاء المعري مجلد ٢ جزء ١، الناشر الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٤ م
١٢	أسس النقد الأدبي عند العرب، أ/ أحمد بدوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة ، ١٩٧٩ م
١٣	أصول النقد الأدبي، الأستاذ / أحمد الشايب، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٤ م
١٤	الأغاني، أبي الفرج الأصفهاني ج ٩، ط دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٩٢ م.
١٥	أوزان الشعر وموسيقاه مع تطبيق على مدارس الشعر العربي في العصر الحديث ومحاولات التجديد العروضي/ محمد أحمد فايد هيكمل، الضحى للطباعة والنشر. ٢٠١٧، ٢٠١٨ م.
١٦	الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، د عبد القادر القط، الثانية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط٢، ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م.
١٧	ابن الرومي حياته من شعره، عباس محمود العقاد، دار الكتاب العربي، ط/ السادسة بيروت ١٩٦٧ م.

١٨	ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان د/ محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع، ١٩٥٨م.
١٩	البناء الفني في شعر ابن جابر الأندلسي، د/ سلام علي حمادي الفلاحي، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠١٣م.
٢٠	البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر، د/ علي صبح- المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ١٩٩٦م
٢١	البنية الفنية لشعر الفتوحات الإسلامية في عصر صدر الإسلام، حسين علي الدخيلي، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان الأردن، رقم الإيداع ٢٦١٨/٧/٢٠١٠م.
٢٢	بناء القصيدة في النقد العربي القديم (في ضوء النقد الحديث) يوسف بكار، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٩٨٣م.
٢٣	البهائية: تاريخها وعقيدتها وصلتها بالباطنية والصهيونية، أ/ عبد الرحمن وكيل، الناشر، دار المدني للطباعة والتوزيع، جدة، ١٩٨٦م
٢٤	التناسق في نماذج من الشعر العربي الحديث، موسى ربابعة، طبعة، أربد الأردن، مؤسسة حماد للدراسات الجامعية، للنشر والتوزيع، ٢٠٠٠م
٢٥	التناسق في الشعر العربي المعاصر: التناسق الديني نموذجاً، أ / ظاهر محمد الظواهره -نسخة الكترونية.
٢٦	حازم القرطاجني: حياته ومنهجه البلاغي، أ /عمر إدريس عبد المطلب، دار الجنادرية للنشر والتوزيع السعودية، ٢٠٠٩م
٢٧	خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، تأليف ، عبد القادر بن عمر البغدادي ، قدم له ، د / محمد نبيل الطريفي ج٧ ، دار الكتب العلمية بيروت .
٢٨	دراسات في النقد الأدبي الدكتور / محمد عبد المنعم خفاجي. الطبعة الأولى، دار الطباعة المحمدية بالأزهر.
٢٩	دراسات في شعر المهجر، شعراء الرابطة القلمية، دار المعارف ١٩٦٤م
٣٠	ديوان امرئ القيس، ضبطه وصححه، الأستاذ مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان. ٢٠٠٤م
٣١	ديوان أبي تمام، شرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف. الطبعة الرابعة

٣٢	ديوان الإمام الشافعي، شرحه وقدم له / يوسف سامي اليوسف، مؤسسة علاء الدين للطباعة والتوزيع، سورية، دمشق، الأولى ٢٠٠٣م
٣٣	ديوان العباس بن الأحنف، شرح وتحقيق، عاتكة الخزرجي، مطبعة، دار الكتب المصرية، القاهرة، الأولى ١٣٧٣هـ، ١٩٥٤م
٣٤	دار الطراز في عمل الموشحات ابن سناء الملك - تحقيق جودة الركابي، دمشق ١٩٤٩م
٣٥	دمشق: أقدم عاصمة في العالم - حسن زكي صواف، - دار قتيبة للطباعة والنشر، دمشق، ٢٠٠٤م.
٣٦	رماد الشعر، عبد الكريم راضي جعفر، ص ٣٠٩، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، ١٩٩٨م.
٣٧	شرح ديوان الحماسة، أبي علي أحمد بن الحسن المرزوقي، تعليق الكاتبة / غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ٢٠٠٣م
٣٨	الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث / مصطفى عبد اللطيف السحرتي، تهامة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
٣٩	الشيخ محمد الخضر حسين، سيرته ومؤلفاته، د/ محمد إبراهيم الحمد، دار ابن خزيمة - السعودية - الرياض الأولى ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.
٤٠	شرح المعلقات السبع، أبي عبد الله الحسين بن أحمد، الزوزني، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ١٩٧٨م
٤١	شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، لأبي العلاء المعري، المسمى ب معجز أحمد، تحقيق د/ عبد المجيد دياب، الجزء الأول، دار المعارف، الثانية، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.
٤٢	شعر الأسر والسجن في الأندلس: جمع وتوثيق ودراسة د/ بسيم عبد العظيم عبد القادر، مكتبة الخانجي، ١٩٩٥هـ.
٤٣	الصورة الفنية في شعر دعبل الخزاعي د/ علي إبراهيم أبو زيد، دار المعارف، الثانية ١٩٨٢م.
٤٤	الصورة الفنية في شعر الطائيين بين الافتعال والحس / وحيد صبحي كبابة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، الأولى ١٩٩٩م.
٤٥	الصورة الأدبية تاريخ ونقد/ علي علي صبح، دار احياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي - القاهرة - بدون تاريخ.. .

٤٦	الصورة السمعية في الشعر العربي قبل الإسلام، صاحب خليل إبراهيم، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٠م
٤٧	العمدة في محاسن الشعر ونقده، ابن رشيق القيرواني، دار الجيل بيروت، لبنان
٤٨	العقد الفريد، أحمد بن عبد ربه الأندلسي، تحقيق، عبد المجيد الترحيني، الجزء / السادس، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ٢٠٠٦م .
٤٩	العقد الفريد لأحمد بن عبد ربه الأندلسي، شرح أحمد أمين وإبراهيم الإبياري، طبعة، دار الكتاب العربي، ١٩٩٠م.
٥٠	علي بن الجهم حياته وشعره، سلسلة أعلام الأدباء والشعراء حسن جعفر نور، الجزء ٧٣ ط. دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٨٩م.
٥١	عناصر القصة في الشعر العباسي، منتصر عبد القادر الغضنفر، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان الأردن، الأولى، ٢٠١١م: ٢٠١٢م
٥٢	عن بناء القصيدة الحديثة د. علي عشري زايد القاهرة دار الفصحى للطباعة والنشر ١٩٧٧م
٥٣	عيار الشعر، محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، شرح وتحقيق، عباس عبد الساتر، مراجعة نعيم زرزور، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الأولى ١٩٨٢م
٥٤	الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر، الأستاذ / محمد راضي جعفر، طبعة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٩م.
٥٥	فلسفة الإيقاع في الشعر العربي، د علوي الهاشمي، الأولى ٢٠٠٦م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان.
٥٦	في النقد الأدبي / عبد العزيز عتيق ط. دار النهضة العربية - بيروت - الثانية ١٣٩١هـ - ١٩٧٣م.
٥٧	في النقد الأدبي د/ شوقي ضيف، الطبعة التاسعة - دار المعارف.
٥٨	قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث د/ محمد زكي العشماوي دار الشروق الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
٥٩	كتاب جمهرة الأمثال _ لأبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري _ ضبطه د. أحمد عبدالسلام _ خرج أحاديثه أبو هاجر محمد سعيد بن السيوفي زغلول ، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، نشر، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م .

٦٠	كتابات حول الإمام محمد الخضر حسين، علي الرضا الحسيني، ، الدار الحسينية للكتاب، الطبعة، الأولى ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م.
٦١	، كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر) أبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق د مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٨ م.
٦٢	لمحات من الشعر القصصي في الأدب العربي، د/نوري حمودي القيسي منشورات دار الجاحظ للنشر، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، الجمهورية العراقية، ١٩٨٠ م
٦٣	المغرب الكبير، العصور الحديثة د/ جلال يحيى ، ج ٣ ، النهضة العربية ، ١٩٨١ م.
٦٤	ميزان الذهب في صناعة شعر العرب، السيد أحمد الهاشمي ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، ١٩٧٩ م.
٦٥	محمد الخضر حسين حياته وآثاره، د محمد موعدة، الدار التونسية للنشر. تونس ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م.
٦٦	مصارع العشاق لأبي محمد جعفر بن أحمد القارئ، دار صادر بيروت
٦٧	مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي، جابر عصفور، الهيئة المصرية العامة للكتاب - الخامسة سنة ١٩٩٥ م.
٦٨	منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب ، ابن الحوجة - دار الكتب الشرقية - تونس ١٩٦٦ م.
٦٩	مدينة تونس في القرن الحادي والعشرين محمد المنجي بلحسين - المجلد ١ - طبعة ١٩٩٧ م .
٧٠	مستويات البناء الشعري عند محمد إبراهيم أبو سنة، أ/ شكري التوانسي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الأولى، ١٩٩٨ م.
٧١	مسند إسحاق بن إبراهيم بن راهويه، دار الكتاب العربي، ٢٠٠٢ م
٧٢	معالم العروض والقافية، الدكتور عمر الأسعد - العبيكان، الثالثة، ١٤١٦ هـ ١٩٩٦ م.
٧٣	مجمع الأمثال، أحمد بن محمد الميداني، تحقيق، محمد محيي الدين عبد الحميد المجلد الأول، طبعة، ١٩٩٠ م.
٧٤	موسيقى الشعر، د/إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الخامسة.

٧٥	موسيقى الشعر العربي، حسني عبد الجليل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩م.
٧٦	الشكوى والعتاب وما وقع بين الخلان والأصحاب، لأبي منصور الثعالبي، دار الصحابة بطنطا، الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩٢م
٧٧	النزعة الإسلامية في الشعر السعودي الحديث والمعاصر، د. حسن بن فهد الهويمل، مطابع الناشر العربي، الرياض ط ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.
٧٨	النقد الأدبي وأزمة الهوية د/ محمد طه عصر، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢م.
٧٩	النقد التطبيقي والموازنات، محمد الصادق عفيفي، ط ١٣٩٨هـ / ١٩٨٧م.
٨٠	مجلة أبعاد الإلكترونية، مقال تحت عنوان، التجنيس في تونس بين القبول والمعارضة خلال فترة الحماية الفرنسية ١٨٨١، - ١٩٥٦.
٨١	مجلة العربي، الكويت العدد ١٩ يناير ١٩٧٥م، مقال بعنوان "معنى الاغتراب عند الإنسان العربي المعاصر"
٨٢	مجلة المعرفة الإلكترونية، قائمة شيوخ الأزهر، بدون تاريخ.
٨٣	مجلة عالم الفكر مج ١٠ ع ١٠ - ١٩٧٩م، مقال بعنوان "الاجتراب في الإسلام" الأستاذ/ فتح الله خليف .
٨٤	الموقع الرسمي للمكتبة الشاملة
٨٥	موقع الوعي الشبابي الكويتي ، مقال للأستاذ / عبدالهادي صافي، بعنوان، قصيدة الحج في الشعر العربي الحديث ، أخر تحديث ، ٣١ / / ١٠ / ٢٠٢٠م
٨٦	مجلة الجزيرة السعودية الإلكترونية، مقال بعنوان "ثقافة الطلل في النص الشعري المعاصر". الرياض، الجمعة ١ / يناير، ٢٠١٦م
٨٧	مجلة ديوان العرب الإلكترونية، تأسست عام ١٩٩٨، "المعجم الشعري، الشاعر، عمر أبو الهيجاء، مارس ٢٠١٥م
٨٨	مجلة الكاتب المصري ، العدد ٨ ، " مشكلة فرنسا في شمال إفريقيا " ، أ / محمد رفعت دار الكتاب المصري ، القاهرة ، ١٩٦٤م .
٨٩	مدونة أحمد طوسون أدب وثقافة قراءة في (ديوان خواطر الحياة) للشيخ العلامة محمد الخضر حسين بقلم: عبد الله لالي.
٩٠	ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

التراجم والمعاجم	٩١
الأعلام، خير الدين الزركلي الجزء : الأول والثامن، دار العلم للملايين الطبعة: الخامسة عشر، ٢٠٠٢م . .	٩٢
الأنساب = أنساب العرب = تاريخ العوتبي المؤلف: أبو المنذر سلمة بن مسلم بن إبراهيم الصحاري العوتبي الكتاب مرقم آليا غير موافق للمطبوع الأنساب للصحاري.	٩٣
معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى سنة ٢٠٠٢م، كامل سلمان الجابوري، ج٢، منشورات دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان.	٩٤
معجم البابطين، لشعراء العربية، في القرن التاسع عشر والعشرين، مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين الثقافية الإلكترونية.	٩٥
الوافي بالوفيات / صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي تحقيق/ جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.	٩٦
معجم الرائد؛ المؤلف: جبران مسعود، دار العلم للملايين، ١٩٩٢م	٩٧
المعجم الوسيط-مجمع اللغة العربية بالقاهرة -صدر: ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م	٩٨
معجم المعاني الجامع، معجم عربي عربي ،	٩٩
لسان العرب ، ابن منظور ، دار المعارف ، ج ٣ .	١٠٠

فهرس الموضوعات

رقم الصفحة	الموضوع
١١٩٩	المقدمة
١٢٠١	التمهيد
١٢٠٩	الفصل الأول: الدراسة الموضوعية (موضوعات التجربة الشعرية)
١٢٧٤	الفصل الثاني: الدراسة الفنية (عناصر التجربة الشعرية)
١٢٧٤	- الانفعال والوجدان
١٢٧٧	- البنية التعبيرية
١٢٧٧	*الألفاظ والأساليب
١٢٩٧	*المعاني والأفكار
١٢٩٩	*الصور والأخيلة
١٣١٥	*الموسيقى والإيقاع
١٣٣٩	البناء الفني للقصيدة في تجربة الخضر
١٣٤٦	المعجم الشعري
١٣٥٠	الخاتمة
١٣٥٢	ثبت المصادر والمراجع
١٣٥٩	فهرس الموضوعات